الطبعة الأولى



1436هـ - 2015 م

تفسير سورة

الأنبياء

للشيخ

عمر محمود أبو قتادة

مجموعة نخبة الفكر تقدم:

كتاب:

تفسير سورة الأنبياء

لفضيلة الشيخ:

عُمَر محمود أبو قَتادة

- حفظه الله -

[الطبعة الأولى]

نخبة الفكر

جمادى الثاني ١٤٣٦ - أبريل ٢٠١٥

ملاحظة مهمة:

إن الطبعة الاولى حوت أغلب الكتاب، إذ أن تتمة الكتاب ناقصة لضياع الأصل، وإن وجدت وطبعت، سوف ننزل التتمة في الطبعة الثانية ..

نخبة الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مُحَمَّدٍ الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فإن بشريةَ الدعوة وربانيتها قضيةٌ قرآنيةٌ عظيمة، ذلك لأنها حركة إنسانٍ مُريد، وفضاؤها القدر المحكوم بالسُنَن، ومع ذلك فإن اختلاف الناس بين مؤمنٍ وكافرٍ بها يعني أن يحكم الله بينهم في العاقبة.

فبشريةُ الدعوة إحدى محطات الابتلاء الرباني للإنسان، حيث رفض الأكثرون الدعوة استكبارًا عن متابعة بشرٍ مثلهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ و ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُمَا﴾، ولأن في هذه البشرية وخضوعها للسُنَن ابتلاءٌ للمستكبرين أنهم أقدر على حسم المعركة مع أهل الدعوة لِما يملكون من أدوات القدرة؛ فتغريهم الشياطين من الإنس والجن أن العاقبة لهم، وهو من المكر الإلهي بالعصاة والمستكبرين. وأمّا هذه البشرية التي يحياها الداعي تعيش الدعوة ذاتها ويعيش أهلها في حركة ابتلاء وامتحان، كما يعيش خصومها في فضاء مَكرٍ وإغراء، ويكون الصراع بين الطائفتين على وفق هذين الأمرين حتى يتحقق الوعد الإلهي.

فبشريةُ الدعاة وخضوعُ قدر الدعوة على وفق السُنَن ابتلاءٌ ومَكر، وامتحانٌ وإغراء ليتحقق الوعد، وقد فصّل القرآن هذا في سور وآيات، ولعلَّ «سورة الأنبياء» هي أكثر السور تفصيلًا لحركة الأنبياء الذاتية، حيث قصَّت على المؤمنين سيرهم، فتحدثت عن شؤونهم الداخلية، وكيفية قضاء الحوائج من خلال السلوك العابد المخبت، وهي ككل السور جعلت أساس حركة الوجود عطاءً ومنعًا، وحفظًا وزوالًا؛ مرتبطًا بالتوحيد وواجباته، وحيث فصّلت في شأن أخبار الأنبياء فإنها جعلت الخط الجامع لهم هو تبليغ الرسالة وأداء الأمانة والتبشير والإنذار.

ومع قضية الإنذار كان السؤال الجاهل يتردد دومًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾، ويأتي الردُّ الربانيُّ مستعليًا على هذه الجهالات، مع تقرير الحقيقة أن العاقل هو الذي يستعد له لا هذا الذي يستهزئ به. والقرآن حين يلقي على قلب الرسول ﷺ وعد العاقبة، فيقع الاطمئنان وبرد اليقين؛ فإنه يقرر حقيقة العناية الإلهية بالداعي والدعوة، لا ليقع التشابه في الفعل ولكن ليقع الوعد بالنصر على وجه يرضى به الداعي، ذلك لأن كل

ناظر يرى أن ما تحقق لرسول الله ﷺ من العاقبة لم تشبه بالفعل ما وقع لأيِّ نبيٍّ قبله، لكن وقع له النصر ككل نبي سبقه، وكان نصره ﷺ أعظم وأدوم، ولذلك ستدوم أمته حتى قيامِ الساعة ووقوعِ علاماتها الكبرى بخروج يأجوج ومأجوج، فإن كانت القرى السابقة قد بادت فإن قرى مُحَمَّد ﷺ ستدوم حتى قيام الساعة، وهذا ما تخبرنا به هذه السورة العظيمة كما سيأتي.

وهذا الأمر يعني لكل ناظر عاقل أن ما وقع للأنبياء السابقين مع أممهم من النصر سيقع للوارثين لرسول الله ﷺ من بعده، حيث ستجري السُنَن بلا تخلف، وحيث إن عماد نصر الله لأنبيائه من قبل؛ هو الاتباع والدعوة والإخبات والعمل الصالح فإن هذا العماد هو عينه عماد نصر هذه الأُمَّة، ذلك لأن النصر الذي تحقق للأنبياء ليس خارج إطار السُنَن، ولا لمعنى خاص في الأنبياء، إنما هو لفعل بشري يمكن تحصيله لأتباع مُحَمَّد ﷺ من المهتدين، وليسوا بأنبياء، ولذلك تقرر في هذه السورة الحقيقة القدريّة التالية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وأمّا فترة «المكر والإغراء» فهي فترة ذاهبة، قد تطول وقد تقصر: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

في الشأن الداخلي للأنبياء والحديث عنه تقريبٌ وترغيبٌ للاقتداء، حيث يرى المؤمن القرآني نفسه في داخل القصة على وجه من الوجوه، ذلك لأن شأن النبوة عظيم، وهم أعظم الخلق، وحيث هم كذلك فإن مجال صناعة الوهم حولهم كبير جدًّا، وحين يكبر الوهم حولهم تتحول شخوصهم إلى أساطير تتجاوز الحقائق الإنسانية، وهذا أمر مطرد في الشعوب والأمم، فإن الأوهام حول السابقين من مقدمي الأمم تغلب الحقائق، ومن نظر في تاريخ أمتنا، وهي التي فيها من المواعظ والأحكام التي تمنع هذه الصناعة رأى هذا كثيرًا، فمفهوم الولاية في طوائف عدة في هذه الأمة فيه التجاوز عن حدود البشرية إلى درجة الأسطورة والوهم، وهي من أكبر الذنوب والمعاصي التي تصيب العلم والإدراك.

ولذلك حين يأتي القرآن إلى هذه المساحة الوارفة من بشرية الأنبياء في هذه السورة إنما يُقرِّب للمؤمن القرآني صورة الأسوة على وجه يدفعه للمتابعة، لأنه أمام بشر مثله، مع ما يحقق من الألفة والحب لهذا المتبوع حين يبقيه في مجاله الإنساني الأرضي في حركته وانفعالاته، ولذلك فلا عجب أن يرى المؤمن نفسه في هذا القرآن في هذا المجال، كما أن الكافر يرى نفسه حين تتحقق العاقبة له بالخذلان والهزيمة، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وسمة البشرية للأنبياء فيها عناوين كثيرة، لكن أعظم عنوان فيها أن الأنبياء حين بدؤوا مع أقوامهم بدؤوا مع فراغ أيدٍ وقوة، إذ جميع الأنبياء الذين أرسلوا إلى قوم عصاة لم يكونوا ملوكًا، كما لم يكن لهم في بداية دعوتهم إلا قوة إنذار واحدة هي قوة الكلمة، لكنها ليست على المعنى الذي يريده المجرمون منها؛ أي أن تبقى كلمة ثم يمشي كل فريق إلى حاجته ومراده واختياره، بل هي كلمة البلاغ، أي التي تحمل الحق بالتوحيد والشرع والقيم، كما أنها كلمة إنذار وعاقبة، والإنذار لا يكون إلا لفعل، وحيث يكون الفعل تكون القوة وإلا لكان الإنذار عبثًا لا قيمة له، ولذلك تقدم ذكر الإنذار الذي حمله رسول الله ﷺ لقريش أن بوادره قد لاحت حين بدأ ركب الإيمان بالزيادة وركب الكفر بالاضطراب والقلق، فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾.

إذًا هي سورة تجمع بين بشرية الداعي وربانية المسيرة والعاقبة، يحصل لحملتها قبس من معاني المقتدين الأخيار من الأنبياء والرسل في حياتهم وشؤون أنفسهم، كما يحصل لهم العاقبة من النصر ضد أعدائهم وخصومهم، وهي من السور التي قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه: "هن من العتاق الأول وهن من تلادي"، مع الإسراء والكهف ومريم وطه، وهذا دليل على أنها من السور المكية الأولى السابقة في النزول، كما أنها سلوة للمؤمنين في مرحلة البناء الأولى، فتلاد الرجل ماله الأول، بل هو أصل ماله، وهي سورة كذلك في تربيتها للداعي إلى الله حيث يحصل له اليقين والثبات لتحصيل الوعد وإدراك النصر.

بسم الله الرحمن الرحيم...

قوله تعالى:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ ○ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ○ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ○ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]

هذا المطلع القارع في هذه السورة له سببه لموضوع السورة الكلي، فهي تتحدث عن عاقبة الأنبياء مع أقوامهم، وحيث إن مقدمات العاقبة في مطلع الدعوة لا تكون لائحة لِما مع القوم من القوة، ولِما هُم فيه من الاستقرار، ولهذا فهُم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ وذلك للحاضر الخادع، ولغياب النظر في يد الله وأمره وحكمته، ولقلة التفكر في الأمم السابقة وما جرى عليها، وحين تغيب العاقبة القريبة عن النفس الجاهلة فإن غيابها عن العاقبة البعيدة – وهي الساعة – أبعد.

فهما عاقبتان للمعرضين حين تبدأ الدعوة بالصدع والبيان، أمّا العاقبةُ الأولى فهي انتصار هؤلاء الضعفاء المساكين، إذ أمرهم وهُم في رعاية الله وحفظه وفي تمسكهم بالحق والاهتداء به يجري من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، حيث تزيد الأرض التي يملكونها، وتقل أرض خصومهم، وهذه عاقبة لا يراها المستكبرون، ولا يقابلون التنبيه عليها إلا بالاستهزاء والاحتقار، فلا يوجد مع البدايات أي إشارة لهذه العاقبة، وأما كون الحق مع الدعاة فهذه قضية لا يجعلون لها أثرًا، ولا يقيمون لها عناية في هذا الصراع. وأما العاقبة الأخرى فهي القيامة ولقاء الله، وكما أن القوة في العاقبة الأولى ستار يحجبها فإن الترف والغفلة في العاقبة الثانية ستار يحجب العقول الجاهلة عن البصر والنظر والتفكّر. فهكذا جاء هذا المطلع ليقرر مبدأ الغفلة دون سواه مانعًا من رؤية العاقبة، وستارًا من إبصار الغد الذي لا مفرَّ منه، وحجابًا عن التفكر والنظر والاعتبار.

وفي هذا المطلع تقرَّر حقيقة ربانية وهي: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، وهذا اللفظ القرآني شامل لمعنيين:

– اقتراب القيامة؛ فرسولُ الله وبعثتُه علامةٌ من علامات الساعة كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ولقوله ﷺ: ((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ)) وأشار للسبابة والتي تليها، وهذا المعنى فيه أمور منها: أن أُمّته ﷺ آخر الأمم، فلا أُمَّةٌ ترثها، فلو كان هناك أُمَّةٌ ترثها لكان لها رسولٌ آخر لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾،

[1] الأنبياء: ١-٤

ورسول الله ﷺ خاتَمُ الرسل فأُمَّته خاتمة الأُمم. وهذا الخبر القرآني وهو ينزل في مكة على رسول الله ﷺ ليهدي أن هذه الأُمَّة لن يصيبها ما أصاب الأُمم السابقة من الهلكة، ولن يقع عليهم الاستئصال، ويضاف لهذا أن في هذه السورة كما سيأتي خبر وفاة رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فدلَّ هذا على أن أُمّته سترثه من بعده إلى قيام الساعة، وهذا وعدٌ مطوي في هذه السورة يعلمه من علمه ويجهله من جهله.

ثم إن في هذا المعنى جريانُ الأحداث في الوجود على غير معنى الاستئصال للخصوم، فلم يحدث منذ بعثة النبي ﷺ أن أهلك الله قومًا إهلاكًا شاملًا، إنما هي الهداية أو الضلال، وهذا خلال الأمم السابقة حيث كان عاقبة دعوة النبي لقومه أن يهلك الله العصاة وينجي المؤمنين، كما حدث مع قوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين، ولذلك فهذه أمة مبتلاة مع خصوم لا يبيدون ولا يهلكون إنما هي الهداية لبعضهم كما أكرم الله رسوله بهداية أهل مكة والطائف واليمن في حياته، وكما أكرمه بانتشار الدين في شرق الأرض وغربها بعد وفاته، وكذلك الضلال والإعراض مع آخرين، وهكذا سيجري البلاء لهذه الأمة مع الأمم الأخرى على هذا النسق والوفق، فلا هلكة ولا استئصال، ولذلك يقول النبي ﷺ: ((تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ)) ويقول: ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ)) ويقول: ((يَتْبَعُ الدَّجَّالُ مِن يَهُودِيَّةِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمْ الطَيَالِسَة)) فخصوم النبي ﷺ في زمانه هم خصوم أُمّته من بعده، وهكذا إلى قيام الساعة، ذلك لأن الزمن واحد من بعثة رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة.

ومن فَقِه هذا الأمر على وجهه أدرك سُنّة التداول بين هذه الأُمَّة وبين خصومها، كما كانت سُنّة التداول بين رسول الله ﷺ وبين خصومه ثم تكون العاقبة له، وكذلك في كل موقعة بين أهل الإيمان وخصومهم تكون العاقبة للمؤمنين، ثم تدور الدائرة، وتبدأ سوق جديدة حتى تقوم الساعة، وهذا بيِّنٌ في تاريخ هذه الأُمَّة، حيث جرى لها هذا المعنى مع خصومها، فيوم لها ويوم لهم، وفي كل مرة يحصل أن ينجز أهل الإسلام إنجازًا حميدًا وأرضًا جديدة وتقدمًا لأهل الإسلام، في حركةٍ مطردة لا تتخلف إلى يومنا هذا، والمنكر لهذا المعنى إنما يؤتى من جهله ومن قلة نظره وبصره للعواقب والأحداث.

وكذلك من فِقْه هذا الأمر؛ أن يعلم أهل الإسلام أن وجود أعدائهم هو ثمن قدر لازم لهم، وأن التنازع بينهم ليس عاقبته على وجه الاستئصال والإفناء إنما على وجه التدافع، فلن تفنى إحدى الطائفتين إلى قيام الساعة، بل

سيبقى التدافع والمنازعة بين الفريقين، وعِلْمُ الأُمَّة بهذا الواجب يوجب عليهم أن لا ييأسوا حين الضعف، ولا يفرحوا عند القوة، فإن لكل حال ضده الذي سيخلفه، والمهتدي من نازع عند الضعف، ودفع عند القوة، ولكل أجل من الحالين كتاب كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

- أمّا المعنى الثاني الذي يشمله هذا اللفظ القرآني فهو اقتراب الموت، فإن قوله تعالى: ﴿حِسَابُهُمْ﴾ فيه معنى الموت كذلك، ذلك لأن كلَّ ميتٍ قد بدأ حسابه، إذ أولُ الحساب هو القبر، والموتُ لكل أحد قيامتُه الصغرى، وغياب الموت عن ذهن الناس إنما هو لغفلة الدنيا، وهذا المعنى لاحقٌ للمعنى الأول، فالأول أصلي لأن من نزل عليهم القرآن في مكة كانوا منكرين للقيامة والبعث بعد الموت.

وهذه السورة إذ تبدأ بذكر الحساب فهي كمثيلاتها كسورة النحل التي قال الله فيها: ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وسورة القمر كما تقدم في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وكالسورة التي تليها وهي الحج وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وسور أخرى في المفصل معلومة لأهل القرآن، ذلك لأن أعظم ما ينتظر هذا الوجود - ومنه الإنسان - هو قيام الساعة، وقد عظَّم القرآن الكريم شأنها، وهي كذلك في قلوب المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ وإخبار الله تعالى المؤمنين بها رحمة بهم ليستعدوا لها، وليكون إيمانهم بها باعثًا لهم على الطاعات وترك المعاصي، والإكثار من الأعمال التي تحقق لهم الأمان يومها.

ثمّ إن إنذار المؤمنين بيوم القيامة هو شأن أهل القرآن، وهو شأن المتابعين لسُنّة النبي ﷺ؛ فإن النبي ﷺ كانت هذه سُنّته مع أصحابه، فقد كان ينذرهم بها ويخوِّفهم من هَولها، لأن الصلاح والتقوى لا يحصلان في قلب العبد إلا بذكر الدار الآخرة والخوف من يوم القيامة وما وراءه كما قال تعالى عن أنبيائه: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾، ومن العلم الواجب تحصيله اليوم التحذير من «أنسنة» الإسلام وإفراغ معناه من ذكرى الدار الآخرة، ذلك لأن انشغال الناس اليوم من الدعاة وغيرهم في ردّ هجمات الملحدين على الإسلام ومحاولتهم إثبات صلوحه للعصر أوصلهم إلى إغفال أمر أخروية هذا الدين، مع أن هذا هو الأصل، وأما صلوحه الدنيويُّ فأمر تبع، لأنه لو حصل تنازع بين مصلحة الآخرة ومصلحة الدنيا لقدمت مصلحة الآخرة إجماعًا كالشهادة في سبيل الله تعالى، وهذا بيّن في كتاب الله تعالى، بل إن منازعة الكافرين زمن الاستضعاف لا يُقدم عليها إلا أهل اليقين بلقاء الله تعالى، وإنما يتخاذل وينافق ويتنكب أهل الريب وضعفاء الإيمان، وفي هذا لا يغرنك كثرة الكلام ولا شقشقته

ولكن انظر إلى الذين يبيعون أرواحهم لله، ويقدمون نفوسًا رخيصة في سبيل الدين، ثم قلّب نظرك في الآخرين حيث تجد ما وصفه رسول الله ﷺ بقوله: ((حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)).

ولذلك فعنوان هذا الدين، وعنوان العاملين فيه وله؛ إنما هو ذكرى الدار الآخرة، وحب لقاء الله، والخوف من عذابه، والاستعداد ليوم القيامة، وحين يتحقق هذا المعنى في القلوب تهون بقية الأمور ويسهل تحصيلها، إذ بهذا الإيمان تنبعث الإرادات وتثور العزائم وتتحقق الفاعلية.

والقرآن الكريم إذ يقرر حقيقة سبب الإعراض عن حقائقه وهي «الغفلة»؛ ليمنع الظنون من إسباغ العلمية على منكري الآخرة، وهؤلاء حين ينازعون في هذه الحقيقة يحاولون جاهدين جعل أقوالهم ذات صبغة علمية عقلية؛ فهُم القوم الذين لا تدخل الأهواء أقوالهم، بل هم أهل العلم والنظر في الكون وإدراك سُنَن الوجود .. وكل هذه أمام العلم الرباني بدخائل نفوسهم أكاذيب، فليس إلا الغفلة والهوى والجهل، فالقيامة ليست مخفية على العقول، ولا إدراك وجودها من مهماته الصعبة التي لا يصل إليها إلا الخواص، بل هي أكبر حقيقة في الوجود بعد حقيقة توحيد الله ﷻ، وحين ينكرها منكر إنما مرجعه في ذلك؛ الغفلة والهوى والكذب على نفسه وعلى الآخرين.

ثمّ إن تعلق الدعوة مع الآخرة والإيمان بها هو تعلق وكيد، لأن هذا الدين لا يقوم له ولا يأخذ به إلا من آمن بالآخرة كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وقد جعل القرآن الكريم كل قول لا يستند صاحبه فيه على الدار الآخرة هوى وكذبًا، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. واعلم أن أسَّ الكفر في الوجود هو عدم الإيمان بالدار الآخرة وبالساعة كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

كما أن كل فسادٍ يقعُ في الأرض إنما هذا منشؤه، وما من طغيان يوقعه طاغوت أو ظالم إلا بسبب كفره بالدار الآخرة، كما قال عن قصة موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

الْحِسَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

ولذلك فمقامات العابدين والعاملين في هذا الدين إنما تعرف بمعيار ذكرى الدار الآخرة، فكلما ازداد المرء ذكرًا لها ازداد إيمانًا وعملًا وطاعة، كما أنه يزداد زهدًا في الدنيا وإعراضًا عن مباهجها، وكذلك العامل لدين الله كلما ازداد إيمانه بالدار الآخرة؛ ازداد صبرًا وثباتًا ويقينًا، فهي وقود العبَّاد والعلماء والصالحين والمجاهدين والصابرين، وهي سائقهم الذي يدفع إراداتهم بلا كلل، ويقوي عزائمهم عند اشتداد المحن، وهي التي تمنعهم من النوم كما قال عنهم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وإمامهم في ذلك رسول الله ﷺ وهو يقول: ((مَالِيَ وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ فَتَرَكَهَا)) يقول هذا الكلام العظيم وهم يعرضون عليه مجرد فراشٍ ينام عليه بدل النوم على حصير النخل الغليظ الذي أثر في جنبه.

واعلم أن قضية الإيمان بالآخرة ليست مجرد تصور يتحدث عنه أهل الإسلام من باب التربية الخاصة، بل إن قضية الإيمان بالدار الآخرة وبلقاء الله تعالى هي أُسُّ حركة المسلم في هذه الدنيا في كل قضية يحياها ويجاهد فيها، فالمؤمنون بالله والعاملون لدين الله تعالى لا يمكن لهم النهوض في زمن الاستضعاف إلا بهذا الوقود، كما لا يمكن تثوير إراداتهم أمام جبال الباطل وقوته وجبروته والصمود أمامه ومنازعته إلا بحب الموت والدار الآخرة والرغبة في لقاء الله، وهذا أمرٌ يدركه أهل الباطل في شباب الإسلام وشيوخه، ولذلك فإن دهاقنتهم من المجرمين لا يفتؤون يشنون الغارات على هذا الإيمان، ويستهزءون بأهله، حين يصفونهم بالمجانين الراغبين بالحور العين، أو يسمونهم بصناع الموت، ذلك لأنهم يعلمون أن مجرد التفات الشباب إلى الحياة الدنيا وزهرتها ومباهجها يعني أنه قد وضع الحبل على عنقه، وصار دابة ينقاد لهم، لأن الدنيا بين أيديهم، وبالتلويح بها صار أسيرًا تابعًا لإرادتهم ومخططاتهم، وحين يخرج المرء من هذا الإسار، ويتعلق قلبه بالله والدار الآخرة يعني أنه فلت من هذا القيد، وصار حرًّا بعيدًا عنهم.

فأول الطريق للبناء هو ذكرى الدار الآخرة، والترغيب في الجنة، والترهيب من النار، إذ بهذا يُصنع المؤمن الذي يطاول الجبال ويتحدى الصعاب ويحقق الوعود الربانية. والإيمان بالدار الآخرة مراتب ودرجات، وأكبر معوق لهذا الإيمان هو الترف كما قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا))

وقوله ﷺ: ((إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ))، وعِلْمُ أهل الإسلام بهذا يمنع عنهم تلك الجهالات التي يسبغ عليها البعض رداء العلمية من أن سبب هواننا غير هذا، ذلك لأن قضايا أهل الإسلام العظمى لا تخفى على أحد، والطريق إليها مُجمع عليه بالفطر الإنسانية كلها، وإنما يعوق الأُمَّة عن حملها والمسير إليها حب الدنيا الذي أصاب قادة الأُمَّة من مشايخ وعلماء، فصار التنازع عليها حتى صارت الهلكة كما قال رسول الله ﷺ: ((وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عليكُمْ ولكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدّنْيا عليكُمْ كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قبلَكُم فَتَنافَسُوها كَما تَنافَسُوها فتُهْلِكَكُمْ كما أهلَكَتْهُم)).

فالعنوان الذي يجب رفعه لرفع الأُمَّة نحو أمر الله تعالى، ولتحقيق الوعود بالنصر والتمكين وإزالة غربة الإسلام الثانية إنما هو: "هلموا إلى الآخرة"، ليس غير، وحين توضع الأمور الأخرى داخله وتحت إطاره يكون الوضع صحيحًا ويُبنى المسلمُ القرآني المهتدي، أمّا إن تضخمت المفاهيم الأخرى على حساب هذا العنوان فهو الفساد، وبه ينشأ أصحاب الألسنة بلا إرادات، وأهل الفتاوى الجاهلة، وقادة العمل الذين يتاجرون بالإسلام من أجل منافعهم، وهذا هو أس الهلاك والفساد.

وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقوله تعالى في مطلع سورة النحل: ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ معنى واحد، فإن ظهور علامات الشيء ومقدماته إنما هو حضور له، وهو حضور الاقتراب الذي يعني أن الشيء قد آن أوانه، وهذا هو المراد، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ليدلل أن الإتيان هو ما تَقَدَّم أي حضور علاماته ومقدماته. وقوله تعالى: ﴿حِسَابُهُمْ﴾ لأن هذا أعظم ما يحصل لهم في ذلك اليوم، وهو مقصده، إذ فيه يتحقق العدل الإلهي المطلق، والدنيا من غير هذا الحساب «عَبَث»، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وفي سورة ص، بعد أن ذكر الله أمر الحساب بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ قال ﷻ جلّ في علاه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، وهي دليلٌ على أن كل فسادٍ في الأرض منشؤه الكفر بيوم القيامة أو نسيانه أو الغفلة عنه.

وفي سورة سبأ جعل الله ﷻ علة الابتلاء في الوجود، وعلة وجود الشيطان والإغواء والامتحان والابتلاء هو اختبار إيمان الناس بيوم القيامة فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ ومن

هدي هذه الآية تعلم كذلك أن اتباع تلبيس الشيطان لا يكون إلا لغياب الإيمان بالآخرة والشك بها. وهذه السورة – أي سبأ – هي سورة اليوم الآخر؛ فإن الله افتتحها بذلك، وجعل علة وجود الكون؛ اليومَ الآخر كما قال ﷻ فيها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ومطلعها حمد الله فيه نفسه في الآخرة اختصاصًا بعظمة هذا الحمد في هذا الموطن.

والكفر بيوم الحساب هو كفرٌ بالله لأنه طعنٌ في حكمته وعدله، ولذلك ترى كل من لا يؤمن بيوم القيامة لا ينسب لله الحكمة، بل هو يطعن فيها ويقول على الله الجهالات لأنه يجهل حكمة حصول الآلام في الوجود، كما يجهل ابتلاء المؤمنين به، فرؤيته آلام البشر واستكبار المجرمين وابتلاء الصادقين مع كفره بيوم الحساب والجزاء؛ يورثه الطعن بالله وإساءة الظن به جل في علاه، وهذا هو أساس الشرك والكفر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حِسَابُهُمْ﴾ على معنيين: أولهما: جزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾. وعلى هذا المعنى يكون قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي عمومهم؛ مسلمهم وكافرهم.

وثانيهما: ﴿حِسَابُهُمْ﴾ أي سؤالهم، والله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ۝ وَيَصْلَى سَعِيراً﴾، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا هَلَكَ قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك؛ أليس يقول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ قال: ذَاكَ الْعَرْضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ. ومن معاني العرض الذي سماه رسول الله ﷺ وحصوله للمؤمنين؛ قوله ﷺ: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُ رَبَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ مَنْ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ

وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ))، ومثله حديث ابن عمر حين سأله رجل: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ وَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيُقَرِّرُهُ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فهذا هو العرض بلفظ رسول الله ﷺ، وهو الحساب بلفظ القرآن، والقرآن سماه حسابًا يسيرًا، ورسول الله ﷺ في حديث عائشة إنما تكلم عن مناقشة الحساب، وهو لا يكون يسيرًا، وهذا يبيِّن عدم استغناء الناظر في القرآن عن العلم بالسُنّة.

وعلى هذا المعنى فإن الحساب حسابان: يسير ومناقشة؛ فأمّا الأول فهو العرض وهو للمؤمنين غير المعذبين، والآخر فهو مقدمة العذاب، ولا يعني لزومًا أنه للكافرين بل هو لمن يقع عليه العذاب؛ فإن بعض الموحدين من العصاة يعذبون في النار حتى تطهرهم، والله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وفي الحديث: ((لا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ)) وقوله ﷺ من حديث حفصة: ((إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لا يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ)) قالت: فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وقد جاء في الآثار أن هذا الورود للمؤمنين إنما هو المشي على الصراط.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ كقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: ((وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)).

قوله تعالى: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ فسرته الآية التالية: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فهو الإعراض عن الآيات الشرعية.

وفي سورة القمر قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ فهو الإعراض عن الآيات الكونية الدالة على قرب يوم القيامة، وهي في زماننا أظهر وأجلى لمن اعتبر وتفكّر. وهذا دليل على أن الغفلة تكون بغياب التفكر في الوجود وسُنَنه وجريانه، كما تكون بعدم الاستماع إلى كلمات الله في كتابه، والتفكّر في سُنَن الوجود يُحَصِّل العبرة والاهتمام، وأمّا التفكّر في كتاب الله فيحصل العمل اللازم إتيانه بعد هذا الاعتبار، فالأول ذهني علمي والثاني سلوكي نُسكي، وتحقيق هذين الأمرين هو منتهى العبادة الواعية الرشيدة، وهذا شأن العلماء

العابدين، إذ بدون الأول تَحْصل العبادة بلا علم سُنَني، وبدون الثاني يكون الوعي على السُنَن بلا نُسك وإخبات، والكمال بالجمع بينهما.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وهذه الآية تفسيرٌ للغفلة، وحال أهلها مع التذكير، بأنه مع وجوده وتلاوة التالين له من الأنبياء وأتباعهم إلا أن الموانع في هؤلاء تمنع الآثار والنتائج، حتى مع تكرر وتنوع الذكر، فالله ﷻ يحدث لهم هذا التذكير في أزمنة متعددة، وبوجوه مختلفة؛ إلا أن حالهم من اللعب تمنع تحصيل الانتفاع. والآية وإن كانت تخاطب من يتنزل عليهم القرآن طريًّا إلا أنها تعني كل من يستمع لعظاته وهديه من بعد ذلك على الوجه الذي يتلقاه أسلافهم من المعرضين، لأن لفظ الإحداث إنما يعني زمان النزول كما يعني زمان الاستماع والقرآن وإن توقف نزوله لكن السماع لا ينتهي زمانه.

وقوله ﷻ: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ إنما هو وصف لزمان نزوله، هذا مع أن قول أهل البدع أن الإحداث يعني الخلق غير صحيح، بل هو إخبار عن الزمان، والحديث قد يكون إخبارًا عن زمن النزول أو زمن الاستماع أو زمن الكلام، وليس حديثًا عن الخلق والإيجاد، وقوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ شامل لكل هذه الأزمنة، ولذلك فالقول الذي يدل عليه القرآن؛ أن الله إنما تكلم بالقرآن في زمان، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فكلام الله لموسى عليه السلام كان عند مجيئه لربه لا قبل ذلك، وهذا رد على القائلين بأن القرآن ليس كلام الله تعالى، والكلام المسموع لا يكون إلا بصوت، كما أن قولهم هذا؛ أي أن الكلام معنى نفسي قديم قائم بالذات أوردهم جهالات البدع السابقة حيث قالوا عن حروف القرآن المتلوة كلامًا هو عين كلام القائلين بأن القرآن ليس كلام الله، أي صفته، بل هو مخلوق كسائر المخلوقات، فجعلوا هذه الحروف حينًا كلامًا لجبريل، وحينًا كلامًا لرسول الله ﷺ، وآخرون جعلوها مخلوقة، فاختلفوا في اللفظ مع اتفاقهم في المعنى، وعلى كل فلم يبقَ من هؤلاء إلا قلة من الناس يتداولون هذا الكلام بينهم، ولا يستطيعون تفسيره في مواعظهم ودروسهم، وإنما ذكرته هنا بيانًا لحق قوله تعالى: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ حتى يعلم القارئُ المرادَ منه. وإتيان القرآن بلفظ: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ هنا ليدلل على التكرار، وأن مواعظ القرآن في ذكر يوم القيامة تنزل مرة بعد مرة، وزمنًا بعد زمن، ولكن لهم حال واحد مع كل تنزل له.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ هو وصف لإحدى حالات الإعراض التي تقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ مع أن القرآن وصف حالات متعددة لهذا الإعراض تجدها في سورة فصلت، ففيها: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، و: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا

الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، و: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ومنها: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وخاتمة السورة – أي فُصّلت – بيَّنت السبب الجامع لكل هذا الإعراض وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ﴾.

وهنا في سورة الأنبياء وصفَ الله حالهم عند استماع الذكر بقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، فدل هذا أن أمر القرآن جدّي، وأن حقائقه توجب هذا المعنى، ولا يمكن تحقق الانتفاع به إلا من أخذه على وجه العناية والاهتمام، فلا بدّ من حضور قلب ووعي، وإلا فلا انتفاع بآياته وتذكيره.

وقد تَقَدّم أن الغفلة هي الدنيا، وهكذا هي في وصف القرآن؛ أي لعب كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، فإذا اجتمع هذا الأمر وهو انشغال الإنسان بالدنيا وهي اللعب مع أخذه القرآن على وجه اللعب كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فقد حصل الشر كله. فالانشغال بالدنيا مانع من الانتفاع بالقرآن، كما أن الاستماع إليه على وجه اللعب كفر به، والأولى قد يقع فيها المسلم الموحد، لكن الثانية لا تقع من أحد إلا كان كافرًا بالله تعالى.

فالاستماع للقرآن على وجه التفكر والتدبر واجب أو مستحب بحسب الحال، فإن كان في الصلاة فهو واجب لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وأهل التفسير أن الواجب في هذه الآية ما كان الاستماع في الصلاة، وأما في غيرها فهو مستحب لا واجب، ونقل ابن المنذر في [الإشراف] إجماع العلماء على أنه لا يجب الاستماع للقراءة في غير الصلاة والخطبة، أما أن يستمع المرء القرآن أو أن يقرأه لاعبًا به فهو كفر بالله تعالى، وهذا من قوله تعالى المتقدم في سورة الأعراف في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾ ومن قوله في سورة فُصّلت؛ من قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، أما اللعب فهو وصف للأبدان والجوارح، وهنا وصف للقلوب، وهذا دليل على أن الظاهر دليل الباطن، بل لا يعرف الباطن إلا بالظاهر، وهذه الدلالة يقينية إلا في حال الإكراه والخطأ، ولذلك فلا يعتذر عن ظاهر أن باطنه على خلافه إلا في هذين الحالين، وإلا فالمدعي كاذب، فلا يقال لمن هو في شغل ظاهر أن باطنه منشغل بغيره، ولا بعمل عمله صاحبه أنه أراد غيره، ولا بقول قاله أن قلبه لا يريده، إلا في الإكراه والخطأ، والإكراه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿مَن

كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأمّا الخطأ ففي ذلك أحاديث منها حديث الفرح بلقاء دابته بعد إياس وقوله: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، يقول ﷺ: أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

ولهوُ القلوب انشغالها بما هو مفسد للمسموع، فإن أصل اللهو هو الانشغال، ولما كان عامة اللهو انشغال عن النافع بغيره صار اللفظ دالًّا عليه، وإلا فالأصل هو العموم، وفي هاتين الآيتين تفصيل لآداب اللعب واللهو، فإن اللعب هو الانشغال بالدنيا، واللهو في القلوب وانصرافها عن النافع، وهذا يفسّر اجتماعهما في آيات متعددة كالتي تقدمت في سورة العنكبوت وهي قوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾، وقوله في سورة محمد: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، وقوله في الأعراف: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾.

وسيأتي في هذه السورة بعد اتفاق اللهو واللعب في المعنى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فاللعب الانشغال بغير النافع، واللهو الانشغال عن النافع بغيره، هذا من جهة المقتضى، وأما من جهة الأدوات فقد دلت على ذلك الآية كما تَقَدّم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فهذا سبب الإعراض، والانشغال باللهو واللعب، ذلك بأنهم طعنوا بالحق من جهة المبَلّغ – وهو الرسول – فقط لكونه رجلًا بشرًا مثلهم.

وهذه محنة هؤلاء مع هذا الحق، لا ينظرون إليه من جهة نفسه، ولكن بأمور خارجة عنه لا تعلق بنفوسهم وأهوائهم، والحق المجرد ليس له وجود إلا في أذهان الحالمين، فإن كل حق في الوجود له متعلقات، وهذا الفارق بين دين الفلاسفة ودين الرسل، فإن دين الفلاسفة قائمٌ على المعاني بلا حقائق، فهم يريدون عبادةً بلا صلاة ولا صوم ولا زكاة، ويريدون حقًّا بلا تكاليف، بل هي المعاني النفسية الداخلية، وهذا ما يصرح به أفراخهم اليوم من الزنادقة، فإن الصراع اليوم كما في الأمس ليس على الحقائق فقط بل على أدوات الحقيقة، وهي نفس شعارهم اليوم: "نحن لا نحارب الإسلام ولكن نحارب المتطرفين"، أو كقولهم: "لا مشكلة لنا مع القرآن ولكن مشكلتنا مع فهم المسلمين له" وكل ذلك إفراغٌ للحق عن معناه حتى يصبح مجرد معنى نفسي لا حقيقة له.

فتجريد الرسالة عن الرسول كفرٌ بالرسالة، وتجريد المعاني عن حقائقها الوجودية استهزاءٌ بهذه الحقائق، فلا دين من غير اتبّاع، ولا شريعة من غير مثال، كما أنه لا توجد صلاة من غير مسجد وركوع وتوجه إلى القبلة، كما لا معنى للدين من غير أهله وجماعته المنتسبة إليه، وهكذا في كل حكم من أحكام الشرع، فالجهاد مثلًا ليس عملًا نفسيًّا بلا جماعة وسلاح وأمير وقوة، والزكاة ليست بلا مال وبذل وعطاء، فالدين ليس فكرًا باطنيًّا فلسفيًّا كما هو مذهب الزنادقة قديمًا من القرامطة وغيرهم، وكما هو دعوة الزنادقة اليوم بقولهم: "الدين علاقة بين العبد وربه."

وهذه الحجة القديمة التي يقولها القرآن عن المشركين والمعرضين: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هي الحجة التي تتفرع منها حجج أهل الباطل في كل زمان، وهي اليوم أجل وأوضح في حربهم على المسلمين مع رفع شعار احترام الإسلام، وكأن الدين ليس هؤلاء الذين يحاربونهم، ويزيد بعض الجهلة من المسلمين الفتنة أوارًا حين يزعمون أن القائم بالحق من أهل الإسلام لا يمثل الإسلام، وهذا ما يسمونه بسرقة الإسلام، مع أن هؤلاء الجهلة يرون أن كل عامل بعمل من أعمال الإسلام هو محارَب من الأعداء على وجه من الوجوه، فالمرأة الساترة لعورتها محارَبة في لباسها، والداعي إلى السنة محارب في دعوته، والنابذ لدين الانحلال وأهله منبوذون من قبلهم، وكل هؤلاء وأمثالهم يسمون بالمتشددين، بل إن مجرد طلب الحقوق؛ فاعله متشدد متعصب، ونهاية مطلبهم هو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

والقرآن إذ يقرر بشرية الرسول في صورتها الفطرية؛ هي عند هؤلاء غير مقبولة كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فكيف إذا تنزّل مثال الدين بعد الرسل بأتباعه ممن يقع منهم الإثم والخطأ، فحينئذٍ تشتد المحاربة والإنكار، ولذلك كان من فقه الصديق أبي بكر ﷺ أن أدرك هذا الكفر من المرتدين حين منعوا الزكاة بحجةِ طهريةِ الآخذ لها قبله؛ أي رسول الله ﷺ، فإنهم احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ وجعلوا هذا الوصف وهو: ﴿إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ وليس لأحد من بعده، وإذ الخليفة ليس كذلك فلا تؤدى إليه، وهو عين منطق الجهل الذي ينعق به هؤلاء اليوم بحجة أن حملة الدين ليسوا ملائكة ولا أنبياء ولا منزهين، فلا يجب الدخول في طاعتهم، ولا اللحوق بهم، وإنما يعرف فساد حجتهم حين يطلب منهم هم حمل الدين والالتزام به على وجه أحسن مما يرونه في أهله اليوم، فلا تجد منهم إلا خروجًا عن الدين وأحكامه بالكلية.

فحملة الدين بشر، رفضهم أهل الكفر الأوائل بسبب هذه البشرية، ولما في نفوسهم من الكبر عن اتباعهم لبشر مثلهم، أو لكون السابقين في الهداية هم الضعفاء والمساكين، أو لكون الرسول ليس من علية القوم ولا من أهل النفوذ والقوة، والسائرون على درب المنكرين من المعاصرين ينكرون الدخول في الدين بحجة أن الدين مقدس ولكن تفسيره بشري كما يقولون، ويعني هذا أن يبقى الدين في صورته المثالية السحرية التي تعادل الأسطورة، لأن هذه القدسية حين تمنع التفسير العملي والعلمي من قبل سيرة الرسول ﷺ وأتباعه يعني أن تبقى سرًّا لا يفيد دلالة علمية ولا عملية تلزم الناس بها، كما أنهم ينكرون الدخول فيه بحجة أن الأتباع أصحاب مصالح دنيوية في حمله، إذ يتخذونه وسيلة للوصول إلى أهدافهم الدنيوية، أو بحجة أن هؤلاء الحملة ليسوا على صورة المقدس المثالي بل هم كغيرهم من البشر في أخطائهم وسلوكهم واختياراتهم، وكل هذا وغيره من الجهالات إنما يقصد منها ردّ الدين وإبطال فاعليته في الوجود، والقرآن يقرر أن هذا التدبير وكل هذا وغيره من الجهالات إنما يقصد منها ردّ الدين وإبطال فاعليته في الوجود، والقرآن يقرر أن هذا التدبير الرباني في جعل حملة الحق الذي أراده للخلق إنما هو من أجل الابتلاء والتمحيص كما قال ﷻ: ﴿وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾، وهذه قضيةٌ قرآنيةٌ مهمة فإن الله يمتحن عباده ليكون المهتدي مستحق للهداية، والمعرض ليس من أهلها، فالقرآن لا تتنزل أحكامه ليدخل في الهداية من ليس أهلًا لها، بل هو يمتحنهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، ذلك بأن الحق نعمة للخلق، وفي اتباعهم له فائدة لهم، والله غني عنهم، كما أن الحق غني بنفسه عن الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وكما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ دل على أن سبب اللهو عن الاستماع والاتباع هو الاستكبار المانع لهم من الاستماع لبشر مثلهم كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى﴾ هو حال متكرر من هؤلاء وأشباههم كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، وكما قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا

﴿نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، وهكذا يكشف القرآن خبء ما يستر أعداؤه لأتباعه، ومع ذلك فإن أهل الإسلام اليوم تغرهم الكلمات المعلنة، والعبارات المنمقة، مع أنهم يرون إجرام أعدائهم، وكيدهم ومكرهم، بل وقتلهم للمسلمين، وإفسادهم لدين الله تعالى، ومع ذلك يقفون أمام الكلمات التي تقال للتسويق والتزوير.

وأهل الباطل كلهم في معركتهم مع أهل الإيمان في مجالها العلمي والعملي لا يمكن منهم إلا الخداع والخيانة والمخاتلة، إذ: ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هو دأبهم وديدنهم، وهذا الأمر في زماننا أشد وأعظم، وهم بسبب خبرتهم ودراساتهم وتراكم معارفهم في هذا الباب وصلوا إلى أعتى الدرجات فيها، وكذلك لامتلاكهم الأدوات السُنَنية وخاصة وسائل الإعلام والتأثير، ثم ما وقع من سقوط الكثير من هذه الأمة في دينهم، واتباعهم الباطل، أو دخولهم معهم من أجل الشهوات والملذات، ولذلك كثر الشر في باب الخداع حتى إنه ليحيط بالمسلمين في كل جوانب الحياة، حتى الدينية منها، ومع كل التجارب السابقة التي تبين للمسلمين فيها خداع أعدائهم وكذبهم وكيدهم إلا أن العظة في ذلك لا تكاد تذكر.

وقوله تعالى على لسانهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ دليل أن هذه السورة وما فيها من العظة إنما نزلت بعد أن دخل أقوام في الدين، وحصل لهم الهدى، ولذلك يقول الظالمون: ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾، فقد حصل إذًا استجابة مهتدين، ووقع منهم الإيمان والاتباع، فهي دعوة لرد المهتدين بالتلبيس عليهم. وتسميتهم دعوة الرسل بالسحر لما يرون من تأثيره على الناس، وهو إعمال لثقافتهم، واليوم يتهم الدعاة بهذا المعنى، حيث يقال إن دعوتهم الناس للجنة، وترغيبهم بالآخرة هو تخدير لهم، وتغييب لعقولهم، وهو نفس معنى السحر الذي قاله سلفهم في هذه الدعوة، ولذلك فالمستجيبون مسحورون، أو غائبة عقولهم بالوهم في طلبهم الحور العين.

ولما كان السحر عند هؤلاء مجرد أوهام تخلق في نفس المسحور فتأسره لساحره، فكذلك هي الجنة والحور العين عند سلفهم اليوم، فطالبو الجنة طالبو أوهام، وهم في قيد الخيال والخداع والوهم، وأما قولهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ لأن الأسلاف والأتباع لا يرون الوعود، بل يرون انقياد المؤمنين للدين، وامتثالهم لأحكامه وهديه مع ما يلاقون من بلاء وألم من أقوامهم هو أشبه عندهم بأن يقال: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، فهل هذا الذي يعيش البلاء والألم ثم يزعم أنه في نعمة وحبور فما هو إلا مسحور مخدوع، وهل هذا الذي يهجر الملذات الحاضرة طمعًا في نعيم غائب إلا مغيب الإرادة العاقلة؟

هكذا هو مقياسهم في هذا الأمر، ولذلك فالحكم أن هذا سحر ظاهر وعلى أتباعهم من المخدرين أن يدركوه.
ثمّ إن هذا الداعي لا يملك إلا الكلمة التي تحمل الوعود المطوية الغائبة، ومع ذلك يستجيب له أهل الحجر والإرادات والفضل، فما قوته في ذلك سوى السحر عند السابقين والخداع والوهم عند التالين، أو يقولون هو استغلال غياب القدرة على تحصيل الدنيا فذهب يحصّل الآخرة.

بهذه الأحكام والأقوال التي يطلقونها على المهتدين استحقوا وصف القرآن لهم: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ والله يحكم ولا معقب لحكمه. وهذه الآية حين تجمع وصف لهو قلوبهم، وإسرارهم النجوى؛ لتدل على أن لهم إرادات وعزائم لكنها في الشر، كما أن لهم مدارك نظر لكن لإبطال الحق والتنفير عنه، وأما في سماع الحق والاهتداء به فإرادتهم خائرة عنه، وقلوبهم لاهية عن سماعه والاعتبار به، فلا تعجب إذًا أن تراهم أئمة مكر بعقول حادة قوية، ومع ذلك هم أهل لهو ولعب، وهذا وصفهم الذي نراه فيهم، فحين تكون المعركة على الإسلام وأهله هم أهل جد وعمل وتصميم، لا يألون جهدًا في قذف المسلمين بالصغيرة والكبيرة، وأما تفكرهم بالهدى فهم أبعد الناس عن ذلك وفي شغل بعيد عنه، وهذا كذلك هو من موجبات وصف القرآن لهم: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ ومن تدبّر طريقة القرآن في الرد على منكري حقائقه رأى علمًا مع استعلاء، وقذفًا للحقائق من غير تنزل؛ فالاستعلاء لأنه كلام الله، والله ﷻ إنما حقه على العبيد أن يسمعوه ويطيعوه، ومن غير تنزّل لأن في التنزّل معهم إقرارٌ بشكوكهم التي لا قوام لها إلا الهوى، ولذلك فانظر إلى رد القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فرد عليهم القرآن بقوله: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ فهذا جواب تُقرَّر فيه الحقيقة مع حكم يُستعلى فيه على شكوكهم، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فما قبض الروح إلا استيفاء لا إفناء، ثم بعد استيفائها ترد إلى الله تعالى.

وسيأتي قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فكان الجواب: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وكذلك رده سبحانه على هذا السؤال في سورة يس في قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ورده سبحانه على السؤال في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ذلك لأن الحكيم العاقل لا يَسأل عن الموعد حين يكون الخبر عن أمر عظيم، إنما يكون

سؤاله عن الاستعداد، ولهذا يأتي جواب الحكيم عليه تنبيهًا لهعلى هذا الأمر، وهذا ما يسميه أهل العلم بالجواب الحكيم كما أطلق عليه السكاكي، وهذا كثير في القرآن، ومن تأمّل مطلع سورة هود إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ رأى من أعاجيب الأجوبة على إنكارهم البعث الشيء الكثير وذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وكذلك مطلع سورة يونس إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وذلك في رده عليهم في قولهم: ﴿إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وها هنا يأتي رد القرآن عليهم في تكذيبهم للحق واتهامهم إياه بالسحر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وهو على معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ فعِلْم الله تعالى بما يقال في السموات والأرض، وإسراعه العقوبةَ لمن تقول عليه، وظهور دلائل الخذلان فيه لدليل أن هذا الرسول ليس كذلك، بل إن أعظم دليل على صدق الرسول في هذا البلاغ هو التأييد وما ترونه من مقدماته كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وهذا من أعظم العلم، وهو العلم المؤيد المنصور، فسبحانه يعلم ما يقال من هذا الرسول، وهو إذ يؤيده وينصره ويجعله غالبًا على غيره ليدل على صدقه وأمانته.

وإن من معاني هذا الجواب أمورًا أخرى منها معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو على معنى الاستشهاد برب العباد على صدقه، وكفاية هذه الشهادة، وهذا ما مالَ إليه الطبري ﷺ؛ ومنها أن مما يشهد على صدق الرسول والكتاب الذي أتى به هو ما أخبر الله فيه من حوادث البشر السابقين واللاحقين، وهذا الذي قاله ابن كثير، والآية جامعة لهذه المعاني إن شاء الله تعالى، واختيار الأول مع الثاني هو الأقرب؛ لأن هذا ألصق بطريقة القرآن في رده على تكذيب القرآن كقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وهذه الآية من سورة الأحقاف والآية من سورة الأنبياء دليل على معنى العلم الموجب للفعل في القرآن الكريم، وقد تقدم أن هذا أعظم العلم، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وقد جمع العلم مع القدرة في مواطن منها: ﴿وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ وهو المراد في قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾، فمجرد العلم دون الجزاء ضعف، وتمامه حصول الفعل وهو الجزاء هنا.

وقوله سبحانه: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فاصلة تناسب: ﴿الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾، ذلك لأن العلم بالقول إنما بابه سماعه، ثم إن منتهى الإدراك التام له هو العلم به، فقد يسمع السامع قولًا لا يعلمه، وقد يحصل العلم بلا سمع للقول، وتمامه هو حصول السمع للقول والعلم به، وهو علم شامل له.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ۝ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[٢]

وهكذا جعلوا يضربون الأقوال والاتهامات في كل الصعد لعلها تحقق المراد بالعزل والإعراض، فقد قالوا إنه ساحر ثم جعلوا هذا القرآن وآياته مجرد أضغاث أحلام، والضغث هو سقط الشيء، وحيث تنسب إلى الأحلام فهي من تهاويلها وسقطها، ولذلك فلا معنى لها سوى التخليط. وقالوا: "هو افتراء القائل به، فهو من وضعه واختلاقه." وقالوا: "هو شعر شاعر."

وهذا التعدد يدل على الاضطراب والجهل، لأنهم يعلمون أن كل واحدة من هذه التهم لا تصمد أمام حقائق القرآن وعلومه، فأضغاث الأحلام لا حقيقة لها ولا علم فيها، والقرآن يقرع أسماعهم بالحق والعلم، وحقائق القرآن يرونها بأنفسهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.
أمّا أنه افتراء قائله فالقرآن يرد عليهم هذا في مواطن منها قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الآية جامعة في الرد على هذه التهمة لمن تفكر فيها. أمّا أنه شعر شاعر فالمبلغ له لم يعرف عنه الشعر في حياته قط كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ

[٢] الأنبياء: ٥-٦

عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾، والعرب تعلم الشعر وصناعته، وتعلم أن أكثره خيال وتمويه كما قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وأمّا هذا القرآن فهو الحقائق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وهذه الأقوال قالها خصوم النبي ﷺ من قريش وأعدائه، وهي مظلة لكل ما يقال عنه وعن دينه وعن حملة الدعوة بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾، وهذا الطلب قد شرح أمره في مواطن أخرى في تفسير سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ وهو قوله هنا ﷻ رادًّا على طلبهم: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، وحيث كان هذا في الأسلاف من التكذيب بالآيات القاهرة التي يتحقق بها العذاب بعد التكذيب فإن الله ﷻ لم يستجب لطلبهم المتعنت هذا، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

ومن تأمّل ما قيل في تفسير صدر الآية بأن هذه الأُمَّة هي آخر الأُمم، لأن رسولها هو خاتم الرسل، وأن بقاءها إلى قيام الساعة؛ عَلِمَ سبب امتناع الله ﷻ من إرسال الآيات القاهرة التي يتحقق بها العذاب إن كفر بها راؤوها، وهذه الأُمَّة أُمّةٌ مرحومة، فإنه مع تعنتهم في البدايات، ومع طلبهم الجاهل هذا، إلا أن الله ﷻ رحمهم فلم يستجب لهم بل أجرى لهم الأقدار حتى تحقق هلاك الملأ المجرمين منهم كأبي لهب وأبي جهل ثم صار الأبناء إلى الإسلام، وصاروا حملته وأهله والمنافحين عنه. ومن تَفَكَّرَ في هذا عَلِمَ أن هذه أُمَّةٌ مرحومة، حتى في عدم الاستجابة لهم بالآيات القاهرة الفاصلة، فالمستعجل سيطلب الآيات حتى يقع الفصل، كما يطلبه الكثير من الناس في زمن البلاء، وذلك لعدم علمهم بالغيب المخبّأ للأُمَّة بالصبر واحتمال البلاء، ولعل هذا المعنى هو الذي رد فيه رسول الله ﷺ على خباب بن الأرت وهو يطلب منه الدعاء بالنصر وحصول الفصل بينهم وبين قريش، فجريان السُنَن لهذه الأُمَّة صعودًا من البلاء وبطريقة سُنَنية متدرجة هو خير لهذه الأُمَّة لو علمت ذلك، وبذلك تعلم لماذا لا يستجيب الله لهذه الأدعية الغريبة التي يسألها العابدون في صلواتهم من هلاك الأعداء كهلاك عاد وثمود، ويلحون بهذه الأدعية التي لا تقع ولا يجيبها الله، بل الذي يجري بين المسلمين وبين أعدائهم هو جريان

التدافع على وجهٍ سُنَني حتى يتحقق الوعد الإلهي بالنصر والظفر ثم تبدأ دورة أخرى كما تَقَدَّم شرحه، وهكذا إلى قيام الساعة، أمّا هذه الأدعية فهي صادرةٌ من تصوراتٍ لا تعلم سُنّة الله مع هذه الأُمَّة ولا مع خصومها، كما أن الأنبياء لم يدعوا على أعدائهم وهم في حال كحال الأُمَّة اليوم التي تدعو بهذه الأدعية، إذ حالهم يجمعه قول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، والأُمَّة فيها القوة اليوم بالانتصار على أعدائها لكنه الجبن وحب الدنيا وكراهية الموت، وقد رأى الناس نصر الله تعالى لهذه الأُمَّة في مواطن المواجهة ضد أعتى دول الكفر حين صدقوا الله في اللقاء والجهاد، أمّا هذه الأدعية الصادرة على حال الخور والجبن وحب الدنيا وكراهية النفير فهي أدعية ظالمة ومتعدية، والله ﷻ لا يقبل هذا النوع من الدعاء.

ولذلك فهلاك أعداء الأُمَّة في حلقات التاريخ لا يكون بالاستئصال، لأن الاستئصال لا يكون إلا بالآيات القاهرة الفاصلة، والقرآن بين امتناعها رحمة ورفعة لهذه الأُمَّة، لتُحقّق هي الآيات في حلقات التدافع التاريخي بينها وبين أعدائها، وهذا هو أعظم الآيات، فإن نصر الله لرسوله من ضعف، وكذا نصر أُمّته على خصومها من ضعف هو أعظم آيات الوجود الدالة على صدق هذا الدين ونصر الله تعالى له ولأهله.

ولذلك لا يسأل المؤمن: "لماذا لا يستجيب الله دعاءنا على أعدائنا؟" وكذلك يقول: "لماذا تتحقق إرادة أعدائنا فينا؟" لأنه يعلم أن هذا من عند أنفسنا كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأن أمر تحقق العذاب على الأعداء إنما يكون لطاعة الله واليقين بالوعود والعمل في طرق السُنَن الكونية التي تحقق النصر والغلبة، ومن تأمّل أدعية الرسول على أعدائه إنما كان في حال المواجهة والوقوف في الصفوف كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وهذا هو دعاء الصدق المستجاب، وليس دعاء المغرورين الذين قال الله عنهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ وليس أصحاب الدعاوى ممن قال الله عنهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

وردَّ الله على الكافرين هذا السؤال هو تعليم للمؤمنين أن جريان ما بينهم وبين أعدائهم إنما يجري مجرى السُنَن في التدافع والغلبة والظفر، والجهالات الكبرى وإن أتى بها الكافرون إلا أن للمسلمين منها نصيب كما قال تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، فما من شر وقعت فيه الأُمَم السابقة إلا ولعصاة هذه الأُمَّة وجهلتها منه نصيب.

وقوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ دليل على أن الإيمان عاصم من الإهلاك، وليس كل إيمان ولكنه إيمان مخصوص، وهو الحاصل قبل حضور العذاب كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ إلا ما قاله الله عن قوم يونس، وتفصيل اختصاصهم سيأتي في موطن الآية السابقة.

وها هنا لا بأس من الإشارة إلى ما تقوله التوراة من هلاك الأرض كلها زمن نوح عليه السلام بالطوفان، فإن هذا قول غير صحيح البتة وهو من تحريف التوراة، فإن الله لا يهلك القرى في الأرض كلها لعذاب وقع على قرية بسبب جريان سُنَن العذاب عليها، وعندما يتحدث القرآن عن قوم نوح وعذابهم إنما يعني جريان هذه السُنّة عليهم فقط لا حديثًا عن كل القرى في الأرض في ذلك الزمان، وهي داخلة في قوله تعالى هنا: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ فالهلاك كان لقريتهم دون بقية القرى إلا أن جرى فيها ما جرى على القرى المهلكة من السُنَن، وهذا مما لا يخبر القرآن به، ولذلك قال تعالى عن قوم نوح: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فخصّ ولم يُعم، أما مسألة السفينة التي حصل بها النجاة فهي الحجة الوحيدة لهم، إذ يقال لو كان هناك أرض لم يجرِ عليها الطوفان لطلب من نوح عليه السلام والمؤمنين به أن يخرجوا إليها كما أمر الله لوط وأهله بالخروج من القرية المعذبة إلى مكان آخر، فدلَّ هذا عندهم أن الأرض كلها قد شملت بالطوفان فلا مكان يلجأ إليه، وهذا خطأ في الاستنتاج، إذ الظن – والله أعلم – أن قوم نوح عليه السلام كانوا في جزيرة لا يمكن خروج المؤمنين ولا الدواب منها فكانت السفينة هي وسيلة النجاة الوحيدة لهم، ومن المعلوم أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل بعد آدم عليه السلام، وطبيعة الأرض يوم ذاك من انتشار الماء غير الأرض اليوم، ومثل هذه القضية مسألة ذي القرنين حين وصل إلى مغرب الأرض كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ومن قرأ تاريخ الأرض علم أن البلاد الواطئة والتي منها اليوم هولندا كانت في الشتاء تتحول إلى بحيرة ماء، فإذا ذهب الشتاء جفّت، وصارت في بعض أطوارها «حَمِئة» كما قال تعالى، وهذه الأرض يوم ذاك هي نهاية العالم القديم، إذ لا يعرف الناس يومها أرضًا وراء البحر، ومما يدلل على أن سكن نوح عليه السلام وقومه في جزيرة أن ابنه طلب النجاة في مكان مرتفع وليس إلى أرض أخرى كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، ولو وجد مكانًا آخر بعيدًا عن الماء لفعل، لكن

احتمال أنهم في جزيرة هو الذي منعه من الهروب في الأرض بعيدًا عن الماء، وهذا بخلاف غيره من المعذبين في الأقوام الأخرى فإن الله قال عنهم كما سيأتي في هذه السورة: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ وابن نوح لم يركض منها إنما طلب مكانًا مرتفعًا فدل على أنه محصور، وهذا ما يقوي القول أنّ قوم نوح عليه السلام كانوا في جزيرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣]

هذه هي الحقيقة القرآنية في وصف الرسل عليهم السلام، فهم رجال من بعض قومهم، يختارهم الله لحمل الرسالة عن طريق الوحي، وبهذا الوصف الجامع للأمرين: ﴿رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ترتفع عنهم كل أوصاف أقوامهم التي افتروا عليهم، فليسوا سحرة ولا كذابين ولا شعراء، وحيث إن هذه سبحانه وتعالى مع الرسل السابقين فهي سُنّته في إرسال مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم فهو بشرٌ يوحى إليه كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾.

وحين يكون الرسل هذا وصفهم فإن ذلك يعني أن تجري عليهم سُنَن الرجال والبشرية بلا استثناء كما قال تعالى بعدها: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

وهذه البشرية لا تقتصر في الجانب المعيشي الفِطري من الأكل والشرب والنكاح، لكنها شاملة لكل الجوانب الأخرى، حتى في سُنَن التدافع والغلبة والنصر، إذ ما يقع للرسل من النصر لا يكون بالخروج عن سُنَن الوجود القَدَرية، بل هو من خلالها وبها، وهذا أدعى عند المنصف أن يعلم صدق الرسل وتأييد الله لهم، فإن جريان السُنَن على الفريقين بلا مثنوية، ثم بهذه السُنَن يتحقق النصر للضعيف على القوي، وللكلمة على الطغيان؛ يعني أن المنتصر مؤيد من رب السُنَن والأقدار سبحانه وتعالى، وقد علم هذا هرقل لذكائه وبصره بالتاريخ، فإنه لما سمع ما جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش، وكيف تجري الأحداث بينهما، وأن أمرها هو أمر سُنَني في الغلبة والنصر علم أن هذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا هو وصف القرآن لسُنَن الأنبياء وحياتهم وصراعهم مع قومهم كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ

[٣] الأنبياء: ٧

عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فهذه هي قاعدة النبوة مع أقوامهم، وحين يتأ لم النبي من إعراض قومه، أو من عذابهم له، فيقع في قلبه رغبة حصول هدايتهم بآية لا جدال فيها كما يظن، أو يقع عذاب يستأصلهم يأتي الجواب بأن سيرتهم؛ أي الأنبياء على غير هذا بل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾، وأما موضوع الهداية ففي الآية التالية بعد ذلك من هذه الآيات في سورة الأنعام: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

فحديث القرآن عن بشرية الرسل ليس فقط ردًّا على أعدائهم بكونهم كذلك، لكنه بيان خضوع مسيرة الرسول لسُنَن البشرية حتى في تقويم أماني الرسل بحصول الآيات التي تحقق لهم المراد كما يطلب منهم أقوامهم.

أمّا سؤال المؤمنين: "لماذا نُعَذَّب؟" فالجواب: هذه هي السُنّة، إذ لا بُدَّ من وجود عدوٍ مُكَذِّب بالحق ويؤذي الداعي ليتحقق التدافع الذي تحصل به عاقبة النصر الإلهي فالتكذيب والإيذاء قدر إلهي يحقق مراده بنصر المؤمنين وإهلاك الأعداء، إذ بدونهما لا تكون الحجة ولا ما يترتب عليها بعد ذلك.

فطالبو النصر من المؤمنين إما أن يقفوا أمام قوله تعالى ليحققوه: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ فيكونوا من الجاهلين، وإمّا أن يسيروا في سُنَن البشرية من الابتلاء والجهد والتبليغ والثبات حتى يأتي نصر الله تعالى.

هذه هي سُنّة الرسل، فهي بشرية الأداء، ربانية النصر على وفق السُنَن التي تحقق الحجة أن هذا الدين وأهله هم أولياء الله وأحباؤه.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي أهل الكتاب، وهم أهل الذكر في هذا الباب، وقد تكرر الطلب بسؤال أهل الكتاب في القرآن كما في قوله تعالى في يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وقوله تعالى في النحل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذه المواطن التي

يسأل عنها أهل الكتاب هي ما يتعلق بحال الرسول، فإن أي اعتراض من أهل الكتاب وغيرهم على مُحَمَّد ﷺ يرد عليهم بما في كتبهم من وصف أنبيائهم، وذلك من طريق إلزام الناس بما عندهم، وها هنا مسألة اختلف فيها عالمان من أهل الإسلام هما ابن حزم الأندلسي وابن تيمية رحمهما الله تعالى حول ما في أيدي أهل الكتاب من الكتب، هل حُرّفت كلها أم أن التحريف جزئي مع بقاء الأصل؟ وابن حزم هو قائل الأول، وابن تيمية قائل الثاني، ومع أن كتب الرجلين في هذا الباب تشهد أنهما قد اطلعا على التوراة إلا أنهما قد اختلفا كما ترى، والذي تشهد له الدلائل هو اختيار ابن تيمية في هذا الباب، ومن ذلك هذه الآيات، فإنه لو كان كل ما عند أهل الكتاب مُحرّف وغير صحيح لما كان الاستشهاد به ممكنًا، ولكن حيث إن أصل ما عندهم صحيح ولكنه زيد عليه ونقص، كما غيّر فيه وبدل، فإن الأصل هو ما يستشهد به، وهذا بيّن حين يقرأ المرء التوراة، وهي الأسفار الخمسة الأولى لا ما بعدها، فإنك تجد لها أصولًا من الحق، كما يستدل لهذا القول بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقد وقع منه ﷺ أن طلب منهم التوراة في زمانه ليقرأوها في حكم الزناة كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسود وجوههما، ونحملهما، ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين، فجاءوا بها فقرأوها، حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأه يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام – وهو مع رسول الله ﷺ –: مره فليرفع يده، فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: "كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه."

وفي الباب قصة أخرى من حديث البراء بن عازب وهي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ...﴾ الآية من سورة المائدة، فلتراجع.

وسؤال الله تعالى يهود بإحضار التوراة، إنما يقصد به التوراة التي بين أيديهم، وهي التي حصل فيها التحريف، فإن التوراة الأصلية فقدت في السبي إلى بابل كما هو مجمع عندهم وعند المؤرخين. كما يشهد لهذا القول قوله تعالى في الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾ وهو استشهاد بما بين أيديهم من الكتابين، وفيهما هذه البشارة كما يعلم الناظر فيها.

ولذلك من الحجج البينة على أهل الكتابين في صدق الرسول ﷺ؛ ما في أيديهم من الكتب، فإنهم لا يطعنون في باب من أبواب الشريعة، ولا في صفة من صفات الرسول إلا وتجدها موجودة في دينهم، وفي رسلهم، ولذلك يقول الله: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

واليوم تجد مطاعنهم في الرسول ﷺ وشريعته لا يتسع لها الحصر، وهم يعلمون أن ما يطعنون به على الرسول ورسالته هو من دينهم، وهذا شيء بين واضح لمن قرأ كتبهم، ومن ظهور هذا الأمر ووضوحه أخذه الزنادقة من الجانب الآخر حيث طعنوا في الإسلام فجعلوه وضعًا إنسانيًّا مشتقًّا من أديان أخرى، لا وضعًا إلهيًّا كالشرائع الإلهية للأمم السابقة، ومثال ذلك ما تجده من مطاعن المعاصرين على غطاء وجه المرأة المسلمة، وكذلك على حجابها وخمارها، فإنهم يزعمون أن هذا من إرث اليهودية لا من سُنّة الرسول ﷺ ، ويستدلون على هذا بوجود هذه التشريعات في يهود، وهكذا يصبح الحق مرفوضًا من جهتين على طرفي نقيض، أولهما ينفي الوجود ليبرر إنكاره، والآخر يثبت الوجود ليدلل على الوضع البشري، وكلاهما كافر بالحق معرض عنه، والمنصف هو المسلم المهتدي ولا شك.

وهذه الآية من قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ اتخذها أحبار النصارى من الكافرين بالرسول حجة على ما معهم من الحق، حيث جعلوا دينهم الأصل الذي يعاد إليه عند الخلافكما يقول دهاقنتهم في سبيل تمسكهم بالنصرانية الباطلة.

والردُّ عليهم له وجوهٌ منها:

أن هذا السؤال لهم يجب اطراده لو أنصفوا، فإنهم كما يسألون عن صفات الرسل السابقة ليعرفوا صدق مُحَمَّد ﷺ، فإنهم يسألون عن أمور أخرى عندهم توجب عليهم اتباعه، وذلك بما عندهم من شهادة الإخبار عنه ﷺ والتبشير به، وقد ألزموا في حوارات متعددة بهذا الأمر فأبوا إلا الإنكار والإعراض.

ومنها أن هذا السؤال يوجب تصديقهم بهذا الرسول، وهذا التصديق يوجب اتباعه وترك ما هم فيه كما قال تعالى للنصارى: ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ﴾، إذ الإيمان برسول واحد يوجب الإيمان بجميع الرسل، والكفر برسول يعني الكفر بكل الرسل كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ فكان تكذيبهم لنوح عليه السلام تكذيبًا لكل المرسلين، وكذا التكذيب بمُحَمَّد ﷺ تكذيب بكل الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومنها أن الذي أمرنا بسؤال أهل الكتاب في هذا الباب هو الذي أعلمنا ما أحدثوه في كتبهم، فغيروا وبدلوا، وقد أعلمنا أن هذا القرآن مهيمن على كتبهم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾. ثم إن هذا السؤال إنما يكون بحصول الشك وحين الجدال لا غير، والمؤمن لا يحصل له الشك، وإنما يُلزم غيره بما عنده من الحق ليأخذه إلى الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.

ومن تأمّل قصص قريش مع أهل الكتاب، وسؤالهم عن صدق الرسول ﷺ تبين له أن كل ما امتحنوه به كان يثبت صدقه، وتقع بسؤالهم الحجة عليهم، وكذا سؤال يهود له، وسؤال نصارى نجران وغيرهم، فما من امتحان إلا ويعلمون به أنه الحق لكنه الكبر والغرور ومن قرأ ما قاله الأسقف أبو الحارث من نصارى نجران وسبب عدم اتباعه علم أنها الدنيا وخوف ذهاب الرئاسة، مع علمهم أنه الحق ﷺ.

والقصد أن هذا سؤال مخصوص، هو في كتبهم لا ينكرونه، وهو من باب إقامة الحجة على المخالف، لا من قبيل طلب المهتدي للهدى في غير كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ. ثم إن هذه الآية دليل يستدل بها على طلب الحق من مظانه، وطلب من لا يعلم العلم من أهله، وهم أهل الذكر له، ومن غاب عنه علم شيء فإنه لا يعلمه وواجبه طلبه من مصدره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾[٤]

ومن دلائل بشريتهم أنهم كانوا يأكلون الطعام، فلم يكونوا غير ذلك.

---

[٤] الأنبياء: ٩

قال الطبري: "فوحد الجسد، وجعله موحّدًا، وهو من صفة الجماعة، وإنما جاز ذلك؛ لأن الجسد بمعنى المصدر، كما يقال في الكلام: وما جعلناهم خلقًا لا يأكلون." أي أنهم لم يخلقوا خلقةً لا تأكل الطعام، والله يقول: ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾. واختصاص ذكر أكلهم الطعام؛ لأن أخص خصائص الخلق – وهي صفة واجبة لهم – الفقر والحاجة، وأكل الطعام هو عنوان هذا، ولذلك من صفات الله تعالى «الصمد»، وأصلها من «المصمت»، وهو الذي لا جوف له، ومن لا جوف له فلا يأكل ولا يشرب، ومن كان كذلك فهو غير محتاج، ولذلك فَسّر ابن عباس «الصمد» بالسيد الذي كمل سؤدده.

فالله ذكر هذه الصفة لِمَا في دلالتها على البشرية لأنها عنوان الضعف والمرض والحاجة والفقر والحياة والموت، وكون الأنبياء بشرًا يعني خضوعهم لسُنَن الخلق في الحياة والممات والوجود، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، ولذلك كانوا يمرضون ويشتد بهم المرض كما وقع لأيوب عليه السلام كما قال تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، والنبي ﷺ كان يوجع أشد من وجع غيره من الناس، فمقاماتهم في البلاء تعادل مقاماتهم في الاجتباء، وتلك قسمة الوجود، وهي القسمة التي لا يعرفها الجهلاء، بل يظنون لجهلهم أن الاجتباء يعني البراءة من الامتحان والبلاء، وهيهات أن تنال المقامات العلية بالدعة والخمول والسلامة.

كما أن الأنبياء كانت لهم أمانيهم البشرية كما سأل زكريا ربه: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، وقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، ومن الأنبياء من قتل حيث جرت عليه سُنَن الوجود بغلبة المجرمين عليه كما يذكر عن يحي عليه السلام، فهذا الخضوع التام لسُنَن الوجود يعني أن مسيرتهم في الدعوة، وأن أحداث هذه الدعوة بينهم وبين خصومهم هي وفق السُنَن القدرية الجارية في الخلق، فلا يوجد خروج عنها في شيء، وأما المعجزة فهي حدث بارز في هذه المسيرة لا يتعلق به تغيير لهذا المسار، وليس بها يُحكم على حركة الأنبياء ودعوتهم، فها هو رسول الله ﷺ يسير في غزوة العسرة إلى تبوك، ويقع عليه وعليهم من البلاء العظيم، ويلاقون من الأهوال ما يلاقيها كل سائر في ذلك الوقت نفس المسير، وما وقع فيها من معجزة بركة الطعام والماء ليس هو الذي غيّر مسيرة الحركة، ولا هو حاكم عليها بحيث تلغى الحركة البشرية أمام المعجزة كما يتصور ذلك بعضٌ، أو كما يحكم الزنادقة اليوم بقولهم: "إن زمن المعجزات قد انتهى"، أي إن الحكم بالشريعة والعمل للدين لا سبيل له إلا بالمعجزة الخارجة عن السُنَن، ولَمّا كانت المعجزات قد انتهت فيعني ذلك أن نصر الإسلام والشريعة لا سبيل له اليوم.

ثم إن رسولنا ﷺ مكث ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو إلى الله تعالى ولم يحدث أن أسلم واحد من الصحابة - وهم الأوائل الأخيار - بغير سبيل سُنَن الدعوة التي يعرفها الخلق، وكذلك هجرته ودخوله المدينة وكذا جميع غزواته وأعماله. ولما قبض الرسول ﷺ فإن مسيرة الدعوة وانتشار الدين وحركة الجهاد التي قام عليها أصحابه ﷺ لم يكن أمرها إلا ضمن هذا المسار، ولقد تعرضت الدعوة بعد وفاته لأمر لعله أشبه - بل هو كذلك - بغزوة الأحزاب وهو حادثة الردة، ولم يكن حدثها والقضاء على المرتدين إلا وفق السُنَن التي فهمها الصحابة في حياتهم مع رسول الله ﷺ، ولم يفهموا أن أمرها يحتاج إلى معجزةٍ خارقةٍ للسُنَن، بل فهموا أنهم أهلها، وأن إرادتهم وحركتهم هي ما يحسمها، كل ذلك بتوفيق الله تعالى وهدايته؛ بيقينهم أن الله ناصر دينه، وناصر من عمل لدينه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ هنا تبرز ربانية هذه الدعوة حين تأتي العاقبة، هذه العاقبة التي جاءت في أول الطريق وعدًا حين كانت كل الظروف تخالفها في الظاهر، ولا مقدمات لها سوى أن الحق مع الأنبياء، فتعلقت بها قلوب المؤمنين تصديقًا لكلام ربهم ووعده الحق، وكانت موازين القوى تزيد الجاهلين غرورًا واستكبارًا، وتدفعهم إلى الاستهزاء الحاد بالوعد وصاحبه والمؤمنين به، ومن تلك النقطة التي ليس فيها إلا صراع بين وعد محمول على الكلمات وبين واقع يُمَلِّك خصومَ الوعد العتادَ والعدد، والقوة والسلطان، وتبدأ مسيرة التدافع حتى يتحقق الوعد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾.

والقرآن الكريم حين يُتلى على رسول الله ﷺ بالوعود التي تحققت مع الأنبياء السابقين، كان يؤكد أن هذا ما سيقع له، لكن كان هناك أمر لا بُدَّ من استحضاره أن الوعد وهو النصر ليس له شكل واحد، ولا له صورة واحدة، فإنه وإن كان نصرًا إلا أن الظن أنه له صبغة واحدة؛ ليس هذا من الفهم الصحيح في شيء.

وسيأتي كيف تحقق النصر لنوح حيث أنجاه الله وأغرق أعداءه، وقد ذكر في القرآن أمر نجاة هود وصالح ولوط عليهم السلام، وكيف جاءت الآيات العظمى فاستأصلتهم ولم يبق منهم مخبر، وكذلك نجاة موسى عليه السلام من فرعون وقومه، إلا أن هذا لم يكن يعني لرسول الله ﷺ أن هذا النوع من النصر هو ما سيقع على أعدائه، بل وقع نوع آخر هو من مسمى النصر وداخل في مفهومه، وفيه نجاة المؤمنين كما فيه شهادتهم في سبيل الله تعالى، وفيه إهلاك أعداء له كما فيه إيمان بعضهم به بعد طول مدافعة وجهاد كما وقع لأبي سفيان وعكرمة وصفوان ﷺ جميعًا.

إذاً الأمر اليقيني أن: ﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأن النصر يقيني في أي دائرة من دوائر الصراع التاريخي بين الحق والباطل، إلا أن صور هذا النصر هي على وفق مراد رباني يدركه المؤمنون حين يرونه فيقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، وأمّا غيرهم فإنهم يحملون هذا التداول بين الحق والباطل على معنى العبثية التي لا تحقق زوال أحد الطرفين، فتبدأ الدعوة لنبذ الدين علة جهادٍ بين الناس، وحمل الناس على نسيان معتقداتهم، والاصطلاح على شكل يجمع الهياكل على أساس غير الدين والإيمان، ثم يزعمون أن هذه هي نهاية إدراك البشرية، وهذا هو منتهى الحضارة والتقدم والوعي على التاريخ والحاضر. والناس إن صدقوهم في طور تاريخي معاصر امتد جيلًا أو جيلين إلا أنهم رأوا أن الباطل هو الذي خرج منتصرًا من هذا الصلح المزعوم، ومن هذه الهياكل الجديدة بعيدًا عن الدين، إذ استمر طغيان الباطل، وتجرّأ الظلم حتى عمَّ وانتشر، فلم يتحقق للناس سلام، ولا حصل لهم وئام، وإنما هي حروبٌ وظلمٌ ونهبٌ واستكبار، يقابله خنوعٌ وجهلٌ واغترار؛ ولذلك فإعادة تقسيم الناس والحياة والتجمعات على أساس الولاء للدين وللشريعة هو الذي يحقق للوجود معناه الصحيح، وهو الذي يجعل المعركة صريحة واضحة لا كذب فيها ولا خداع، ثم يكون عاقبة هذا الوضع القرآني أن يتحقق النصر الذي أدنى معانيه أن تعود الحقوق لأصحابها، وأن يرد الباطل، وأن يعيش الناس بلا ظلم ولا فساد، ولذلك فمن الغرابة أن يرى الناس كل هذه المظالم اليوم – حين زعموا فراغ الوجود من التدافع على أساس الدين، حيث يشاهد كيف يأكل القوي الضعيف، وكيف تسلب الحقوق، وكيف تنهب الثروات – ثم يقول أفاك جهول إن الدين هو الذي يصنع الفتن والخصومات والقتل والخراب، وهذه الكلمة وإن قالها بعضٌ وينكرها الكثيرون، إلا أن الجموع تكاد تطبق اليوم أن الدين هو أساس تجمع البشرية على وفق إنساني، فلا تفرقة بين مؤمن وكافر، ولا بين مهتدٍ وضال، وهذا يقال من كل الأطياف، وهو كذب على الدين أولًا، ثم هو كذب على الحقائق القدرية، فالاختلاف أمرٌ قَدَري، وهو اختلاف بين حقٍ وباطل، وبين هدىً وضلال، وبين صالحٍ وفاسد، وهذا الاختلاف يحقق التدافع قدرًا لازمًا كما يشهد التاريخ والحاضر، ولذلك لا بُدَّ من تحقق هذا التدافع على وفق انقسام الناس حول الدين، وبهذا تقع الوعود الربانية كما يقول تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

وأنا أعجب لمن يقرأ القرآن، ويدعو إلى إحيائه والعمل بآياته؛ كيف يفهم آيات الوعود الربانية بالنصر، وكيف يفهم قصص الأنبياء، ثم هو لا يرى أن الدعوة إلى التجمّع والولاء على غير الله ورسوله وشريعته والإيمان؛ لا تحقق هذا كله، بل تُبطله من أصله وتنفيه. ولذلك فلا عجب أن نرى هؤلاء يستهزئون بأهل اليقين بهذه الوعود، ويصمونهم بالسفاهة أو طفولية الفكر أو انغلاق العقل، هذا مع اشتراكهم مع مُبَدّلي الشريعة في أن الحياة قد

تطورت وتغيرت، فهذه حجة الزنادقة في وجوب تغيير الأحكام والشريعة، وهي حجة هؤلاء الجهلة في إبطال الوعود وقصص العبرة القرآنية.

وقد يظن بعضٌ – وقد كتب في ذلك – أن هذه القضايا تصورية بحتة، والحديث فيها عمومات لا علاقة له ببرامج الدعاة والتجمعات العاملة لدين الله تعالى، وهذا القول من أفسد ما يطرأ على ذهن العابد الداعي الفقيه، فلا تصور في الإسلام لا يغرز سلوكًا، ومجرد تخيل هذا طعن في الشريعة، ومن تفكر في حال الفريقين سلوكًا رأى الفارق كبيرًا بينهما، فقد تقدم أن الإيمان بالوعود القرآنية لا يمكن أن يتطابق مع إلغاء الولاء والبراء وأُس تطبيقهما في حياة المؤمن أن يكون التدافع بين البشر على قاعدة قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾.

ثمّ إن الوعود لا تتحقق بالمداهنة التي قال الله عنها: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ والمداهنة سلوك وبرنامج عمل، كما أنها – أي الوعود – لا تتحقق بغير المفاصلة كما قال تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾، لأن المفاصلة هي التي تحقق واقع التدافع الذي يؤدي إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾.

لكن المشكلة عند «المداهنين» تتعلق بقلة الصبر على تكاليف طريق المفاصلة، كما أنها تستعجل البلوغ قبل الأوان فتتنازل عن الشروط اللازمة لتحقق النصر كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾، مع وجود أمر لا يمكن تغييبه وهو قلة الفقه بالواقع وأحكامه الشرعية، فإن كثيرًا ممن يزعم أهمية فقه الواقع ليغفل عن حكم الشرع في هذا الواقع، بل ويجعل هذا الفقه رأيًا ذاتيًا وإبداعًا فكريًا لا علاقة له بالدليل الشرعي، وهذا أمر مشهود من القوم، بل هو عنوانهم الأكبر في ذلك، فزعمهم أن حركة الدعوة واختيارات أصحابها رأيٌ سياسي وجهدٌ فكري لا علاقة له بالحكم الشرعي الذي يحكمه الدليل، ولذلك يرفضون الحكم على الوجود إيمانًا وكفرًا، بل يجعلون هذا من عمل القضاء، فهم يرفعون شعار «دعاة لا قضاة»، مع أن المسلم لا يمكن أن يسلك سبيلًا ولا أن يتخذ موقفًا حتى يعرف حكم الله في العمل وأشيائه المصاحبة له.

فالقول إن العمومات القرآنية لا تحدد سلوكًا ولا تصنع برنامج عمل هو افتراء على القرآن، وسلوك النبي ﷺ في مكة إنما كان الدعوة إلى الله تعالى ومع ذلك قال الله تعالى له: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، وهي آيات تحدد لرسول الله ﷺ الطريقة في الدعوة، لا على معنى ما يقوله بعضٌ من أن أساليب

الدعوة توقيفية فيحرمون الوسائل كمن يحرم العصيان المدني أو المظاهرات بحجة عدم سنيتها، فهذا جهل على الشريعة، ولا هو مقصد القرآن في وجوب اتباع الرسول ﷺ لما يوحى إليه، فشتان بين القول الذي يدعو إليه القرآن وما يقوله هؤلاء، وأشبه بهؤلاء من جعل وسيلة إزالة الغربة الثانية على وفق فهمه لما حقق الرسول ﷺ من النصر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾، مع علمه باختلاف المناط بين الحالين، فشتان بين مرتد وكافرٍ أصلي، كما هو شتان بين دار متحولة عن الإسلام ودار كفر أصلي، هذا مع أن الفهم نفسه يحتاج إلى مراجعةٍ وتدقيق، وحال هؤلاء كمن أوجب الهجرة لتحقق النّصر، وهي أفهام غير مهدية في جوانب عديدة، لكن يشار إليها الآن ليعلم التمايز بين مفهوم الاتباع الواجب وبين ما يقولون.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ هو خاتمة لرحلة بدأت مع الوعد، ووقع فيها خطوب وبلاء، وإغراءات وتخويفات، فهي رحلة زمنية شاقة كان الخصوم فيها يزدادون إمعانًا في الضلال، كما كان النقص يحل بهم من كل الجوانب، وإغراءات الضعف الذي عليه المؤمنون تزيدهم إيغالًا في الغرور، وأن بيدهم القدرة على حسم المعركة بينهما، وكل هذا هو بلاء للمؤمنين يُعمق فيه الإيمان بالآخرة، وتزداد البصيرة بالأعداء، ويزداد اليقين بالوعود، وهم في خضم البلاء تهب عليهم نسائم النصر بشارات؛ إيمان فِتْية، أو هداية سحرة يلحقون بالركب، وتغزو قلوبهم معاني الإيمان والتثبيت كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾، وتصاعَدُ الفتنة حتى تصل إلى نهايتها مع هذه الكلمات الربانية العظيمة: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ وحيث يقع النصر تبدأ الرحلة مع مرحلة جديدة يبصرها أهل الإيمان والعلم حيث يبكون من النصر أشد من بكائهم يوم الامتحان كما بكى الفاروق لما رأى الغنائم تنثر تحت أرجل الرجال في ساحة مسجد الحبيب مُحَمَّد ﷺ، فيرى الفتن القادمة فيرفع يديه أن يقبضه الله تعالى قبل حلولها، وهكذا هي سوق الحياة تجري على هذا المعنى من السُنَن، فلا أوهام، ولا أحلام، فالأرض هي الأرض، والإنسان هو الإنسان، والسُنَن هي السُنَن، والتدافع قائم لا ينتهي حتى تكون الساعة، فمن قال: "لا جهاد" فهو من أجهل خلق الله، سواء قاله قبل التمكين أم بعده، أو قاله زمن الاستضعاف أم في أي زمن آخر، لأن الجهاد عبادة الحياة لا لحلقة تاريخية واحدة من حلقات هذه الأُمَّة بل لكل حلقاتها ولكل ظروفها وفق قاعدة الإيمان: ((لا رَاحَةَ لِلْمُؤْمِنِ دُونَ لِقَاءِ رَبِّهِ)).

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ﴾ هذا هو نصر الأُمم السابقة من المؤمنين، لكن نصر هذه الأُمَّة أعظم من ذلك وأكرم، إذ كان نصرهم وما زال هو تحقق الوعود لهم بقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، وهذه الآية حين تجمع مع آيات مكية نزلت في بداية الدعوة في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ

يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويذكر فيها القتال في سبيل الله قبل أن يشرع ليعلم أن هذا هو شرع الله، وقدر دينه، ومستقبل علاقته مع الوجود. فنجاة هذه الأُمَّة وعصمتها في كونها تمثل قدر الله تعالى في الحياة، فهي تحب من أحب الله، وتعادي من عادى الله، وتؤمّن من يؤمّنه الله، وترهب من يرهبه الله، لأن هذا هو شأن العبد مع سيده، وهذه أُمَّة متعبدة لله، لا اختيار لها إلا على وفق ما يحبه الله تعالى ويبغضه.

ثمّ إن هذا اللفظ القرآني: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ ليدل على أن مجرد نجاة المؤمن وهو مستضعف مطارد من يد أعدائه المستكبرين هو نصر وتأييد من الله تعالى، كما حصل لسيد الخلق مُحَمَّد ﷺ في هجرته، فإن الله ﷻ قال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهذه النجاة لا تكون للأبد كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ لكن النجاة التي يبطل الله منها كيد الأعداء، ويقهر قلوبهم أن هذا المستضعف قد فلت من أيديهم، وأن مكرهم كان أعجز من أن يوقعه، ثم يحيي وتمتد دعوته وينتشر خبره في الوجود مع ضعفه وقلة حيلته أمام قوتهم وجبروتهم لهو دليل أن الله معه، وأن كيدهم في تباب.

لقد عاشت الدعوة في كل حلقةٍ من حلقاتها التاريخية تحت هذا المعنى، وعاش رجالها ضمن هذه السُنّة، ولقد كاد لهم أعداؤهم كل الكيد حتى يمنعوا كلماتهم من الحياة، وآثارهم من الانتشار، ودينهم من البقاء، فما زادهم هذا الكيد مع الضعف إلا سببًا للحياة، ووسيلة للانتشار، وأما هم فقد حق عليهم قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾، فذهبوا إلى غضب الله في الآخرة، وإلى لعنة الناس في الدنيا، فكان هذا هو أعظم النجاة حين تنجو كلماتهم ويمتد دينهم وتبقى آثارهم، وهذا هو أعظم الهلكة التي تصيب أعداء هذا الدين من الطغاة وغيرهم، وكل ذلك وفق سُنّة الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾. فإذًا هي نجاة يحصل بها بقاء الأثر والذكر وتتم بها الآيات التي تتحقق بها حجة الله تعالى على الخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ لقد تقدم أنه لا استئصال للأمم منذ بعثة النبي ﷺ ، فإن كان الإهلاك للسابقين كان استئصالًا فإن إهلاك المسرفين لهذا الدين له معاني عدة تقدم بعضها منها هزيمتهم وبطلان مقاصدهم كما وقع للصليبيين في غزوهم لهذه الأُمَّة، وكما وقع للتتار من إسلام بعضهم وإهلاك طغاتهم، وكل ذلك من إرث النبي ﷺ مع خصومه من قريش، فمنهم من أهلكه الله على يد المؤمنين المجاهدين في بدر وغيرها،

ومنهم من هداه الله تعالى فكانت هدايته إهلاكًا للشر والباطل الذي كان ينصره، وهكذا فإن النبي ﷺ حين كان يقرأ هذه الآيات لم يكن يفهمها على وجه المطابقة الكلية للمثال المضروب، وإنما هي تهدي أن العاقبة للمؤمنين، وأن الكافرين إلى زوال في خطتهم التي يكيدون بها للدعوة والداعي، وللدين وحملته، وتوزع هذه المعاني في حياة الأمة هو الذي يجب أن يفهمه أهل الإسلام في كل موقعة بينهم وبين أعدائهم حتى لو كان للكافرين نصيب في معركة من المعارك كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ فإن هذا لا يعني أن الأرض توقف إنقاصها بدخولها في أيدي المؤمنين، بل لقد كان من آيات الله أن دخل هذا الدين في ديار وأقوام والمسلمون مستضعفون، وللكافرين نصيبٌ من الغلبة والقوة، وهو أمرٌ مطرد إلى يومنا هذا بإذن الله تعالى، وإن تحقق أن وقعت الردّة في قوم فإن القاعدة القرآنية ما زالت تعمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ فهذه مساحة من الإيمان منازعة ولا تقبل الفراغ، وحين يكرم الله عبدًا أو أُمَّة بها فإنه من الجهل والضلال تركها، إذ بمجرد إفراغها يأتي الوارث ليملأها ذلّة على المؤمنين وعزّة على الكافرين وجهادًا في سبيل الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

لقد نجت هذه الأُمَّة في كل طور تاريخي، وحصل أن رفع الله علائم إيمان من الرجال في هذه الأطوار، وذهب الأعداء في خزي وعار، وطردوا وأهلكوا، وصار فيهم وفي رجالهم وراثة السالفين منهم كفرعون وقارون وهامان، وبهذا حصل التجديد وقامت الأسواق الإيمانية وهبّت أرواح الجنان على ورّاث النبوة، كما هبّت لعنات الغضب على ورّاث فرعون وقارون وهامان، وستستمر الرحلة، وسيبقى كتاب التاريخ مفتوحًا يدخل فيه رجال في صفحات الاقتداء الإيماني، ورجال في ظلمات الكفر والظلم والإعراض.

فهذا هو قَدَرُ الوجود، وهي سُنّته، وهذا هو قدر الإيمان وأهله، فهو مسيرة رجال وفق سُنَن الحياة وضمن بشرية العاملين، وتحت ظلال النصر الإلهي والتأييد الرباني الذي حمله أهله وعدًا إلهيًا منذ بداية الطريق.

وقوله تعالى: ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ هذا اللفظ القرآني في هذا الموطن له دلالته، فهو جامع لعلل الإهلاك، ذلك بأن هؤلاء أهل قوة وثراء، فأما قوتهم فإنهم يسرفون في استخدامها على المستضعفين، ولا يألون جهدًا في إفراغها على رؤوسهم قتلًا وتعذيبًا، وهذا سبب أولي لحصول الإهلاك، لأنه ظلم، والظلم هو أعظم علل الإسراع بالإنتقام

والإهلاك، سواء من فعل الرب وغضبه، وكذلك بما يحدثه من آثار في نفس المظلوم حتى يسارع وتقوى نفسه على الانتصار ورد إجرام الظالم.

وأمّا ثراؤهم فإنهم يسرفون فيه، وهو سببٌ عاجلٌ في تدمير الأُمم وهلاكها، كما قال تعالى عن الأمرين؛ أي القوة والثراء: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ولقد كان هذا مع أعداء الأُمَّة تاريخًا وحاضرًا، وكان إسرافهم في الأمرين هو الذي يحقق هلاكهم من داخلهم، وحينئذ لا تكون أعمال المهتدين في هذه الأُمَّة إلا عاملًا فيه معنى الصبر الذي يحقق النصر، وفيه معنى الاستعداد لوراثة الهالك الذاهب، وهذا لعمر الحق فعل الأنبياء ووراثهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ إنما يقصد به أتباع الأنبياء، ومشيئة الله تعالى وإن كانت حاكمة لا محكومة، وقاضية لا قاضي يقضي عليها، إلا أن الله حَكَم أن مشيئته لا تقع إلا وفق حكمة وصراط مستقيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي﴾ أي بالأمر الشرعي والأمر القدري، وإن كان سياقها – وهي في سورة الرعد – يدل أن المراد بها القضاء القَدَري فيها: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾، فمشيئته في النجاة كرحمته لا تكتب إلا للمستحق كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، والله عز وجل في تعليقه النجاة على مشيئته ليُعلِم أهل الإيمان أن القضاء الرباني لا يجري جريانًا ذاتيًا كما يزعم المشركون، ولا هي سُنَن خلقت في الأزل ثم تجري أفرادها بالوضع الإلهي الأول، بل لا يجري فرد من أفراد هذه السُنَن القَدَرية إلا بإرادة خاصة له، فالسُنَن وإن كانت وضعًا إلهيًا في الأصل، إلا أن أفرادها لا تقع إلا بمشيئة منه سبحانه وتعالى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وذكر المشيئة لا يوجب الانتهاء كما يتصور بعضٌ فإن قوله تعالى عن أهل النار وأهل الجنة في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خالدين خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يدلك على هذا، وأن تعليق الأمر على المشيئة لا يعني أن له أمدًا، بل يعني خضوعه في كل حدث فيه للمشيئة، ولا يجري دوامه بالأمر الأول والقضاء عند الإيجاد، بل إن إرادة الله تعالى فيه في كل لحظات وجوده، وهذا داخل في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وهو قيام متجدد، والعلم بها يبعث على إجلال الله تعالى وتعظيمه، ورسول

الله ﷺ نبه على هذا في الحديث القدسي، حديث النهي عن النوء، أنهم أمطروا ليلًا في ليلة الحديبية فلما صلى بهم الصبح أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ. فالمطر وإن كان ينزل بسُنَن الخلق المودعة في الوجود حين خلقه الله، إلا أن كل قطرة ماء إنما تنزل بإرادة ومشيئة له، وهذا المعنى جهله بعض المتكلمين كالأشاعرة حين أنكروا حدوث المشيئة وأنها صفة إرادة، وجعلوها صفة ذات قديمة، لا تحدث أفرادها في ذات الله تعالى، عملًا بمقالتهم المشهورة بعدم جواز حلول الحوادث في ذات الله تعالى، وهو عين قولهم في الكلام حيث جعلوه معنى نفسيًّا قديمًا قائمًا بالذات ولا علاقة له بالإرادة كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مُّحْدَثٍ﴾، والمسألة ينبه عليها هنا لِمَا في ذكرها من تعظيم الله تعالى ومعرفة حقه في باب المشيئة، وتنبيهًا على خطأ تصور غالب أن تعليق أمر على المشيئة يعني انتهاءه، وهذا يعني فناء الجنة والنار، وهما في دين الله خالدتان لا زوال لهما مع تعلقهما بالمشيئة، كما أن ذكر المشيئة لا يعني إلغاء حكمة الله وتعليل أفعاله جلَّ في علاه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[°]

هذه عبرة القرآن وعظته، وهو أن يرفع المرايا الحق ليرى الناس؛ كل الناس فيه أنفسهم، فيعلمون مواقعهم من الحق، ومواقعهم من رحمة الله وغضبه، ثم مواقعهم يوم القيامة أفي جنة أم في السعير كما قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، لأن قصصه عن الأمم السابقة هي نفسها القصة التي تحياها كل الأُمم، فالإنسان هو الإنسان، لا يتطور ولا يتبدل، خلقه الله على فطرةٍ واحدة، وهم مع الحق على مراتب، كل امرئ يرى نفسه في هذه المراتب، لا تغيب عنه، والله ﷻ يقول هذا ردًا على الذين يحتجون جهلًا يوم القيامة أو سيحتجون جهلًا يوم القيامة أن الحجة لم تقم عليهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فالقرآن يقضي على هذه الحجج الباطلة قبل صدورها، ذلك لأن الله ﷻ يحب العذر، وهذا متعدد في القرآن في خطابه مع الخلق كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ

[°] الأنبياء: ١٠

مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

وبهذا المعنى أقام الله حجته على بني اسرائيل بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ فبعد أن ذكر الله أمر الآيات الفاصلة وحال الأمم السابقة معها، وقد حصل من قريش هذا الطلب ذكر الله تعالى أن الحال هو الحال فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾. ولأن الأُمم من سُنّتها الجهل والغفلة، فإنها تزعم دومًا في كل طور من أطوار طغيانها أنها حالة فريدة ولها خصوصيتها ولذلك لن يصيبها ما أصاب الأُمم السابقة فردَّ الله عليهم هذه الجهالة بقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾، ونبه المؤمنين أن الكفر الذي أصاب الأمم السابقة وكان سبب عذابهم هو ما وقعت فيه قريش، وهو عين الكفر والشرك الذي يصيب الأمم ويقع عليهم به العذاب فقال ﷻ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

هكذا تطرد السُنَن بوجود عللها، فلا القوة تدفع العذاب، ولا زعم الخصوصية ينجيهم، وقد وقع لمغرورين من أسلافهم هذه الأوهام فقال ﷻ: ﴿أَمَّا عَاد فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْض بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدّ مِنَّا قُوَّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّه الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدّ مِنْهُمْ قُوَّة﴾. وقد كانت قريش تزعم أن لها خصوصية الانتساب لإبراهيم ؑ، وزعمت أنها برعايتها البيت الحرام يتحقق لها حصانة تمنع العذاب، وقد رد الله عليهم ذلك في مواطن وجردهم من هذه المزاعم.

ولذلك فما من أُمَّةٍ من الأُمم إلا وستجد نفسها في هذا الكتاب، وما من حادثةٍ في الوجود إلا ولها ذكر، وما من إنسان يعمل عملًا إلا وهو راء نفسه في آيات القرآن، وكلما ازداد بصر المرء في كتاب الله تعالى؛ ظهر له هذا جليًا، وهذه هي عبرة القرآن، كما أن هذا هو العمل به والفقه فيه، فآيات القرآن مستوعبة لأحداث الوجود ومواقف الناس فيه إيمانًا وكفرًا، وبقاءً وزوالًا، ونصرًا وهزيمة، وهذا رد على الجاهلين الذين يرون كتاب الله مجرد عمومات لا تجيب على أسئلة الدعوة والدعاة، ولا تحقق لهم برامج العمل، ولا تبين لهم تفصيلًا في الاختيارات، وأول السبل في هذا المهيع الجاهل هو ترك العمل بأحكامه على الأشخاص والحوادث، والإعراض عن تسميات القرآن وأحكامه فيهما، إذ بهذا يستبعد القرآن من المعركة، وتنبذ أحكامه، وبتحقق هذه الجهالة تبدأ الآراء والأهواء في ملء الفراغ، ويذهب أصحاب هذا السبيل بتسمية هذا سياسة وحكمة وحسن تدبير، وأما أهل القرآن

وأحكامه فهم متكلسون متشددون لا بصيرة لهم بسياسة الواقع ولا بإدارته، وبهذا التخبط لا تتحقق وعود القرآن، ولا تصل المعركة إلى نهايتها، لأن الإيمان بالله والدار الآخرة مستبعد من المعركة، منبوذ من قبل الدعاة، لاعتبارهم التدافع إنما هو على مسائل برامج تنموية أو إصلاحية معيشية، وهي مجرد آراء لا علاقة لها بأحكام الكفر والإيمان، ولا الهدى والضلال.

بهذه الوسيلة استبعد القرآن من المعركة كليًا، ولا ينفع الشعار بلا حقائق، لأن حقائق القرآن هي أحكامه على الوجود، حين يسمي فرعون بحكمه الشرعي، وكذا قارون وهامان، ووراثهم كأبي لهب وامرأته حمّالة الحطب، وكذلك حين تُوقع حقائق القرآن وأحكامه في المنافقين ومواقفهم، والمؤمنين وأعمالهم، وبهذا تحصل البصيرة، ويرتفع الشك، ويُقبل أهل القرآن على أعمال الإيمان بيقينٍ ثابت، لكن الواقع يدل أن جعل مسألة الدعوة أمرًا اجتهاديًا عند الناس أدى إلى التراجع والنكوص بمجرد حصول علائم الابتلاء أو تحقق بدايته، لأنهم في ابتداء ليسوا على نور من ربهم، ولا على يقين مما هم فيه، وقد علم أن الدعوة إلى الله لا تكون إلا بعلم كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، وأول العلم هو تسمية الوجود بأسمائه الشرعية التي نطق بها القرآن، فهذا مؤمن وهذا كافر، وهذا مهتد وهذا ضال، وهكذا ليعلم الناس حكم الله فيهم، فتقام عليهم الحجة القرآنية، ويحصل البلاغ، ويكون الناس على بصيرة من أمرهم، وبهذه التسميات الشرعية تتخذ مواقف الدعاة من الوجود كما أمر الله تعالى وكما كانت سيرة النبي ﷺ، فيتحقق معنى هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، فحين يسأل امرئ هل هذا موجود في كتاب الله فيكون جواب المهتدين بالقرآن: نعم، وها هي صورتك جلية بينة لا خفاء فيها، فيهلك من هلك عن بيّنة ويحي من حيّ عن بيّنة.

وهذا السبيل هو سبيل النبي ﷺ حتى مع أصحابه رضي الله عنهم حيث كان يوقع لهم حقائق القرآن في أحداث حياتهم على وفق ما مضى من قصص الغابرين، ففي حادثة ذات أنواط حين قال لهم ﷺ: ((االلهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَن، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)).

وقوله ﷺ في سبب نزول خواتيم سورة البقرة: ((أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)).

وقوله ﷺ: ((رَحِمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبر)).

وفي مواطن أخرى كثيرة يعرفها أهل العلم بالسُنَن، وبهذا يحصل العمل بالقرآن، وتتحقق أحكامه في الأرض، وتكون الوعود لازمة الوقوع لتحقق شروطها كما قدّر الله.

وهذه الآية تُبَيِّن أن أعظم الآيات النافعة للاعتبار؛ هي الآيات السُنَنِيّة في التاريخ البشري، وتعلق جريانها بعلة الإيمان وأعماله، وهذا باب من أبواب النزاع بين طائفة الإيمان وخصومهم منذ القديم وإلى يومنا هذا، فإنهم يرفضون ربط أحداث الوجود وصعود الأُمم وزوالها بالإيمان وأعماله، حتى الذين يرون الجانب الخلقي والاقتصادي والسياسي عللًا مؤثرة في هذا الباب إلا أن أغلبهم يرفض وضع الإيمان بالله علّة مؤثرة في ذلك، وكل هذا من هداية القرآن لأُمَّة الإسلام حيث هم يكادون يختصون بهذا الأمر، وهم أكثر الأُمم بصيرة فيه، إذ يرون ارتباط عالَم الغيب بعالَم الشهادة، وأن مسيرة عالَم الشهادة إنما تجري وفق حب الله وبغضه، ورضاه وسخطه، وهي أمور لها أسبابها من الطاعة والمعصية، وأعلى الطاعات الإيمان بالله وتوحيده، وأشد المعاصي الكفر بالله والشرك بالله، لكن هذه الهداية القرآنية أفسدتها الأهواء وخاصة دين الصوفية الدخيل على الإسلام وبعض مذاهب أهل الكلام، فأما الصوفية والتقاؤها بما يُسمّى بمذهب الإرجاء ونفي الإرادة الإنسانية والتعليل الإلهي فإنهما جعلا الحالة الباطنية – دون الظاهر العملي – هي المؤثر إن كان هناك تأثير، فهم يقولون إن الإيمان هو المؤثر، لكن الإيمان عندهم حالة تصور باطني ومعرفي لا غير، وبهذا تعطلت الإرادة عن التغيير، وتم الاستسلام لمفهوم الجبر الذي ينفي الإرادة الفاعلة المؤثرة في الحركة الإنسانية، ولذلك ففهم تأثير الإيمان على الوجود لا يتم إلا بفهم الإيمان على وجهه الصحيح، كما أنه لا بدّ من فهم ارتباط الوجود وحراكه بالأعمال الخاصة المؤثرة فيه، لا مجرد العموم، فالصلاة وإن كانت إيمانًا إلا أنها لا تؤثر في كل أحداث الوجود تأثيرًا مباشرًا، فالزكاة وهي أقل درجة في الإيمان من الصلاة إلا أنها تؤثر في جوانب تأثيرًا مباشرًا أكثر من الصلاة، وهكذا فهناك علل إيمانية مباشرة وهناك علل رديفة كما قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهكذا يتم فهم سُنَن الوجود، ويتم ربط حراكه بفعل الإيمان أو ما يضاده.

وخصوم التفسير القرآني للتاريخ ينفون هذا بشدة، بل هم أشد الناس كرهًا لهذا التفسير، لأنه يكشف ضررهم وفسادهم في الوجود، وهو من غيهم وضلالهم، والله ﷻ من مكره بهم يلقي على هذه الأحداث ظواهر تعميهم عن رؤية يد الله المحركة لها، ولو سألوا أنفسهم سؤال الرسول ﷺ لهم: ((فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ)) لعلموا أن هذه

الظواهر لا توجد نفسها، ولا تنشأ من فراغ، فإن تفسيراتهم لا تعدو مقالات الأطباء اليوم حين يموت أحدهم فيقولون: "مات بالسكتة القلبية" وقد صدقوا فإنه مات بتوقف قلبه، وخلاصة قولهم هي: "مات بالموت" لا غير، وأمّا قبض الروح فلا وجود له عندهم، وهكذا هم يقولون: "صار زلزال بسبب الزلزال"، إذ لا يُفَسَّرُ الشيء عندهم إلا بموضوعه ووصفه. فالعلل الظاهرة حُجُب عن رؤية اليد الإلهية، كما أن هذه الظواهر هي عينها نفس الشيء وليست علته، ولا يفسر حدوث الشيء بنفسه.

والتفسير القرآني للتاريخ، وجعل التاريخ هو جريان إرادة الله في الوجود، مع ارتباط هذه الإرادة بالفعل الإنساني وموقفه من الإيمان؛ يلقي اليقين في قلوب المؤمنين أنهم هم أصحاب التاريخ، وأن التاريخ بهم يبدأ، وبهم ينتهي، وما يجري من الآخرين وما في أيديهم من القوة والثراء إنما هي ظواهر خادعة، تسرق أصحاب القلوب الضعيفة كما قال الله عنهم في حادثة قارون: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وهذا الاعتزاز الإيماني هو المانع الذي يؤدي إلى سقوط المؤمنين في مستنقع الانبهار بالآخر، وهو المستنقع الذي وقع فيه الناس اليوم، إذ ظنوا أن الآخر هو الذي يقود حركة الوجود، وأن الإيمان حالة ذهنية خيالية لا تؤثر في الوجود ومسار حركته، فالتحقوا بطوائف الكفر، ومن تأمل هذا الوعي الإيماني عند الصحابة ﷺ عَلِمَ أنه الباعث الحقيقي لقيادة الوجود، وأنه المؤثّر الأول في غزو العالم وبعث الفتوحات، وهذا الوعي الإيماني ليس مصاحبًا لحالة القوة فقط، بل هو أنفع ما يكون في لحظة الاستضعاف، فهذا مؤمن «ياسين» وهو يقتل، وهؤلاء أصحاب الأخدود وهم يحرقون، وهؤلاء أصحاب الكهف وهم يهاجرون إلى الكهف المنعزل؛ لا يهمهم ظواهر الأعداء؛ أموالهم وسلطانهم، بل هم ينظرون إلى يد الله تعالى التي تحكم الوجود، وبذلك دخلوا التاريخ الإيماني، وهذا التاريخ هو كخط الذهب المودع في الجبال، حيث الركام الكثير الذي لا قيمة له، وإنما القيمة لهذا الخط الغالي المشرق والثمين المودع في صفحات القرآن وحوادث الإيمان.

حين يوجه القرآن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، ليس فقط لقيمة أعمالهم في الآخرة، لكن لأن هؤلاء هم الحياة، وهؤلاء هم صُنّاعها، وإرادة هؤلاء هي التي تصنع التاريخ، وأمّا غيرهم فزبدٌ فارغٌ ذاهب، فلا يغرنك سلطانهم ولا أموالهم ولا بهارجهم ولا أصواتهم، وهكذا كان؛ إذ انطلق هؤلاء فورثوا الأرض وحققوا النصر، وانماثت أمامهم الأُمم كخيوط عنكبوت واهية.

لقد رأينا من تغيره الكثرة على حساب الحق، ومن تبهره البهارج على حساب المعاني مع أنهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾، فصاروا يقيمون المعاني بالأعداد لا بالإيمان، ويَزِنون الوجود بالمجموع لا بالطاعات، فطاشت موازينهم، وانقلبت أحكامهم، فصارت منهم فتاوى الشر وأحكام الهوى.

التفسير القرآني للتاريخ والحوادث هو ساحة معركة بين المهتدين وخصومهم، حتى لو وقعت الوقائع الظاهرة أن مجرد شباب مؤمن وقلة مهتدية قليلة حققت الحوادث، فأسقطت أمم، وأزالت دول؛ فسيأتي الجاهلون يشككون في ذلك كله منعًا من أن تتحقق الهداية في النفوس، ووضعًا للحجب والسدود من أن يعرف الناس من هم أبطال الوجود حقًا.

نعم، لقد صار الطوفان الذي أهلك قوم نوح بدعاء رجل ضعيف، وأتباعه عند الملأ أرذال الناس، لكنه لما رفع يديه وقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ كان الأمر الإلهي: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

نعم، لقد كان هذا الطفل الرضيع المطارد النائم في التابوت والملقى في البحر هو من سيحقق الله فيه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، وحين سيدعو هذا الطفل بعدما يشب ويقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ سيأتي الرد الإلهي قائلًا: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هذا هو الفرد الذي يصنع التاريخ، وهؤلاء هم القلة الذين يدخلون في ولاية الله تعالى فيقول الله عنهم: فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ.

هذه معاني يضحك منها فرعون وجنوده، ويستهزئ بها أبو لهب وأبو جهل، وسيقول عنها المنافقون: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ لكنها ستحقق التاريخ وسيجري نهره على هذا الوفق والمنهج حتى لو عميت عنه عيون الكافرين.

فالإيمان هو التاريخ، وهو محركه، والناس على ضفتيه تتحقق فيهم الوقائع والنتائج، فبالإيمان يتحقق قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبالكفر يكون: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

وهذه المسألة، وهي الخلاف حول تفسير التاريخ تصنع على وفقها المذاهب والأديان والعقائد، بل إن الواقع يشهد أن عقيدة قوم حول مفهوم التاريخ هي التي تصنع صراعاتهم وحروبهم، كما هو قولهم قديمًا وحديثًا بعقيدة نهاية التاريخ، إذ أوجدت هذه العقيدة مفهوم إبطال العقائد، كما أفرزت فيهم الغرور بعدم النظر لعواقب أفعالهم، وقد حصل المكر الإلهي بهم بأسرع مما توقع خصومهم لا هم.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ دليلٌ لأهل الإسلام وعلمائه في التاريخ وكتابته، فهذه الآية وقوله تعالى في المؤمنون: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ علّمت المسلمين أن بقاء حوادث التاريخ حاضرة بين يدي الأجيال، هي مهمة إيمانية، فكما أنها سُنّة الله تعالى في كتابه، فهي كذلك مهمة عبيده، ولذلك كان هذا النشاط – وهو التاريخ – فعلًا مبكرًا في هذه الأُمَّة هو ذكره رواية مجردًا، ليتلقى الناس الخبر كما هو من لسان راويه دون دخول الآراء في الخبر والحدث، إذ رواية التاريخ هي عينها وسيلة رواية السُنّة النبوية مع اختلاف مراتب التوثيق فيها، فالاعتناء بالتاريخ ليس بدعًا من الأمر، ولا يجوز أن تتخذ مناهج دراسة من الآخرين، بل إن روايته ودراسته هي صناعةٌ إسلاميةٌ بحتة، وعملية سرقة التاريخ وتحليله من قِبَل الماديين والقوميين أفسدت التاريخ، وأفسدت عقائد الناس، ولذلك كان اهتمام الآخر بتاريخنا اهتمامًا مبكرًا، إذ أول طلائع المستشرقين وأفراخهم دعت إلى تضخيم الهوامش على الأصل، والعارض على نهر السياق، فضخمت جوانب الفتنة، وأبرزت الطوائف الضالة الهامشية، وكبرت حوادث المجون والخلاعة، حتى صار تاريخ أُمّتنا مجرد مزع لا يفتخر بها أهلها، وغيّبت الصحائف الأصلية البيضاء، وطمست معالمَ العابدين والعلماء والنبلاء.

كما حدث من آخرين وهم القوميون أن فرّغوا تاريخ الأُمَّة من أثر الإسلام، وكأن ما فيها من إنجاز وحضارة وإبداع هو مجرد حلقة في تطور الأُمَّة العربية، وما الإسلام إلا طورًا من أطوارها، تهضمه الأمة في داخلها وتستفيد منه، وتتجاوزه كذلك.

وآخرون مزّقوا الوجود العلمي للأُمَّة، فصنعوا منها جزرًا فكرية متضاربة، فهذه عقلية بيانية، وهذه عقلية غنوصية وأخرى مادية منطقية، في تحكم يضحك الثكلى، ثم يزيدون عليه أن جعلوا هذه الجزر الفكرية تأوي إلى اتجاهات جغرافية، فهذه مشرقية وأخرى مغربية، فغيب مفهوم الأُمَّة الواحدة، وهو المفهوم الذي يجمع هذه الجزر في مجالها الفِكري وفي وجودها الجغرافي، وهو الحقيقة التي كان يعيشها المسلمون، إذ تكاد تعجز أن تجد عالماً لم يكن خليطًا من هذه التصنيفات، كما تكاد تعجز أن تجد عالماً مات في المكان الذي ولد فيه.

وهكذا صار التاريخ من خلال القراءة الجاهلة له، وبسبب غياب القراءة القرآنية له سببًا لتأييد مذاهب الضلال والانحراف، ولذلك من مهمات المصلحين؛ الرد على هذه القراءات الجاهلة وبيان افترائها على الحقيقة. وهذا الأمر؛ وهو التأريخ، يكاد يغيب اليوم عن فعل أهل الإسلام، فالتاريخ المعاصر يكتبه الأعداء، والباحثون عن الحقائق والأحداث لا يكادون يعرفون، فرجال الإسلام متهمون، وتغلب عليهم أوصاف أهل الجاهلية، ومسيرة الحوادث التي يكتبها الطغاة وأعداء الأُمَّة تصاغ على وجه يُعَظم فيه الخائن والخبيث، ويُتهَم فيه العالِم، فهذا جانب مقفر في الحياة الإسلامية، وفي كل الأقطار، وعلى كل المستويات، وفي كل طبقات التاريخ المعاصر، مع أن فيه من الأحداث التي لا تقل قيمة عن تلك التي كتبها السابقون في كتبهم.

إنها مهمةٌ قرآنية تركها أهل الورّاقة وذلك لعظمتها وثقل حملها، كما أن رواية التاريخ أمانةٌ تعدل أمانة تبليغ الحق وقول كلمته، وهو الذي يبغضه الطغاة، لأنه يكشف الزيف والكذب، فالداخل في هذا الباب هو مع من عناهم رسول الله ﷺ بقوله: ((أَفْضَل الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ))، لأن رواية الحقائق تكشف سفالاتهم وسفالات آبائهم وطوائفهم وأحزابهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إرشادٌ قرآني في الفصل والاختيار، فإن التعقّل حكم قرآني في تحقيق الصواب بين المختلفات، ذلك لأن للعقل بداهات فطرية يقينية، وقد أقامها الله في نفوس الناس حجة وإعانة لهم في إدراك الصواب واجتناب الخطأ، وأحكام الفطرة عند أهل الإسلام يقينيةٌ قاطعة، وهي حججٌ شرعية يحصل بها الثواب والعقاب، ولكن جعل الله شرط الجزاء معلقًا على الرسل فقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾، وإنكار حقائق الفِطرة اليقينية إنكارٌ للشرع سواءٌ بسواء، لكن هذه الأحكام الفِطريّة، وهي قاسم مشترك في الأسوياء غير تلك التي يضعها الناس من عندهم ويزعمون أنها أحكام العقل التي تحكم على الشرع وتوجب تأويله،

فالعقل الفطري غير العقل الصناعي، إذ الأول وضعٌ إلهي في فطرة البشر، والثاني اكتسابٌ يكون فيه الصحيح والخطأ، ويطرأ عليه ما يطرأ على كل مكتسبٍ خارجي من دخول عوامل خارجة عن الفطرة كالبيئة والتلقين وضعف الملاحظة وفساد النتائج والتقليد.

هذا كله من جهة قيم العقل ومعاييره، أمّا من جهة ذاته فهو ليس معيارًا، ولا هو علمًا، بل هو عند أهل الإسلام مجرد غريزة، وتسمية العقل غريزة عند أهل الإسلام مأخوذٌ من عدم وجود مدحٍ له، فلا يوجد في الكتاب والسُنّة مدحٌ للعقل من حيث هو، إنما المدح للفعل؛ أي التعقّل، ومادته: «عقل» إنما تعني في الأصل المنع، ولذلك فالتعقّل هو إعمال المعاني الفطرية لمنع الزلل في السلوك، فكما أن المصيب في حكمه عاقل، فكذلك السليم في سلوكه، ولذلك يقول العوام عن صاحب الخُلق: "عاقل"، وهي تسمية صحيحة. ولعله من نافلة القول إن الشرع لم يأت بأمر على خلاف يقينيات العقول، لكنه أتى بما لا تدركه العقول؛ أي كنهه، ووجودها في القرآن إنما هو لمعانٍ أعظمها الابتلاء والامتحان، ومن المعلوم أن شاهد هذا قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. أمّا القول إن في البيان القرآني ما لا يتطابق مع مقررات العقل فهو قول باطل، وهو أساس الرد على الله والاستدارك عليه، ومنبت البدع والضلال، والرد عليه موجود في كتب أهل الإسلام ومؤلفاتهم فرحمهم الله ورضي عنهم.

والتعقّل يكون لاستخراج النتائج كما يكون لإدراك المعنى، وليس واحد منهما إقرارًا لمعنى سابق في النفس، إنما الأول إعمال للموازين والثاني إعمال للآلة، فالأول كما في هذه الآية والثاني كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهو معنى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِه لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، ولذلك فليس العقل علمًا، وجعل العقل مقابل النص هو خطأ على هذا المعنى، فلا مقابلة بينهما، أمّا المقررات الفِطريّة فهي وضع إلهي في هذه الآلة وهذه الغريزة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ مع قوله ﷺ: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) فدلَّ أن الفِطرة أصل الخلقة، وهي الاستواء، لكنها ليست علمًا.

وما يسميه أهل الأصول بالعقل شرطاً للتكليف فمعناه سلامة هذه الآلة وهذه الغريزة، ووجود الجنون مانع من عملها والاستفادة منها كغياب البصر عن العين، وغياب السمع عن الأذن، لا أن السمع والبصر علم، بل هما آلتان للتمييز والإدراك.

والقرآن الكريم لا يذُمّ غياب الآلة بغير تعدٍ بل يعذر المسلوب فقال ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وكذلك المجنون لا يذم بغياب آلة الإدراك إلا بالتعدي، أما المذموم فهو تعطيل الآلة أو إفسادها كما قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وقال ﷻ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وقال ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ۝ وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾، ولذلك لا تجد ذكرًا للعقل مفردًا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، وكل حديث ذكر في العقل فهو باطل.

أمّا نسبة التعقّل والفقه إلى القلب؛ ذلك لأن الاختيار بين الحق والباطل لا يكون بسبب اختيار العقل إنما يكون بسبب الهدى أو الهوى، ولو جهل المرء الحق ولم يعلمه لغيابه عنه لكان معذورًا عند الله، ولكن لَمّا كان سبب اختيار الحق هو معرفته ثم اتباعه، وسبب اختيار الباطل هو معرفة الحق ثم اجتنابه كان الحكم منسوبًا إلى مصدره، وهو القلب لأنه محط الإرادات، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وبهذا تعلم جهالة الزنادقة في هذه المسألة وكيف اتهموا القرآن بمقالة السوء والكذب، فسبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.[6]

مسيرة التاريخ البشري حالة تداول وتعاقب، فتقوم الأُمم والقرى على أعقاب أُمم وقرى أخرى، وتكون الذاهبة قد اقترفت الظلم فحقَّ عليها الزوال، لأنه أعظم ما يوهن وجودها ويدمّر مقومات حياتها، فإمّا أن يقع التنازع فيما بينهم فيهلك بعضهم بعضًا، وإمّا أن توهي قوتها فتغرى بها الأُمم الأخرى فتجتثها، وهذه المسيرة كما تعلمنا الآية تبين منع الفراغ، فإن الحضارات والأُمم لا تزول حتى يرثها أخرى، ولذلك لا ينزل الوهن في أُمَّة إلا كان يقابلها صعود أخرى لتحل محلها في ملء ما تنقص عنه الأُمَّة الحاضرة.

[6] الأنبياء: ١١-١٥

والقرآن في هذه الآية يُبَيّن لنا أن يد الله تعالى هي التي تحرك التاريخ الإنساني، فهو سبحانه الذي يقصم القرى، وهو الذي ينشئها، فحين تغرى أُمَّةٌ بأُمَّة فإنه هو الذي يجري هذا كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، وهذا الجريان القدري بفعل الإرادة الإلهية لا يكون إلا بسبب عمل الأُمم وذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، وذكر الظلم هنا لأنه أعظم ما يعجل به العقوبة، وهو أقوى الأسباب في هلاك الأُمم وزوالها.

وقوله تعالى: ﴿قَصَمْنَا﴾ هو بيان لضرب وإذهاب عامل القوة، والعمود القائم لها وبها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يضرب الأُمم في عمودها الفقري القائم بها، سواء كان من قوة أو من ثراء، وهما العماد المادي للحضارات والأُمم، فيبدأ الوهن فيضرب أسباب القوّة، ويبدأ الترف ينشر الغفلة في أبنائها، ويحطم إرادة الغزو والدفع، فيقع المرض الذي يؤدي إلى موتها ثم توزيع بقاياها في الأُمم التالية. وهذا «القصم» الإلهي لا يحدث إلا من خلال العوامل السُنَنيّة في التوهين والإضعاف، لكنه يبدو لأهله على صورة الفجأة للغفلة الحاكمة عليهم كما قال تعالى عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ فكان سقوطه على وجه الفجأة، وهي المعنى الذي تحمله كلمة: ﴿خَرَّ﴾ مع أن مقدمات الفعل قد أتى عليها زمن ودابة الأرض تأكل العصا.

وهذه الآية في هذه السورة عقب ذكر سُنَن الأنبياء مع أقوامهم إنما لتبيّن أن سُنّة التعاقب بين الأُمم أمر مطرد سواء كان الوارث خيرًا أم غير ذلك، فصعود الأُمم ثم زوالها جارٍ لا يتخلف، والناس في غفلة عنه ولا تقع لهم الصحوة إلا عند حلول الهلكة والزوال.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ فعند حدوث الغرق، وتبدأ أصوات الانهيار تعلو يبدأ أهلها بالرحيل عنها، والهروب إلى غيرها، وهو هروب متأخر لا يحصل به النجاة أبدًا، بل يبدأ الناس فيها بذوق الجوع والخوف كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي رأوا معالمه الأولى، وهي دليل على أن إيمان الناس عند حدوث آيات العذاب لا ينفع، وهذا في آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ

○ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ وهو دليل للحديث في عدم قبول إيمان الناس عند ظهور علامات الساعة الكبرى بدءًا بطلوع الشمس من مغربها. وهو عين إيمان فرعون لَمّا عاين العذاب فلم يقبل منه فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ○ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ○ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾. والأُمَّة مُجمعةٌ على عدم صحة إيمان فرعون إلا ما زعمه ابن عربي المكي الطائي في كتابه [الفتوحات المكيّة] حين نصر القول بإيمانه المنجي له في الآخرة، وخيرُ من فصّل في الرد عليه الشيخ الألوسي في تفسيره، مع أن الشيخ الألوسي رحمه الله مُعَظّم لابن عربي وينكر على من كفره.

وهذا الحكم استثنى الله عنه قوم يونس عليه السلام فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وهذا الاستثناء له سببه، والعلماء لهم مقالات في هذه الآية حتى قال بعضهم إن العذاب الذي كشف عنهم الدنيوي والآخروي لقوله تعالى في الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ○ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، فجعل في الآيتين – من سورة يونس والصافات – وصف الإيمان لهم وهو مانع من العذاب الأخروي يقينًا.

ويبقى السؤال: لِمَ استثناهم الله تعالى؟ والذي أظنه أن هذا لأمرين:
أولهما: عدم بلوغ الحجة مداها فيهم، فقد خرج يونس عليه السلام من بينهم خروجًا مبكرًا عوتب فيه كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ○ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ والله عز وجل يحب العذر.

فإن قال سائل: فإن كان الأمر كذلك فَلِمَ يقع عليهم العذاب ولم تبلغ الحجة مداها؟

فهَا هُنا يأتي الأمر الثاني: وهو أن العذاب لم تأتِ معالمه، ولم يروه، بل الذي وقع أنهم لَمّا فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة كما قال ذلك قَتادة ﷺ تعالى. وهي دليل أن الإصلاح قبل القصم يحقق المراد، ويمنع الهلاك، ويحصل به العصمة من الهلاك.

وقوله تعالى: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ دليلٌ لِمَا ذكرنا من أن القرى تهلك بسبب الترف، وأنه هو باطن الظلم وقرينه، وهي دليل على أن الترف يكون حاضرًا عند نزول العذاب، ولا يسلب قبله، وهذا هو حال تاريخ الأُمَم الذاهبة، فإن من آيات الله تعالى في إهلاكها أن يقع عليها العذاب وهي في حال الترف، فلما أهلك الله كسرى ذكر الرواة من أمر الذهب والجواهر والمتاع الذي حمله الشيء الكثير، وذكروا من أمر القصور والبذخ والرياش التي ورثها الصحابة ﷺ ما يُحيّر العقول، فقد أهلكهم الله تعالى في ثروتهم كما قال عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ وقال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾، وهذا من أشدِّ العذاب، وهو أن يؤخذ المرء على هذا الحال من النعمة والثراء.

ثمّ إن هذا هو ما أصاب هذه الأُمَّة عند غلبة الأعداء عليها، فإنهم دخلوا عليهم وهم في ثرائهم كما وقع من سقوط الأندلس، وكما كان حال القرى في فلسطين عند دخول اليهود عليها، فالأُمم لا تسقط بزوال الترف عنها، وإنما تسقط وهي متلبسة فيه لاهية عما يحدث لها.

ولعلَّ هذا الأمر هو ما يغريهم بالبقاء، فإن مثل هؤلاء الغافلين يعميهم حبّ أموالهم ورياشهم عن مفارقتها حتى وهم يرون جيوش أعدائهم تحل في ديارهم، وتنتهك أعراضهم، وهذا المعنى هو الذي جعل بعض أهل العلم من المفسرين يقول عن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ إنما هو استهزاء بهم، وهو مروي عن قَتادة ﷺ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ هو دليل على بقاء المساكن عند دمار هذه القرى كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾، فأشار سبحانه إلى مساكنهم التي يراها اللاحق كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وهذه الآيات الدالة على خراب القرى، مع آية التعاقب في قوله: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يدلان على أن الأُمم الوارثة لها أماكن جغرافية أخرى غير السابقة، فهي في حال صعودها يكون لها وجودٌ جغرافيٌّ آخر خارج هذه

الأُمَّة الهاوية، وهذا واقع التاريخ، فإن تداول مراكز القوى في التاريخ البشري للأُمَّة واضحة فيه، ولعل من غرائب هذا الأمر أن الأُمم الصاعدة إنما تنشأ في الهوامش والأطراف حتى يحصل لها المنعة لحظة التكوّن الأولى، وهي التي تمنع سحقها وإزالتها.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا﴾ ليس أمرًا قَدَريًا قاهرًا، بل هو أمر سُنَني كما أشير لذلك، فإنهم مع رؤيتهم للعذاب واستجابتهم الأولى في الهروب إلا أنهم بعد ذلك لا يلبثون أن يرجعوا إلى مساكنهم وترفهم سعارًا منهم، ونهمة في حب اللهو والترف، وحينها يقع العذاب.

والمرء حين يقرأ قصص التاريخ في هذا الباب ليعجب مما يقع للأُمم من الاستسلام لأقدارهم من عذاب أعدائهم عليهم، حتى إنهم ليرفضون الخروج والهرب، ومن قرأ حال المسلمين في بغداد عند دخول التتار، واستسلامهم لسلاح وقتل أعدائهم دون محاولة فرار ليعلم حقيقة هذه الآية، ولعل تصوير ابن الأثير لبعض الحوادث ليكشف للمرء ذلك جليًا.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ تَقَدَّم قول قَتادة ﵀ أنه على معنى الاستهزاء بهم، وقال غيره: لعلكم تفقهون، وفقههم يوم العذاب لا يرد البأس والسُنّة.

وهذه الآيات من قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ لتدل أن العقل البشري في الاعتبار ليس تراكميًا، واللاحق لا يستفيد من السابق، فقول زنادقة العصر بتطور الإنسان في معارفه الاجتماعية والقيمية قول كاذب، فهم وإن أرادوا به الرد على أحكام الشريعة التي نزل بها القرآن، وادعاءهم أن الزمان قد تجاوزها، وأن الإنسان ترقى في تشريعاته وقيمه، إلا أن واقعهم يكذبهم، فالفحشاء البشرية التي مارستها الأُمم السابقة هي عينها التي يمارسها المعاصرون، وما من شريعةٍ يزعمون أنها إنتاجٌ حضاريٌّ معاصر إلا وقد اقترفتها أُمَّةٌ سابقة، وحذّر منها الأنبياء وأتباعهم، ولذلك قال ﷻ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، فالبشرية لا تتطور في معارفها الاجتماعية والقيمية، ولذلك يعودون إلى الشرك في كل طور، والعالم يرى هذا الإنسان الذي سخر سُنَن الوجود التكوينية لا يهتدي وهو يعبد البقرة، ويسأل الأموات، ويستغيث بالصليب، ويعلق حدوة الحصان أمام بيته ليرد العين عنه، وكل تشريعاتهم هي انتكاسات خلقية، بل قد عادوا في العلاقات الاجتماعية والأسرية إلى أدنى من مراتب الخنازير، فاستحلوا الزنا واللواط، وشرّعوا الربا وهي أعظم المعاصي الاجتماعية والاقتصادية، وهم مع ذلك كله يزعمون أنهم يبنون حضارة الإنسان الراقي الرشيد.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، هذه مقالة أهل القرى حين نزول العذاب، كما قال سبحانه في الأعراف: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. والقرآن بَيّن أن هذه توبةً كاذبة، وذلك بما وقع من فرعون وقومه فإنهم قالوا لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ وهذا يقع من الناس وأفرادهم، فإنك تجدهم في لحظة الابتلاء يعاهدون الله على التقوى والصلاح، فإن ذهب البلاء عادوا إلى ما كانوا فيه من الغفلة والمعصية، إذ هذا شأن الإنسان ونسيانه. وفي هذه الآية دليلٌ على أن باطن الإنسان يعلم الحق ولكنه يحيد عنه بسبب الغفلة والغرور، والله عز وجل يقيم في النفس البشرية معالم الحق حتى يكون شاهده في ذلك نفس الإنسان وباطنه، وهذا الاعتراف هنا في هذه الدنيا هو مقدمة الاعتراف يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وقوله سبحانه في الأعراف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

وهذه الكلمة: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هي كلمتهم التي يرددونها منذ بزوغ أمر العذاب ورؤية مقدماته حتى يتم عليهم بجلجله فلا يبقى لهم قوة ولا عماد كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾.

وقد يقع المكر الإلهي بأقوام بأن لا يروا العذاب على حقيقته، بل يخدعون به مكرًا بهم وإنزالًا له على صورة الفجأة التي تؤلمهم كما قال الله عن قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وفي واقع البشرية اليوم في سقوط الأُمم والحضارات المكّنة نجد أن بوادر العذاب والهلكة ما أن تقع حتى يبدأ الصراخ بمعنى هذه الكلمات: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، حيث يشرع الناس بتعداد جرائم حكامهم، وجرائم المترفين فيهم، فصدور هذه الكلمات دليل على بداية الوهن وسقوط القوى، وهي مبشر لأهل

الإيمان أن عوامل الهلكة قد بدأت في النخر حتى يتم القصم والسقوط. والله ﷻ حين يضرب هذه المعاني والأمثال لأُمَّة محمد ﷺ وهم يعلمون أن الاستئصال سُنّة قد مضت، وأمّا اليوم فهو التداول والتعاقب؛ إنما يريد منهم أن يعلموا أن المعاني التي حصلت في الأمم السابقة هي عينها التي ستحدث معهم، لكن على وجه آخر، والسُنَن ستبقى ماضية في إعمال يد الله في إزالة الأُمم وذهابها، فالله الذي أهلك الأُمم السابقة وأزالها من الوجود بالكلية لهو قادر جلَّ في علاه على إذهاب قوتها مع بقاء هياكلها وأبدانها، ومن تفكر في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ وهي تضرب للمؤمنين وللكافرين على السواء لإظهار قدرة الله تعالى في العصاة والظالمين ليعلم أن مجري هذا الفعل على أصحاب الفيل قادر على أن يجري ما هو أدنى منه على كل جيش ظالم، فمعاني الفعل الرباني في حادثة الفيل هي عين المعنى في حماية رسوله ﷺ في الهجرة، وهي عين المعنى في هزيمة قريش في بدر والخندق، وهذا هو فهم الصحابة لهذه الأمثال والقصص والمعاني، إذ العبرة لا تتحقق بتكرار الشيء ولكن بتكرار معناه، حيث يفهم قارئ القرآن أن الإيمان وشرائعه هي علة بقاء الأُمم وزوالها، وأن يد الله تعالى في إزالة الأُمم لا تتوقف ما وجدت العلل التي صارت في الأُمم السابقة، فقوله ﷻ: ﴿حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ لم يتحقق في كل قريش، وإن حصل معناه في بدر حيث صار كبراء القوم وعليته إلى هذا المصير والمعنى من الحصد، ولذلك فإن بعض أهل العلم بالتفسير جعلوا هذا اللفظ: ﴿حَصِيدًا﴾ دالًا أن ما وقع على هذه القرى المذكورة هنا إنما هو القتل بالسيف كما ذكر ذلك الطبري رحمه الله عن مجاهد: "وإذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به." قال: "إنهم كانوا أهل حصون، وإن الله بعث عليهم بختنصر، فبعث إليهم جيشًا فقتلهم بالسيف، وقتلوا نبيًا لهم فحُصِدوا بالسيف وذلك قوله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ بالسيف." وعلى هذا القول فإن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي قدوم أعدائهم عليهم.

وهذه الآيات دليلٌ على أن الاستعداد يوم الغارة ليس بشيء، وأن رد القضاء في يومه غير نافع، فإن لم يكن هناك استعداد له، ومقدمات زمنية في التحضير فإن الفزع يوم المعمعة إن لم يكن على بصيرة سابقة عليه فإنه لن يجدي، فلا يقولن أحد لِمَ لم ينفع الدعاء عند حدوث العذاب، أو يقول: لِمَ لم ينفع الدفع عند نزول الأعداء، فهذه أقوال قوم لا يعلمون سُنّة الله في الرد والدفع ورفع العذاب.

وأمّا قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ فهذا إنما هو في تقلب

الأحوال في الأمم قبل نزول القاصمة الخاتمة، ونص الآية يدل على هذا، فإن الأُمم قبل حدوث القاصمة الخاتمة يقلبها الله في البلاء لحظات بين أيام الترف، وهي لحظات لا تصنع لهم هداية، ثم يكون ما قاله ﷻ بعد هذا التقلب: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

ويشرح هذا المعنى آيات سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله ﷻ: ﴿عَفَوْا﴾ أي كثرت أعدادهم وأموالهم.

فهذا التقلّب قبل الخاتمة، وهو تقلب لا يصنع فيهم هداية ولا عظة ولا توبة، وواقع الأُمم المعاصرة دليل لهذه الآيات، فإن الأمم الكافرة قد وقع فيها بأساء وضراء، وقد خرجوا منها على الحال الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ وكان هذا الخروج من الأزمات مَكرًا إلهيًا بهم أن هذا جريان سُنَني على أنظمتهم، وأن كل هزة فيهم سيكون هذا أمرها، حيث يخرجون منها بحسنات وكثرة عدد وعدة وثراء، وهذا كله تمهيد للعاقبة الخاتمة التي يحصل بها الإزالة والاستبدال والوراثة. وهذه السُنَن الإلهية بيّنة في تاريخ الأُمم قديمًا، وهي في كل عصر، وهي في زماننا جلية واضحة، يعيشها الناس، والغفلة هي الغفلة، والسُنَن هي السُنَن، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهذا التداول بين السيئة والحسنة في الأُمم، ثم تفسير هذه الأُمم أن هذا مجرد اضطراب كوني لا علاقة له بالإيمان وتشريعاته، ولا هو دليل على فساد ما هم فيه، بل هم يجعلون هذا التعاقب الذي يورث سيئاتهم الحسنات دليلًا على صلاحية أنظمتهم، وعلى دوامها، وعلى قدرتها في تجاوز الهزات والكوارث هو من المكر الإلهي بهم، ومن الإرشاد الرباني للمؤمنين أن العاقبة للإيمان وأعماله، وأن الوراثة لهم إن عملوا بعمل الأنبياء في بناء الأُمَّة حتى يقع الميراث في أيديهم، فتلك هي مشكلة المسلمين اليوم، وهو عدم البناء لتحقق الوراثة عند سقوط الأُمم، بل هم في غفلةٍ عن بناء القوة التي تستغل الحدث لجني ثماره إلى جرين الإيمان وأهله، ولولا ما يفعله بعض المهتدين من هذا العمل؛ وهو البناء لتحقق الوراثة بالسقوط السُنَني للأُمم الجاهلة الظالمة؛ لما تحقق إيمان وارث في كل الأرض، ولكنها رحمة الله تعالى بوجود عصابات الإيمان التي تنتظر الوراثة، مع خذلان الناس لها وجهلهم في قيمة ما هم فيه من الرباط والإعداد، فإن كل منطقة تخلو من هذه العصابة المؤمنة المجاهدة لو سقطت وقصمت قرية ظالمة فلن تجد

وارثها أهل الإيمان، بل هي طوائف أخرى، بخلاف القرى التي يكرمها الله بوجود هذه العصابة، فإنها وإن تبدو في ظروف منها أنها لا شيء، وأن تأثيرها غير ظاهر، إلا أنه عند سقوط الممكّن الظالم تجد حضورًا لهذه الطائفة، وتكون مستعدة للوراثة وتحقيق التمكين الإيماني.

ولذلك فلا تتبع جهالات بعضهم حين لا ينظر إلا إلى أسفل قدميه، وتشغله اللحظة الراهنة عن رؤية القَدَر الإلهي القادم، فيجهل ويسأل: ما قيمة هؤلاء وما أهمية وجودهم وأين تأثيرهم؟ ولا يُبصر أن صبرهم على ما هم فيه، وقيامهم بأمر الله لحظة الاستضعاف هي التي تحقق لهم الوراثة حين يأتي الوعد الإلهي بقصم القرى الظالمة وحصد أهلها.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ يدل على أن هناك زمنًا بين ظهور علائم العذاب وبين تحقق مقصده التام بالحصد والإزالة، وذلك لجريان السُنّة بعدم وجود الطفرات في الوجود، وإنما يظن الناس وجود الطفرات لأنهم لا ينظرون إلى المقدمات المؤثرة، فيبدو لهم الحدث وكأن لا مقدمات له، ثمّ إن القرآن يبين أن التغيير الاجتماعي لا يدري الناس زمانه، فإنه حتى لو حدثت مقدماته إلا أنه لا يمكن التنبؤ بزمانه، ولذلك يقول الله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وقال عنه ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

فمع علم النبي ﷺ بسُنَن الوجود كما علمه إياها القرآن إلا أن كيفية جريان هذه السُنّة على وجه محدد لا يعلمه إلا الله، فقد يهتدي الضال، وقد يرتد المهتدي، فالإنسان عنصر التغيير وهو ليس رقمًا ثابتًا في معادلة التغيير، كما هو شأن العناصر المادية في التفاعل الكيمياوي، ومن قرأ سيرة التغييرات الكبرى في التاريخ المعاصر علم أن أصحابها لم يكونوا على علم بوقت وقوعها ولا بمكانه ولا بكيفية مساره.

ولهذا فالمسلم وجوده في هذه المعادلة هو ثباته على الطريق كما قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، فهذه عمله البشري، وأما غير ذلك فهو فعل الله تعالى وقدره، وبهذا يجتمع بشرية الدعوة مع ربانيتها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[٧]

هذه طريقة القرآن في ربط القَدَري بالشرعي، وربط التكوين ومقصده بالشرعي، وقد تقدم كيف جعل الله تعالى خلق السموات والأرض التكويني من أجل الآخرة، وفي مواطن عدة في كتاب الله تعالى جعل الله التدافع بين الحق والباطل مقصدًا من مقاصد التكوين؛ ففي سورة ق – وهي أول المفصل – يقول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

فانظر كيف ذكر الله تعالى إهلاك الظالمين من أهل البطش ثم ذكر خلقه السموات والأرض في ستة أيام دون تعب أو رهق، بل بقوة مطلقة منه جل في علاه، وجعل هذا مقدمة لقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾، فهكذا جعل الله تعالى القدر التكويني دليلًا على الأمر التشريعي، كما جعله كذلك دليل قدرته على إجراء سُنَن العذاب على الظالمين.

وفي سورة الذاريات، وهي بعد سورة ق، بعد أن ذكر الله تعالى ما جرى للأُمم من هلاك بسبب معصيتها الرسل، فذكر قوم لوط وفرعون وقومه وعاد وثمود وقوم نوح وذلك من قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

فقال ﷻ بعد هذا الإخبار بسُنَن الأمم وهلاكهم بسبب المعاصي: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۝ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وهذا كله من أخبار السُنَن الاجتماعية والتكوين القَدَري هو للجواب على سؤال الخراصين وذلك في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾. فهذا أمر كثير في القرآن في الاستدلال على الإيمان وأخباره وسُنَنه بالتكوين والخلق، وهَهُنا في سورة الأنبياء جعل أمر سُنَن الإيمان وأثره في الوجود هو على الوجود، وبغير هذا يكون التكوين باطلًا.

---

[٧] الأنبياء: ١٦-١٨

فالتدافع بين البشر، والوراثة بين الأُمم، وأثر الإيمان في ذلك كله وذلك بنصر الإيمان وأهله، وإهلاك الكفر وزمرته هو الذي يمنع عبثية الوجود، لأنه لم يخلق هذا الوجود من أجل الفراغ؛ أي أن يأكل الناس فيه ويشربوا ويتفاسدوا، أو كما يقول الجاهلون لعمارة الأرض، ويقصدون تحقيق المزيد من الترف والبذخ والرفاهية بلا دين ولا قيم.

فأن ينتهي أمر الإنسان على هذا الوجه يعني أنه بهيمة ونَعَم، لا خلقًا مكرمًا ليحقق العبودية والطاعة لرب العالمين، وحين يجعل الله قومًا مؤمنين وآخرين مشركين، ثم ينصب بينهم العداوة والتدافع ليعلم الله كما قال سبحانه: ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وليعلم سبحانه: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يكون للكون مَقصَدٌ ربّانيٌّ جليل.

وحين يجعل الجاهلون أمر الحياة مجرد زيادة المتعة والرفاهية، ويغيبون معالم الإيمان في التدافع والحب والبراء، يصبح الوجود مجرد لهو وعبث لا قيمة له، يأكل الناس فيه ويلهون ثم لا شيء، إذ أن هذا الوجود على هذا المعنى لا يستحق جنة ولا نار، كما لا ضرورة فيه لبعث الرسل وإنزال الكتب، ولا أهمية لشرائع الله وأحكامه. فالوجود يكتسب معناه حين يحقق أهله فيه مقصد الله منه، والمقصد منه هو خاتمة الإنسان في الجنان أو النيران، ووسيلة ذلك العمل بطاعته، فيبتلى المؤمن بالكافر كما قال الله لرسوله ﷺ في الحديث القدسي: إِنِّي مُبْتَلِيك وَمُبْتَلٍ بِك، فيمتحن الإيمان، ويصطف الناس فيه على جنبيه كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ فيحرض الله المؤمنين على الكافرين كما قال الله لرسوله: ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ ويقول: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ فيرى الله الصادق من الكاذب، وتقوم بذلك أسواق الحق، فيفرح الله تعالى، ويتحقق مقصده ﷻ في هذا الوجود بوجود الشهداء كما قال سبحانه: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾، وبوجود المنافقين: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وهكذا تسري معاني الإيمان رافعة حجب الجهالة بأن الوجود الإنساني للأكل والشرب ثم: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

وهؤلاء الذين لا يرون للإيمان أثرًا إلا في عمارة الدنيا فقط، فهو عندهم الذي يؤاخي بين المؤمن والكافر، وهو الذي يجمع البشرية بكل تناقضاتها في صعيد واحد، وهو أنهم بشر، فالإنسانية هي التي تجمعهم، وأما النزاع والتدافع فلا يكون إلا على حقوق الدنيا فقط، لا على حقوق الله والآخرة، فهؤلاء هم الجاهلون، وهم الكاذبون على الله، والكاذبون على يوم القيامة، لأنهم جعلوا لله مثل السوء كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾، فالله لا يجوز عندهم أن يتنازع الناس فيه حتى لو كفر به كافر، أو سبه ساب، أو رد على رسله، أو كذب بكتبه، لكن درهم مال لأحدهم يستحق أن يقيم له الحروب، وأن يصطف الناس من أجله لسفك الدماء وإزهاق الأرواح، ويأتي الجاهل الأفاك من هؤلاء ليقول مستدلًا بمقالته بمقالة كافر وهو عبد المطلب: "أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه"، فيجعل دين الجاهلية حاكمًا على دين مُحَمَّد ﷺ الذي لم يكن ينتصر لنفسه في شيء، بل كان غضبه وفرحه وحربه وسلمه لله تعالى.

في هذه الآيات بعد أن بَيّن الله إهلاك القرى الكافرة نفى عن نفسه ﷻ فعل اللعب في خلق السموات والأرض، فيكون إذًا مقصد الوجود هو إجراء حركة الوجود بالبقاء والزوال على أساس الإيمان، فالخلق إنما وجد على وجه الجد، ولا يكون كذلك إلا أن يكون الإيمان هو علة البقاء، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: ((لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّه))، إذ بانتهاء الإيمان من قلوب الناس يعني انتهاء مقصد الوجود، وهذا الانتهاء يعني أن يصبح الناس مجرد دواب لا يحققون رضى الله تعالى وفرحه، ولا يتحقق فيهم قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، فتعذيب الله الكافرين في الدنيا بسبب كفرهم، وابتلاء المؤمنين وصبرهم في ميدان المدافعة يمنع عبثية الوجود، ولذلك فقيام المؤمنون بأمر الله يعني تحقق أعظم مقاصد الخلق كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ولأجل هذا المعنى قال الله عقب هذه الآيات: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ فالتدافع بين الحق والباطل، ثم غلبة الحق وانتصاره لما فيه من قوة ذاتية يمنع معاني الشر التي تطرأ على النفوس الجاهلية أن الحياة الدنيا مجرد لهو ولعب.

هذا هو مقصد الوجود الأول، وهو تحقق التدافع بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر، ولهذا المقصد أنزلتالكتب، وأرسلت الرسل، وقامت أقدار الأسواق من الابتلاء التي هي عنوان الوجود منذ أول يوم فيه وإلى قيام الساعة، ثم على وفق هذا الاختيار الإنساني بين صف الإيمان وصف الكفر تكون العاقبة في الآخرة، حيث الرحمة والنعمة والرضوان، أو الغضب والسخط والنيران.

وغياب التدافع على أساس الإيمان، يعني غياب التمايز، وانتهاء البلاء، ومحو شرائع الرحمن، ثمّ المصير إلى كون الناس حالة واحدة، وحيث لا رسول بعد مُحَمَّد ﷺ فيكون نهاية الوجود لانتهاء مقاصد الله تعالى فيه.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾، هو منع عبثية الحياة، وتحولها إلى لهو ولعب، ولذلك أرسل الله الرسل ليقذفوا بالحق باطل الجاهلية، وأمرهم وأتباعهم بالصبر، وحضهم على مواجهتها بما في وسعهم حتى لو بالكلمات، ومن خلال هذا الصبر وهذه المواجهة يتحقق النصر الإلهي لهم بإهلاك عدوهم ونجاتهم بما معهم من إيمان وصبر، فتسري الروح في الوجود، وتصبح للحياة معنى ربانيًا تستحق أن تذكر وتشكر، فتتنزل الملائكة بالروح والصبر والتأييد، كما تنزل بالعذاب والتدمير والترويع، فيفرح الرب لفعل المؤمن، كما يغضب لفعل الكافر، ويكون بذلك للجنة أهل كما للنار أهل.

فوجود قذائف الحق التي تدفع الباطل هي التي تمنع الباطل من الظهور والغلبة والإستمرار، وهي قذائف العلم الرباني، وقذائف الأمر التكويني، وقذائف الطوائف المجاهدة، إذ لولا هي لتحقق ما قاله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، ولولا قذائف الحق لكان الأمر كما قال ﷻ: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

فقذائف الحق مع قلتها هي التي تمنع إهلاك القرى، وقذائف الحق لا تكون كذلك إلا بأن تفرق بين مؤمن وكافر، وبين مهتد وضال، وبين صالح ومفسد، وهي بجلائها هذا، وبوضوحها في عدم الخلط بين مفاهيم الإيمان والكفر، ولا بين طوائف الإيمان وطوائف الكفر يتحقق لها مقصدها في قوله تعالى: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾، وحين يغيب عنها الحق، وذلك باختلاط الحق والباطل، والظلمة والنور، والهدى والهوى فإن مقصدها يضعف أو يزول، ولا يكون بهذا نصر جلي، ولا هزيمة جلية، بل يعيش الناس في كنف الظلمة أو ما يشبهها، كما لا يقع الوعد الإلهي بالنصر والتأييد.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ يعني أن الحق قذيفة، فهو لا يتسلل خجلًا، ولا يأتي مداهنًا، ولا يناور خبثًا، بل هو نور يذهب الظلمة، وحين يأتي إنما يأتي صدعًا كما قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، وهو بقوته إنما يأتي بقذف الله تعالى له، فهو قذيفة الله ضد الباطل، وبهذا الصدع والقذف يتحقق زوال الباطل فيدفع، والدفع هو وصول الشجة إلى دماغ المضروب، وإن كانت كذلك أذهبته، لأنها تصل إلى عمقه وقراره، وكذلك هو الحق، وعمله الذي يلائم قذف الله له أن يذهب روح الباطل، ويزهق روحه، لا أن يعايشه ويساكنه، ولا أن يداهنه وينافقه، فهذه علاقة الحق مع الباطل علمًا وعملًا ووجودًا.

والحق في الوجود إنما هو رجلٌ وأُمَّة، وجماعةٌ وفئة، كما أن الباطل كذلك، فحين يقذف الله الحق على الباطل إنما يعني أن يرسل الرسل ليواجهوا رجال الباطل، ويبعث البعوث ليقاتلوا عصائب الكفر كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾، إذ الصراع بين قذائف الحق وركام الجاهلية ليس حرب كلمات، ولا مناظرات أفواه ثم يصير كل قوم إلى فئتهم، فإن أهل الحق لو فعلوا هذا فإن الباطل لن يرضاه كما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، فالنجاسة لا تقبل الطهر، حتى ولو جهل أهل الإيمان هذا كما هو حال أهل عصرنا، وإن من سُنّة الله تعالى أن يقيم بين الحق والباطل بغضًا وكراهية لا يقبل أحدهما بالآخر، وأمّا الرضى فلن يكون إلا كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وكما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

إذًا هي علاقةٌ بين قذيفة الحق التي تشج الباطل حتى نهايته وتزهق روحه، وحين يبقى فيه شيء من الروح يعني أن الحق لم ينجز كل مهمته، وسيدفع عنه هذا الخطأ دمًا وألماً وحسرة، وهذا ما وقع في بعض حلقات التاريخ الإسلامي، حين رضي التعايش مع الباطل انخداعًا بدعوته للتسامح، واستجابة للأكاذيب والنفاق، فما أن حانت الفرصة لباطل حتى أعمل عمله، وامتشق سيف باطله فأهلك الحرب والنسل، وأفسد العباد والبلاد، ولعل أعظم جناية وقع فيها المسلمون المعاصرون هي ما تُسمّى بالتحالفات، حيث انخدعوا بالشعارات ثم استحالت عليهم عذابًا وألماً، وسجونًا وقتلًا. فالحق التام يعني أن ينجز كل مهمته، وهي ازهاق روح الباطل، فهذه علامة الحق، وهي الحاكمة عليه، وهذه المهمة هي التي تجعل أهل الحق أكثر الناس بلاءً، لأن هذه المهمة لا يقوى عليها إلا من حمل الحق بلا مداهنة، وقال كلمته كما قال الأنبياء في هذه السورة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، أو كقولهم كما في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وأمّا غير الأنبياء وورّاثهم فإنهم حين يرضون بالمساكنة والمشاركة؛ أي المداهنة، فإنهم ليسوا قذيفة الحق، وليسوا هم أهل البلاء الذين يتحقق بهم النصر والتأييد، وطول الطريق هذا، ثم عدم الوصول إلى أهداف الإيمان بهزيمة الباطل وتحقق النصر للحق إنما سببه إفراغ الحق عن مهمته، وقبوله المسح على الرؤوس بدل شجها، وبمحاولة حملة الدين التوفيق بين شريعة الرحمن وشريعة الجاهلية، ولذلك طالت الطريق، وامتنع نزول النصر مع الكثرة من المنتسبين للدين والعمل له، وأمّا الطائفة المنصورة فهي نخبة قد اقتصر عملها على إقامة الحجة، وتحقيق انتصارات جزئية هنا وهناك تعليمًا للناس أن هذا هو الطريق، وأن هذا هو السبيل، وحين تدخل الأُمَّة في سبيلها يكون النصر، ويتحقق إزهاق الباطل الذي يرجوه الناس منذ زمن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ما يناسب سياق الآيات في الوصف الذي يستحق الويل والتكذيب هو قولهم: إن الله خلق الكون عبثًا، وهذا القول يدخل فيه كل معاني الباطل التي تقدم ذكرها، وأعظمها ملائمة لهذا السياق هو إفراغ الحق عن معناه، ونزع التدافع بين الإيمان والكفر، وتفسير حركة الوجود بلا علة الإيمان وفاعليته فيه، فإن هذا هو الوصف الباطل الذي نسبوه لله تعالى.

ومن تفكر في هذا علم أن قول الجاهلين أن الإيمان يجمع ولا يفرق، أو أنه يمنع التدافع إنما هو قول فاسد وأعظم ما فيه اتهام لله تعالى في حكمة الوجود، لأن مؤدّاه إبطال معنى إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أن عاقبته إلغاء الجنة والنار، إذ لا ضرورة لحسنة ولا سيئة، كما أن فيه تجريد الإيمان عن الابتلاء، وبه؛ أي التجريد يتم تعطيل الإيمان من النصر والتمكين.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[8]

معنى هذه الآيات في هذا السياق هو المعنى الذي رد الله تعالى فيه على الملائكة في الحوار الذي جرى عندما أخبر الله تعالى ملائكته بخلق آدم فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فالملائكة عليهم السلام لم يعلموا ابتداءً حكمة الرب في وجود هذا الإنسان المريد المختار، وهم لعلمهم بربهم يعلمون أن الله يحب الحمد والذكر، كما أنه يحب إخبات وتسبيح المخلوقات لله لأنه ﷻ العزيز المتكبر كما في الحديث القدسي: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي. وهم؛ أي الملائكة يقومون بهذا على حال واحد لا يتخلف كما قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وقد خفي عليهم حكمة خلق الإنسان المريد المختار، حيث يقع في الوجود الإنساني العابد الذاكر المسبّح المطيع، ويقع فيه الغافل العاصي المعرض، ولهذا السوق ترسل الرسل وتنزل الكتب، ولعلة الإيمان أو غيابه تسير أقدار الوجود البشري كله، ثم تكون العاقبة بعد ذلك في جنان خالدين فيها أبدًا أو في نار خالدين فيها أبدًا.

هذا المعنى من وجود مؤمنٍ وكافر، وما يقع بينهما من تدافع، فيصبر المؤمن، ويثبت، ويبذل نفسه وروحه وماله وجسده في سبيل الله فيفرح الرب ويرضى ويضحك، ويكفر الآخر فيظلم ويغفل ثم يقع به الهلاك لوقوع غضب الله

[8] الأنبياء: ١٩-٢٠

تعالى، فتتحقق بهذا الوجود وقائع أسمائه وصفاته، فإنها وإن كانت لا بداية لها، فالله ﷻ الأول الذي لا شيء قبله، وهي؛ أي صفاته كذلك، لكن الأمر أن تتحقق معانيها من خلال هذا الإفتراق الإنساني حول الإيمان، فيقع اسم الله المنتقم، كما يقع اسمه الرحمن الرحيم، وكذا أسماؤه الغفار كما صفاته من فرح وضحك وغضب، وغير ذلك من أسماء وصفات يذكرها الله تعالى في كتابه فواصل الآيات القرآنية عقب خلقه وأمره جل في علاه يعلمها أهل العلم بالقرآن، ويعلمون مناسبتها لما تقدم من ذكر الأمر أو الخلق.

هذا الافتراق بين مؤمنٍ وكافر ثم ما يجري الله تعالى لهذا الأمر من شرائع، وما يفعله من أقدار هو مقصد الوجود، وهو الذي يمنع عبثية الوجود وجريانه على معنى اللهو واللعب، ويخلو هذا المعنى من الإفتراق وما يترتب عليه من شرائع وأقدار فإن الله ﷻ غني عنه، فإنه ﷻ عنده ما ذكره في هذه الآيات، وهو ما ذكرته الملائكة عند استفسارها عن المعنى من ربها ﷻ فقال جلَّ في علاه: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فالله ﷻ يحب زجل الملائكة بالتسبيح والتقديس، ويحب سجودهم وركوعهم وطاعتهم بلا معصية قط، لكن هناك من المحبوبات له ﷻ لا تتحقق في خلقتهم التي هم عليها، فإن الله ﷻ يحب توبة العاصي، ويحب استغاثة الملهوف، وبكاء السائل والتائب، كما يحب أن يتشحط المرء في دمه في سبيل دينه، كما يحب كلمة الحق عند سلطان جائر، كما يحب صبر المبتلى رجاء الأجر ودخول الجنة، وغير ذلك مما شرّعه الله تعالى من الشرائع التي تتلاءم مع خلقة الإنسان على هذا الوجه من الاختيار، وهي أمور لا تتحقق مع خلقة الملائكة عليهم السلام، وهذه كما تراها وما في معناها إنما تقع بسبب التدافع بين الحسنة والسيئة، وبين الطاعة والمعصية، وبين الغفلة والإنابة، وبين الحق والباطل، وبين حب الآخرة وحب الدنيا، وحين يخلو الوجود من هذا يعني انتهاء مقصده كما في الحديث: ((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُم))، وهو يُبَيّن أن جريان الوجود على معنى واحد بلا تدافع لا يجعل له معنى، فإن الله ﷻ هذا محبوبه منه، وأمّا محبوبه بأن يحمد ويسبح ويقدس بلا مدافعة فهو حال تحقق مع الملائكة عليهم السلام كما أخبر جلَّ في علاه.

هذا أمر، وآخر أن هذا الورود بعد آيات نفي اللهو واللعب عن فعل الرب يعني أن كل أمر غير هذا المذكور في هاتين الآيتين من العبادة والتسبيح إنما هو لهو من فعل الإنسان، والله لا يخلق خلقًا إلا لعبادته، فكما أنه خلق خلقًا من الملائكة يعبدونه فكذلك ما خلق في الأرض من الإنسان إلا ليعبدونه، ولذلك يقول النبي ﷺ: ((الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ))، فالله لا يخلق خلقًا لمجرد حياة اللهو لهذا المخلوق،

والخلق على هذا المعنى كذلك هو لهو ولعبٌ كما لا يخلقه من أجل معصية بلا إنابة فهذا خلق على جهة اللهو والله ﷻ القدوس عن فعل ذلك، فإذًا لم يخلق الله خلقًا إلا لعبادته، أي تسبيحه وذكره وخضيته وتقديسه وما في معنى ذلك، فالملائكة تقوم به على وجه والإنسان الصالح يقوم به على وجه آخر كما تقدم، فإن فقهت هذا علمت أن قول القائل إن الله خلق الإنسان لعمارة الأرض على الوجه الذي يقوله الزنادقة اليوم؛ أي بلا عبادة ولا نسك ولا ذكر ولا قراءة قرآن ولا سجود ولا ركوع، كذلك بلا مدافعة بين الحسنة والسيئة ولا بين الحق والباطل ولا بين الإيمان والكفر هو قول جاهل على الله، وفيه نسبة هذا الوجود إلى العبث واللهو واللعب.

وإنه مما يلاحظ أن بعض المسلمين تأثر من هذا القول الباطل، إذ جعلوا حياة الإنسان لنفسه في تحقيق رفاهيته وشهوته هو الأصل، وجعلوا العبادة والنسك تابعة لذلك، وذلك عن طريق تضخيم الأولى وجعلها مقصدًا لتجمعاتهم وأحزابهم وبرامجهم الدعوية، كما هو شأن الأحزاب غير المسلمة الكافرة، ثم يكون شأن العبادة والنسك وإقامة حق الله في الأرض والوجود والإنسان شيئًا تابعًا هامشيًا، بل ربما جعلوه شأنًا خاصًا لا يستحق أن يكون برنامجًا لعمل جماعي ولا لاهتمام بارز.

والصورة تتضح للمرء حين يقارن بين حياة النبي ﷺ ومواعظه لأصحابه، وكلماته وارشاداته، وبين حياة هؤلاء وبرامجهم ودعواتهم، فإن شأن النبي ﷺ في حياته شأن العابد الذاكر المسبح المستغفر، وكذا دعوته لأصحابه ونصحه وتوجيهه لهم، وأما شأن الحياة ورفاهيتها فهي أمر تباع لتحقيق إنسانية الإنسان لا غير بلا ترف ولا إسراف، وبهذا حصل لهم سلطان الأرض وخيراتها وثرواتها مع تحقيق المراتب العليا في الجنان.

فالنبي ﷺ وحياته، والصحابة وحياتهم هي واقع هذه الآية: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ على وجهٍ إنسانيٍّ أرضي يقع فيه معنى الإنابة كما وصفهم الله بقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، وكما قال عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ وكقوله فيهم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وأوصافٍ أخرى ذكرها الله عنهم تُبيّن نُسكهم وعبادتهم وحبهم لله تعالى ورغبتهم في لقائه ودخول الجنان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالله ﷻ ربها ومالكها، ولا علاقة بين الله وخلقه إلا على هذا المعنى، وكل دعاوى المشركين الزاعمة أن بعض خلقه له معنى آخر غير ذلك هي كذب وافتراء على الله، فما الملائكة إلا ملك له وهم عبيده وهو ربهم، فليسوا كما قال المشركون: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾، وكذلك الشمس والقمر والنجوم هي مخلوقات لله لا تملك من أمرها شيئًا بل كما قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهكذا كل البشر، فما عيسى إلا عبد لله تعالى كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، فالله رب كل شيء كما تَقَدَّم، وكل شيء مملوك له، وأمّا فعل الآخر فإن الملائكة هذا وصفهم، فتلك ربوبية الله الشاملة، وهذا تأله العابدين من الملائكة له جلَّ في علاه، وقد وصَف عبادتهم في ظاهرها وباطنها، أمّا الباطنة فهي عبادةٌ بلا كبر، وأمّا الظاهر فهي عبادة بلا تعبٍ ولا انقطاع، وهذا أبلغ وصفٍ للعبادة، وذلك بتمام خضوع القلب والجوارح.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ هو وصف لعبادتهم التي لا تتوقف ولا يقع فيها التعب، وضرب الله هذه الأمثال إنما هو لبيان ما يحبه الله تعالى من عبيده، وما يحقق فرحه ورضاه جلَّ في علاه، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[٩]

إن موجبات العبادة الحقة أن يكون المعبود هو رب السموات والأرض، وأن يكون أعظم الخلق هم أشد الناس خشية وتسبيحًا له، وإذا كان هذا هو الله سبحانه، فإن اتخاذ غيره آلهة من أبطل الباطل، إذ أن هؤلاء الآلهة الباطلة ليس لهم من الأمر شيء، ولا يخضع لعبادتهم أهل السموات الذين هم أعظم الخلق وأكرمهم، فما معنى اتخاذ الجاهل معبودًا من الأرض لا يقدر أن يحاسب عبده بعد الموت، وإن كان له قدرة فهو كما قالت السحرة بعد

[٩] الأنبياء: ٢١-٢٣

إيمانهم لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أمّا بعد الموت فالديان هو الله ﷻ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وكقوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ فالمعبود الحق هو من يقيم خلقه من الموت ليحاسبهم بعد الموت، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي، ومن لم يكن كذلك فهو إله باطل، وإن كان له قدرة على القضاء فإنما في هذه الحياة الدنيا، مع أنّه عند مجيء قضاء الله في هذه الحياة لا تنفع هذه الآلهة الباطلة في شيء كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ وكما قال سبحانه: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾؛ وإذ كان اتخاذ الآهلة باطل، فإنه كذلك سبب فساد الوجود، فقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُون﴾ ذلك بأن الله سبحانه أقامَ سُنّة الوجود ونظامه على وفق طاعته وعبادته، فإن عبد غيره اختل النظام وحصل الفساد، إذ أن المخلوقات لا تصلح إلا لعبادة الله سبحانه وحده لا نشرك به شيئًا. وهذه الآية ليست على معنى ما يقوله المتكلمون من نفي تعدد الخالق، إذ أن هذا معنى فيها وليس هو نصها، وفرق عند علماء الأصول بين النص والظاهر، فإن كان ما قالوه هو الظاهر، فإن النص ينهى عن تأليه غير الله لا نفي ربوبية غيره، فالأمر في الآية أعظم مما يقولون، إذ التوحيد ليس نفي تعدد الخالق فقط، بل هو نفي تأليه غير الله ﷻ.

ثمّ إن من عجائب بعض أهل البدع والهوى حين يستدلون بهذه الآية على نفي ظواهر الآيات وأنها غير مراده، فإنهم في نفيهم لعلو الله على خلقه كما تقوله آيات كثيرة، يقولون لو كان هذا الظاهر مرادًا لكان الظاهر في هذه الآية أن الله بذاته في السموات والأرض، ولما كان هذا غير مراد عند أحد من أهل الإسلام إلا أهل الحلول فإن القول إن الله فوق الخلق والسموات والعرش غير مراد كذلك.

وهذا جهلٌ وضلال، فإن هذه الآية لا تتحدث عن ذاته جلَّ في علاه أنها في السموات والأرض، بل إنما تتحدث عن ألوهيته وهي كذلك لا تنفي وقوع تأله غير كما يقول أصحاب «وحدة الوجود» في زعمهم أن كل عبادة في الكون هي عبادة الله، بل هذه الآية تنفي صحة عبادة غيره، وذلك لما يعقبها من فساد في الأرض

والسماء. فصلاح الوجود في السموات والأرض هو بعبادة الله تعالى، وإخلاصها له، وترك عبادة غيره على المعنى الذي قاله ﷻ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، فاختلال نظام العالم إنما يقع بالشرك في العبادة، وهذا أمر على أهل الإسلام أن يفهموه لأنه يجيب على سؤال يتردد في النفوس وهو؛ هل صلاح الوجود يكون بظاهر الأمر دون حقيقته، أَم لا بُدَّ من معناه الباطني فيه؟

وبإدراك جواب هذا السؤال يستطيع المسلم أن يحكم على أعمال الآخرين هل هي إصلاح حقًا أم ليست من الإصلاح في شيء.

وشرح ذلك يكون كالتالي:

لقد شَرَّعَ الله الشرائع من أجل إصلاح الوجود، فالأحكام تحقق العدل الذي يدفع الظلم، وتحقق الأمن الذي يزيل الخوف، وهما؛ أي العدل والأمان أساس الإستقرار والبقاء، وهذه الأحكام لها ظواهر ومعاني، أمّا الظواهر فهي تطبيقها من غير النظر إلى معناها هل هي عبادة لله أم لا، فلو أخذت هذه الشرائع مقتطعة عن معنى الواضع لها وهو الله، وجردت عن معنى العبادة التي يريدها الله منها، فهل تحقق هذه الأحكام مقاصدها في الاستقرار والبقاء حينئذ؟

وهذا السؤال تصوري، ذلك بأن الله يُضِلُّ المشركَ في أحكامه، وإنه وإن أصاب بعقله بعض الحق إلا أنه سيخطئ الكثير، فإن كان قد منع الهلكة في باب فإنها ستأتيه من أبواب، ويكفي أن يعلم المؤمن أن أعظم المهلكات هو الشرك بالله، ولذلك ما ذكر الله قومًا مشركين إلا وذكر لهم مفاسد أخرى سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، ذلك لارتباط الشرك بالفساد.

لكن هذه الآية دلّت أن الحكم الإيماني لا يؤتي أثره في الوجود إلا بارتباطه بالإيمان، وإلا فهو عارٍ من صد المهلكة، فأحكام القرآن ليست هياكل وظواهر فقط، بل هذه الأحكام لا تسمى إيمانًا إلا لعمل العامل لها على جهة التعبد لله تعالى، فإن خلت عن هذا المعنى فإنه لا تكون عبادة ولا تألهًا، ذلك بأن قيمة الحكم بالانتساب لا بذاته فقطن فالحكم يمدح لأنه منسوبٌ إلى الله ويذم حين ينسب لغيره كما قال تعالى عن حُكم غيره وحُكم شرعه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولهذا المعنى كانت دعوة الأنبياء في أنها دعوة للتوحيد ثم الشرائع، فهذا هو التعبد في حقيقته لا مجرد الشرع دون اقرار إيماني وخضوع لله تعالى، وفقه الدعاة لهذا الأمر يبعدهم من خطأ تلبسوا به كثيرًا، وهو إملاء هياكل الجاهلية ومظلتها بأحكام الإسلام ودعوتهم لهذا، وظنهم أن هذا هو ما يحقق الإسلام لهذه الهياكل الجاهلية التي جعلت حق التشريع لغيره، فصدور أحكام بغير سيادة الشرع حتى لو إلتقت مع صورة الحكم الشرعي فإن هذا لا يمنع من لحوق الفساد ووقوعه، فهكذا تلتقي التسمية؛ أي في كونه حكمًا شرعيًا أو حكمًا جاهلًا، مع آثاره في كونه يحقق الصلاح أو الفساد.

هذا الأمر لا يلغي السُنَن الكونية التي قال الله فيها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فالفعل الإنساني له آثاره عليه بالوضع السُنَني فيه، حسنًا وقبحًا، إذ الفعل له قوة الأثر بحسبه، لكن المعاني القلبية كذلك لها آثارها كذلك في هذا الوجود، فالحب وكذا البغض ليس لهما تأثير في أمر الآخرة فقط، بل لهما تأثير وجودي سُنَني، ويشهد لهذا حديث النبي ﷺ: ((إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً، دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبَّهُ. قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً، دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَناً فَأَبْغِضْهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاَناً فَأَبْغِضُوهُ. قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ)).

والله ﷻ قال: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فجعل سبحانه عمل القلب شرطًا للإيمان، وقد علمتَ أثر الإيمان في الوجود والحياة. هذا مع أثر العبادة في الوجود وأقدار الله فيه كالحديث: ((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَانْظُرْ يَا ابْنَ آدَمَ لا يَطْلُبَنَّكَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذِمَّتِهِ))، وفيه كذلك: كان رسول الله يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: ((اسْتَوُوا وَلا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ)). وقوله: ((لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ)) والله يقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. وهذا كله لتعلم أثر المعنى القلبي والعمل النسكي في الوجود البشري، وليس الأمر قاصرًا على هيكل العمل وظاهره.

وقوله تعالى: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي السموات والأرض، وأما السماء فليس فيها إلا تأليه الله وتسبيحه، وأما الأرض فقد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والبشرية كان تمامها واستواؤها في الخير والهدى في قرن مُحَمَّد ﷺ وأصحابه، إذ لم تعرف الأرض صلاحًا

وخيرًا كما حصل في قرنه ﷺ ولذلك قال: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي)) ثم بدأت البشرية في حالٍ آخر، وذلك لأن الوجود الإنساني منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة أشبه بحياة فردٍ واحد من البشرية والذي يلحقه ما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾، وبهذا تعلم أن زوال الغربة الثانية على الوجه الذي قاله رسول الله ﷺ: ((بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ))، ثم ما أخبر به عن الخلافة الراشدة في قوله ﷺ: ((ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ)) إنما هو أشبه بصحوة الموت التي تصيب الهرم وهو على فراش الموت، وهي حالة معروفة، فأمرها يسير الوقت لا يطول، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بظهور الفساد والقرآن ينزل لأن الاستواء التام لا يعني إلا بداية ضده، وهكذا بدأت البشرية مع أول آيات الساعة وهو بعثة النبي ﷺ، وهو قرينها كما أخبر ﷺ.

والبشرية اليوم وما تنتجه من سلوكات وتشريعات هو ردّةٌ إلى التوحش والبهيمية، وقد اجتمعت فيهم اليوم كل مفاسد الإنسان على مدار التاريخ، وهذه المفاسد مع أنها كانت تلحق التجمعات البشرية بالهلاك إلا أنها لم تكن تلحق بالكون، وهذا بخلاف الفساد اليوم، فإنه يلحق الوجود الإنساني والوجود الكونين إذ أن اكتشافه اليوم لسُنَن الوجود لم يعنه ولم يهده إلا للإفساد والتدمير وكل ذلك من أجل الرفاهية والترف دون نظر إلى الحفاظ على أصل الخلقة وفطرتها، فهو وإن حقق متعة سريعة إلى أنها أعقبت تدميرًا وإهلاكًا لوجوده، شأنها شأن شارب المخدرات، فإنها تعطيه مشاعر المتعة السريعة ثم ترتد عليه إهلاكًا لبدنه وعقله ونفسه.

فالبشرية ليست في لحظة تحضُّر كما يزعمون، ولم تُخَلِّف وراءها البهيمية والتوحش كما تزعُم، بل هي في أشدِّ حالات الانحطاط البشري على مدار التاريخ، فالمجرد الطاغية الذي كان يقتل في حرب طويلة المئة والمئتين صار قتل مثل هذا العدد يقع في لحظة واحدة، ومن كان يسرق القليل صارت الملايين وأقوات قاراتٍ كاملة لا تكفيه، ومن كان يستعبد شعبًا صار يستعبد أُممًا، وما كان يعد عيبًا في الأمم السابقة ويعمل على جهة التخفي كالزنا واللواط صار شريعةً تُحمى ويُعاقَبُ مُستَقذِرُها، فليس هناك اليوم ما يُمدح من إنتاج البشرية إلا بما تُمدح به الأنظمة وهي زيادة السجون والمستشفيات، وهي دليلٌ على مقدار التقدم النفسي والخُلقي والبدني في هذا الإنسان الحديث.

أمّا هذا الافتخار بالمنجزات المادية، ودعوى تميز الإنسان المعاصر بها فهذا من التزوير حقًا، فما يزعمونه من وجود الإنسان الأول المتوحش والمتخلف هو الذي اكتشف قواعد الوجود كله، فليس ذكاء مصنع الحديد إلى آلة معاصرة بأذكى من ذلك الإنسان الذي اكتشف الحديد وأدرك خصائصه واستخدمه في منافع حياته، وليس صانع الصاروخ بأذكى من الإنسان الأول الذي صنع رغيف الخبز حين أدرك سرّ حبة القمح فرعاها وصنعها حتى

صارت غذاء البشرية التي تحفظ لها الوجود، لكنه الغرور الإنساني حين يظن أن إنسانيته اليوم هي أرقى من إنسانية آبائه وأجداده سواء كان في القيم أو الإنتاج الحياتي النافع.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ لَمّا كان العرش هو أعظم المخلوقات، وهو أول المخلوقات كما هو قول طائفةٍ من أهل العلم، كان ملك الله له هو أعظم الملك، وكون ربنا جلَّ في علاه رب العرش وهو المحيط بالكون كله، وهو سقف الجنان يعني أن ما دونه مربوب له كذلك.

وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ ردٌ على الذين اتخذوا آلهةً من الأرض، فما هي إلا آلهةٌ باطلة، تحيط بها خلائق أعظم منها، ومحكومةٌ لها، وأمّا ربنا ﷻ فإن العرش مملوك له، وهو ربه الذي خلقه، ولا يقوم مع عظمته إلا به، فإنه ﷻ قيّام السموات والأرض ومَن فيهن. واعلم أن بعض الجاهلين في تاريخ البشرية كلها كان شأنهم منازعة الله فيما اختص به نفسه، فيتخذون لأنفسهم أسماء وصور وهياكل على جهة ما يعلمون أنها أسماء الله تعالى وأفعاله، وهي مجموعة في قوله ﷺ: في سجوده وذكره لربه: ((سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ)) فالمنازعة الجاهلة في هاذين الأمرين؛ الجبروت والملكوت، فمنهم من يَتَسَمّى بملك الملوك، كما جاء في الحديث: ((إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ))، ومنازعة الأسماء هو ما فعله المشركون من تسمية اللات والعزّى ومناة، ومن المنازعة الجاهلية جعل منازل الملوك ومجالسهم على معنى ما ذكره الله لنفسه كما سموا مجالسهم: عرشًا، فيقولون: العرش المكي، وهو من باب الكبر والجهل والغفلة، بل هو من تلبيس الشيطان عليهم في تسمية منازلهم على وفق ما استأثر الله به لنفسه من التعظيم.

ومما يشبه ذلك ما دخل على الأُمَّة الإسلامية من بناء القباب على القبور، فإنها مأخوذةٌ من الهند، وأصل بنائها هو اعتقاد الربوبية لصاحبها، لأنهم يسمون الرب: صاحب القبة الزرقاء، وهذا ما يطلقه العوام في بلادنا، أي هو ربُّ هذا الكون، والذي هو قبةٌ زرقاء كما يرونها بأعينهم، فذهبوا إلى جعل ذلك على آلهتهم الباطلة، ثم أدخله الجاهلون ورجال التصوف إلى بلادنا معهم، لأن التصوف إنما دخل الإسلام عن طريق الهند، مع وجوده في كل الأُمم السابقة.

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دليلٌ على أن كل شركٍ وفساد في الوجود أصله القول في الله جهلًا، والقول عليه كذبًا، فقدم العلم بالله تعالى كما هو في أسمائه وصفاته هو أصل الفساد، وأصل كل خيرٍ في الوجود إنما هو العلم

بأسمائه تعالى وصفاته، فأول العلوم التي يجب أن يعلمها الخلق هو أسماء الله تعالى وصفاته، وجماع هذا الأمر كلمة التوحيد: **لا إله إلا الله**؛ فهو المستحق للتأليه، وموجب هذا التوحيد الحق هو أسماء الله تعالى وصفاته، ولذلك كان إحصاء أسماء الله المئة إلا واحدًا طريقًا للجنان، وهذا الإحصاء هو علمها والعلم بها، فمن جهل اسم الله الغفور يئس، واليأس كفر، ومن جهل اسم الله المنتقم غفل والغفلة أساس المعاصي، ومن جهل اسم الله القدوس نسب له الكذب، وهكذا كل جهل باسم لله عاقبته الفساد، ويضاده كل علم باسم من أسماء الله تعالى وصفاته يوجب إيمانًا وتوحيدًا وعبادة، فلا يتحقق توحيد المرء على وجه التمام إلا بإيمان العبد بأسماء الله تعالى وصفاته التي ذكرها الله في كتابه وأوحاها إلى رسوله ﷺ.

فالعلم بأسماء الله وصفاته ليست أمرًا تصوريًا عقائديًا لا ينتج سلوكًا ولا نُسكًا كما يظن البعض، وتحول الخصومة في هذا الباب إلى مساحة كلامية لا تحقق إخباتًا ولا خوفًا ولا حبًا جهل في أعظم أبواب الدين، وأعظم مقاصد القرآن، إذ لا يتحقق التوحيد إلا بإثبات أسماءه وصفاته، وأن يحياها المرء سلوكًا ونُسكًا وحياةً في ليله ونهاره.

وإنه مما يجدر التنبيه عليه أن اهتمام أهل العلم بتوحيد الألوهية لَمّا جهل الناس أمرها، وقولهم إن توحيد الربوبية أمرٌ مشتركٌ بين المسلم والكافر، إذ لم ينكره المشركون أدّى إلى تهوين أمر الإثبات، مع أنه لا يصحُّ توحيد المرء وتأليهه له إلا بتحقق قلب المؤمن لمعاني الأسماء والصفات والتي هي من توحيد الإثبات، فالعبد لا يخلص في دعائه إلا بامتلاء قلبه بمعاني اسم الله الرزاق، ويقينه على وعده، فتوحيد العمل والإرادة لا يكون بدون قاعدة توحيد الإثبات.

والقول بأن المشركين مشتركون مع المسلمين في توحيد الإثبات بهذا الإطلاق قولٌ غير صحيح، فإنهم كانوا يقولون على الله الكذب، ويصفون الله بالجهالات، فالقرآن يثبت أنهم كانوا لا يعتقدون في الله القدرة المطلقة، ولذلك شككوا في قدرته على إحياء الموتى، فنسبوا له الضعف كما قال تعالى عنهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، وذكر القرآن عن يهود جهلهم بعلم الله ما في نفوسهم كما قال ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقد ذكر أقوال الجاهلين فيه في مواطن من كتابه كقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهو نسبة البخل له، وغير ذلك، ولذلك فاعلم أن كل شرك في الدنيا في باب الإرادة لا يكون إلا وله أصل في باب الإثبات، ولا يتحقق توحيد الإرادة إلا بتوحيد الإثبات، وقوة كل واحد يعود الآخر بالتأثير، ولذلك امتلأ كتاب الله تعالى بالحديث عن أسماء

الله وصفاته، والحديث عن آياته الدالة على هذه الأسماء والصفات، فلا تغفل عن ذلك فيتحول لديك توحيد الإرادة مجرد تصور علمي لا ينتج عبادة ولا اخباتًا ولا ذكرًا ولا دعاءً ولا خوفًا ولا حبًا.

قوله تعالى: ﴿لا يُسألُ عمَّا يَفعل وهُم يُسْألُون﴾ ذلك بأن الله لما ذكر عجز آلهتهم التي اتخذوها من نشر الخلق وسؤالهم فعقاب ونعيم، ذكر ﷻ هذا الأمر لنفسه، فهو ﷻ من يسأل الخلق ويحاسبهم، وهو سبحانه الإله الحق الذي الذي لا يسأل من مربوبيه، هذا معنى ما يفيده سياق الآية وهو اختيار كثير من أهل العلم.

وهي بلفظها تفيد العموم كذلك، فإن الله ﷻ لا يُسأل لِمَ شرع ولِمَ خلق ولِمَ قَدَّر، لأن الكل سواه عبد، وليس للعبد على سيده إلا الخضوع والتسليم وترك الإعتراض، بل أعظم الإيمان هو الرضى، هذا مع اختلاف العلماء في مرتبة الرضى بالأقدار هل هي واجبة أم مستحبة، والذي عليه الأكثر أن مرتبة الصبر واجبة وأما الرضى فمستحبة.

والإعتراض على شرع الله وقدره هو أصل الكفر في الوجود، وهو كفر إبليس كما هو معلوم، إذ اعترض على أمره في السجود لآدم، فالإعتراض هو نقض لما اختص به نفسه في قوله: ﴿لا يُسألُ عمَّا يَفعل﴾، وهذا الشرك قديم، وهو الاعتراض على فعله، إذ يسأل الجاهلون على وجه الاعتراض لِمَ خلق الخلق ولِمَ وجود الألم ولِمَ وجود الاختلاف؟ وكل من عانى في أمرٍ قَدَري لَم يصبر عليه ذهب يتهم الله تعالى في حكمة وجوده، ولو تفكّر هؤلاء أن الله الذي خلقهم أعظم منهم حكمة لسلموا له، وهذا ما هدى الله المؤمنين إليه في جواب هذه الأسئلة، فإن عادًا لَمّا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وهؤلاء عندما يحكمون قواعدهم ومداركهم في فعل الرب لو تذكروا أن هذه المدارك هي من نعمة الله عليهم، لعلموا أن الله ﷻ هو أعظم منهم حكمة وعلمًا، فلسلموا له وقالوا ما قال ﷻ: ﴿لا يُسألُ عمَّا يَفعل﴾.

وهذه الآية للناس فيها أقوال، فجاهل بها يقولون بوجوب الأصلح على الله، فينفون ويثبتون بحسب مداركهم في الصلاح والفساد، فنفوا إرادته القَدَرية الشاملة لأعمال الخلق؛ صالحهم وفاسدهم، إذ جعلوا الإذن القَدَري لمعصية الإنسان تنافي هذه القاعدة، فنفوا هذه الإرادة، بل نفوا أن يكون هذا الفعل مخلوقًا لله تعالى، وآخرون قالوا بها على وجه مناقص لما قاله السابقون؛ وهو أنهم جوزوا فعل الظلم من الله تعالى، وجعلوا هذه الآية مطلقة بلا ضابط الحكمة والعدل، وزعموا أنه يجوز معاقبة الصالح وإثابة الفاسق، وهذا جهلٌ بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فالآية تنفي حق سؤال الخلق له فيما يفعل ﷻ، كما تنفي وقوع مقتضى السؤال وهو الثواب والعقاب، فلا أحد له الحق كما لا يقدر أحد على إثابة الرب أو معاقبته، لكنها لا تتحدث عن صفة فعل الرب ﷻ كما

زعم المجوزون وقوع الظلم منه؛ فصفة فعله جلّ في علاه فيها آيات بينة أعظمها ما تقدم وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ومن فقه المؤمن لصفة فعل الرب علمه بحديث النبي ﷺ: ((لَا يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ)) أو قوله ((لاَ يَأْتِي الْخَيْرُ إِلاَّ بِالْخَيْرِ))، وهو حديثٌ يستحقُّ وقفةً هنا لأهميته في فهم أقدار الوجود التي تتعلق بعمل الصالحات التي لا تتحقق آثارها الكلية في الدنيا، وهو أمر يجيب على تسائل العابدين والعاملين لدين الله حين يأتي العمل الصالح بأمر على خلاف ما أمله الفاعل له؛ ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَرَكَاتُ الأَرْضِ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك، قال: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ قَالَ: لا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلاَّ بِالْخَيْرِ، لا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلاَّ بِالْخَيْرِ، لا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلاَّ بِالْخَيْرِ، إِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ؛ إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ، فَإِنَّهَا تَأْكُلُ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا؛ اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ، ثُمَّ اجْتَرَّتْ وَبَالَتْ وَثَلَطَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ؛ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وفي لفظ: ((إِنَّهُ لَا يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ))، وفي لفظ: ((وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالآكِلِ الَّذِي لَا يَشْبَعُ وَيَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).

والحبط: وجع ببطن البعير من كلأ لا يلائمه، أو من كلأ يأكل منه أكثر من حاجته وفوق طاقته، فينتفخ عليه ويستعص خروجه. والثلط: هو السلح الرقيق.

قوله ﷺ: يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ؛ أي يقتله بالحبط أو يقرب من قتله. وهذا الحديث العظيم وضعه المصنفون في باب الرقائق إذ فيه عدم الاغترار بالدنيا، وفي أحكام الزكاة والصدقة لما فيه من دلالة ظاهرة على ذلك كما ترى.

والحديث فيه أكثر من ذلك وخاصةً في باب القدر وذلك في قوله ﷺ: ((إِنَّهُ لَا يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَرِّ))، فهذا لفظٌ عام يتعلق بالخير القَدَري الذي هو على فطرته، وكذلك بالخير الذي أمر الله به في شرعه، ولكن الحديث يبين كذلك أن الشر الذي حذر منه في وجود هذا الخير هو ما يصاحب هذا الخير من ظرف قدري يغيره، أو من سوء استخدام له، والدعاة والعاملون لدين الله اليوم قد يرون أعمالاً شرعية قد حض عليها الكتاب والسُنّة وهي خير، إلا أنهم حين يأتوها على وجه ما يفهمونه أو يقدرون عليه فإنهم لا يجنون فيه آمالهم فيه، بل قد يختلف الأمل أو

يقع الأمر على خلافه، وترتد هذه العاقبة على البعض تشكيكًا في الأمر الشرعي تحت دعوى إعادة الإجتهاد فيه لتغييره وتبديله، ومنشأ هذا الخطأ هو عدم فهم سُنَن جريان الأقدار، حتى مع الأمر الشرعي الصحيح.

فهذا الحديث يُبَيّن فيه فتنة الخير، وهو ما تخرجه الأرض من بركات الأرض، فعجب الرجل كيف تأتي الفتنة من الخير وما سماه رسول الله ﷺ بركة، فسأل الرجل الأعرابي رسول الله ﷺ: هل يأتي الخير بالشر؟ فجاء جواب الرسول ﷺ كلامًا بليغًا عظيمًا على جهة التمثيل. فبيّن النبي ﷺ كيف يتحول ما هو نعمة في جوف آكله إلى خور، فالخير هو كذلك في أصل وضعه، سواء كان وضعًا كونيًا كبركة الأرض، أو وضعًا شرعيًا كالحكم بالأمر والنهي، لكن هذا الوضع الأصلي إذا عمل به الإنسان فإنه يخرج من فضائه المطلق إلى وضع آخر، هذا الوضع محكوم بسُنَن الكون الذي لا يجري فيه شيء على جهة الانفراد، بل لا بدّ أن يشاركه غيره، فطعام الأرض بركة في أصله لكن لما يدخل في جوف آكله فإنه لم يعد منفردًا، بل اشترك مع غيره، وهذا الغير قد يكون مناسبًا له، وقد يكون غير مناسب، وعدم المناسبة تحصل بأمرين، إمّا بعدم الملائكة والمطابقة وإمّا من جهة المقدار كما تَقَدَّم في تفسير الحبط، إذ يقع إمّا بعدم الملائمة أو بكثرة الأخذ. فالفِطرة خير في أصل خلقتها، لكن لما تجري عليها أفعال الخلق فإنها لا تعود فطرة، بل يجري عليها التحول والتغير.

وما يهمنا هنا بيان الحكم الشرعي، فإنه خير ولا يحقق إلا الخير، إذ الخير لا يأتي بالشر كما قال رسول الله ﷺ ولكن لتحصيل الخير بعد دخول الفعل الإنساني على هذا الحكم فلا بُدَّ من النظر إلى الظرف القدري المحيط به هل هو ملائم له، وكما تقدم في تفسيره الملائمة؛ أي من جهتي التطابق والقَدَر.

فبعضهم لا يلتفت قَط إلى الظرف، بل يلتفت إلى أصل الوضع الشرعي، فيأتي الأمر على خلاف مطلبه، كما أن آخرين لا يلتفتون إلى المقدار، بل يظنون أن مجرد الفعل يحقق العاقبة فلا يرونها. وعدم فهم هذا الأمر كان مؤداه عند الكثيرين الانقلاب على العقبين بعد مجرد تجربة وقعت منهم، فصاروا يزعمون الحكمة وامتلاك ناصية الخبرة والتجربة، وأن هذه أفعال لا تؤدي إلى المطلوب، بل لا بدّ من تغييرها، والتغيير الذي وصلوا إليه هو الدخول في سبيل المجرمين، لأنها عندهم هي من تحقق النتائج والآثار.

وفي هذا الحديث يُبَيّن النبي ﷺ أمرًا آخر لتحقيق الخير من الخير عند نزوله من فضائه العلمي إلى عمل المخلوق فيه، فبعد أن بين أهمية المطابقة والملائمة، وأهمية المقدار، بيّن أهمية الفعل المساعد لأصل العمل، إذ العمل الواحد

لا يحقق المنفعة التامة إلا بعمل آخر يقارنه، هو المعين له في دفع الشر عنه وذلك في قوله ﷺ: ((إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ اجْتَرَّتْ وَبَالَتْ وَثَلَطَتْ)) فهذان عملان مساعدان؛ أولهما يصاحب العمل وهو قوله: اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ وثانيهما: طرد الآثار الجانبية الملازمة للفعل الإنساني المختلط وهو قوله ﷺ: اجْتَرَّتْ وَبَالَتْ وَثَلَطَتْ.

وهذا المثال النبوي وإن أعيى أهل البيان في إدراك مراميه، وتوقف الكثير فيه، غلا أن اجتماعه كما قال بعض أهل العلم هو ما يحقق صورة معناه على الوجه الصحيح كما تَقَدَّم لك. والشارع لم يضع حكمًا إلا جعل له عوارض تغير الحكم على وجه تلائم هذه العوارض، كذلك لم يُشرّع حكمًا إلا وجعل له رديف يعينه ويقويه.

فمن أمثلة العوارض المؤثرة أحكام الفرائض، فإن الله شَرّعَ الفرائض والأنصبة للورثة، وما من نصيبٍ لوارثٍ إلا وهو متغيّرٌ بوجود العوارض الجزئية أو الكلية له كما يعلم ذلك أهل العلم.

وهكذا حُكم الصلاة وما فيها من أقوال وأفعال، والصيام في دخول المرض والسفر وتخلف القدرة، وهذا أمر مطرد في كل أحكام الشريعة، لكن هذا الاضطراد لا يلغي الحكم الشرعي ولا يبطله، فعوارض الصيام لا تلغي الحكم الأصلي الثابت له وهو أنه ركنٌ من أركان الإسلام، إذ يبقى الأصل هو ما يعلم، مع اعتناء المفتي بهذه العوارض حين حضورها في المستفتي أو الواقعة. أمّا الرديف الملازم للحكم فهو كثير، بل يكاد يكون مطردًا كذلك، فالله شَرّعَ الصلاة وجعل لها الجماعة، وشَرّعَ لها الأذان والإقامة، كما شَرّع لها الوضوء وجعله شرطًا لها، ومن تفكر في هذا وجده على المعنى الذي تَقَدَّم. والقصد أن الأمر في مجاله العلمي خير كله، ولتحقق الخير منه في المجال العملي لا بُدَّ من إيقاعه على الوجه الملائم وبالمقدار الكافي، ثم لا بُدَّ من دفع الآثار الجانبية الناتجة من هذا التفاعل بين الخير المطلق مع الظرف الكوني والفعل الإنساني.

فهذه هي قاعدة إنتاج الخير من الخير، وإلا لم ينتج إلا الشر، لا لأن الخير يأتي بالشر، بل لأن الخير إن لم يوقعه فاعله على الوجه الصحيح فإنه لا يكون خيرًا، بل هو شرٌ بالنسبة لهذا الفاعل أو هو خيرٌ ناقص، ذلك لأن الخير والشر تسميتان شرعيتان على وجود واحد، فالمرأة وإتيانها وجود واحد، إلا أن هذا الإتيان قد يكون خيرًا بالزواج وقد يكون شرًا بالزنا، وكذلك المال فهو وجود واحد، إلا أن إكتسابه في الحلال يجعله خيرًا، واكتسابه في

الحرام يكون شرًا، فالشر والخير اسمان شرعيان على مادة واحدة، ووقوع اسم أحدهما إنما على صفة ما أو مقدار ما.

وفهم أهل الإسلام لهذه القاعدة النبوية يمنعهم من تغيير الأحكام كما يفعلون اليوم بعد إخفاقهم في تجربة ما، إذ الواجب عليهم النظر في هذه المؤثرات الأخرى وهي: الظرف الملائم، والمقدار الكافي، والفعل المساعد، وإصلاح الآثار، لا أن يسارعوا في اتباع سبيل الجاهلية وتغيير الشريعة بحجة عدم إصابة الهدف كما وقع في تجربة سابقة.

تذكرة: هذا الحديث فيه إشارةٌ واضحةٌ للنفط الخارج من باطن الأرض في بلاد المسلمين، وذلك في قوله ﷺ: ((أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا))، وقد عُلِمَ أن الأُمَّة لم يدخل لها مال من باطن الأرض إلا ما كان من أمر النفط اليوم، فالمال الذي يدخل من الزراعة ليس على وجه الكثرة التي تحقق الفتن، بل لا يعلم عن أهل الزراعة أنهم أهل ترف ورياش ومال، كما أن المال الذي كان يدخل على الأُمَّة قديمًا ليس هو من باطن الأرض، فدلَّ على أن المراد منه أصالةً إنما هو مال النفط، وهو كما أخبر النبي ﷺ قد قتل دين الناس أو كاد، ووقع به من البلاء أكثر من الخير، وكان شرًا بفعل آخذيه، مع أنه خير للأُمم الأخرى، لكن جريانه بين أيدي أهل الشر جعله شرًا، فقد نشر الترف الذي هو سبب الهلاك، كما كان شرًا على الأُمَّة حيث لم تجعله في الوجه الصحيح، فلم يكن لها قوة ولا نعيمًا، بل صير أهله جبناء يحسبون كل صيحة عليهم، وكان أسعد الناس فيه طرفان: من أخذ من خيره فجعله في الخير وهم أفراد أكرمهم الله بالإنفاق والبذل، وآخرون لم يصبهم فحماهم الله من الترف فقاموا لأمر الله لا يخافون ذهاب دنيا ولا رفاهية.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[١٠]

من طريقة القرآن الاستشهاد بالنبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ والشاهد عند بعض أهل العلم هو مُحَمَّد ﷺ، وهو الأقوى والأولى من قول بعض أهل العلم إنه جبريل، مع أن ابن كثير قوّى الاثنين لكن القول إنه مُحَمَّد ﷺ هو ما تشهد له الآيات كآية سورة الحديد المتقدمة، وكقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ويستشهد بالملائكة كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْك

[١٠] الأنبياء: ٢٤

أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ويستشهد بأهل العلم كما في آية آل عمران المتقدمة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ كما استشهد الله بمؤمني أهل الكتاب وإمامهم عبد الله بن سلام ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وهذا الاستشهاد فيه أمران؛ رفع مقامات المستشهد بهم، ولذلك سمّى الله من قُتل في سبيله شهيدًا، وذلك لهذا المعنى، فإنهم يشهدون على الحجة وتبليغ الرسالة، ويشهدون على صحة إيمانهم ببذل أرواحهم، والآخر هو إقامة الحجة على وجه مدرك بليغ، والله ﷻ يحب العذر وذلك من رحمته وشفقته بعباده.

وفي هذه الآية يطلب الله ممن اتخذ آلهة دونه أن يقدم شاهدًا على دعواه من جهة النقل وذلك في قوله: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾. وقوله تعالى: ﴿مَن مَّعِيَ﴾ هو على المعنى الذي تقدم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ ، وقوله: ﴿مَن قَبْلِي﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

فقد تَقَدَّم بطلان اتخاذهم آلهة من دون الله من جهة النظر، والآن يبطل عليهم هذا بنفي وجود ذكر إلهي يستندون إليه كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فليس في القرآن وهو: ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ وليس في الكتب المتقدمة: ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ فيها ما يدعون من جواز اتخاذ آلهة تعبد من دون الله تعالى، مع اشتمال القرآن على الذكرين لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا الذي قاله أهل التفسير، والذي يناسب السياق أن هذه الآية نفي لاتخاذ من ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ آلهة من دون الله تعالى.

فهؤلاء المذكورون من الملائكة على الوصف المتقدم هو الحق، ومن زعم أن الملائكة قد عبدوا غير الله فهو كاذب لا دليل عليه، ولذلك احتج الله في هذا الموطن على الكاذب بالنقل، لأن أمر الملائكة غيبي، ولا يعرف إلا من جهة الخير، وهو الكتب المنزلة، وليس فيها ما يفترونه.

فالآية تُبطل زعم المشركين إن زعموا أن الملائكة عبدت غير الله تعالى، والملائكة أعرف الخلق بربهم لما يرون من أمره وخلقه، فهم أشد الخلق عبادة وتسبيحًا كما تقدم، وحيث هم كذلك من تسبيح الله وتقديسه، فإن الحق ما فعلوه، لا كمَن قال بالجهل وحكم بالأمر من مكان بعيد دون بصيرة من ربه.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ هذا من خصائص وصف العلم في القرآن، فإن العلم في القرآن لا يقابل جهل المعلوم وعدم المعرفة فقط، بل يقابل الإعراض عن العلم وإن علمه، فالجاهل في دينه من علم الحق وأعرض عنه، ومن لم يعلم الحق فالمعرفة في القرآن ليست علمًا إلا بالعمل والاتباع، وهذه الآية تبين أن الإعراض عن الحق يعني نفي العلم، كما أن نفي العلم عن المرء يكون بسبب إعراضه عنه، وهذا أمر يكاد يكون مطردًا في القرآن، ففي الأعراف بعد أن ذكر الله أمر المعرض عن الهدى بقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وعنى به المشركين كما قال بعض أهل التفسير كمجاهد والسدي، قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فسمّى المشرك جاهلًا مع معرفته بالحق، وبرهان هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقال بعض أهل العلم إن المراد أن جهلهم بالحق وعدم فهمهم له وامتناع تفكرهم فيه جعلهم في إعراض عنه، والمعنى متقارب، فإن الشيء قد يكون سببًا وقد يكون نتيجة كالدم والقلب، فقوة أحدهما قوة للآخر، وضعف أحدهما ضعفٌ للآخر، فأثر كل واحد سبب ونتيجة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لأن هناك أنواعًا أخرى كأسباب الشرك، فعامة أهله هم المقلدون الحمير ممن يتبع الكبراء والأسياد، وليس همه إلا ما يهم الدواب، وهؤلاء مذكورون في القرآن وقد فصّل أمرهم في مكان آخر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[١١]

فهذا عمل أكرم الخلق، وهو عمل أتباعهم، ومن يحبهم الله، وهو الدعوة إلى توحيده وإفراده بالعبادة والطاعة، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزلت الكتب، وقامت سوق الابتلاء والجهاد، وخلقت الجنة والنار، فمنازل الناس عند الله بهذا المعيار، وهو العمل بما أوحى الله به إلى رسله جميعًا، ومن جهالات الخلق الظن أن هذا لا يدخل في

---

[١١] الأنبياء: ٢٥

معيار تفضيل الناس في الدنيا والآخرة، حتى إن بعضهم ليظن أن صانع صنعة ما تحقق رفاهية الناس هي أكرم في الدنيا من عمل الداعي إلى توحيد الله تعالى وعبادته، بل إن هذا عندهم هو عمل البطالين والكسالى وأصحاب المدارك العقلية الضعيفة، أمّا غيرهم من أصحاب الصناعات والأعمال فهم الأكرم والأفضل، وإن بعضهم لا يجعل هذا معيارًا في الدنيا فقط بل جعله بعض من سمّي بـ «المفكر الإسلامي» معيارًا في الآخرة يوم القيامة.

وسبب جهالات هؤلاء هو الظن أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته هو أمر لا علاقة له بأمر الدنيا، بل هو شأن خاص للمرء لا يغرز موقفًا حياتيًا في الوجود وأحداثه وتقلباته، أما العمل في شؤون الدنيا المادية والفكرية فهو عندهم الذي يحقق الأثر في هذا الوجود، وبالتالي لهم الاعتبار والتقدير. وهذا الفهم هو جزء مشتق من إعتقاد عبثية الوجود، كما أنه جزء تغرزه مفاهيم الجاهلية في نفوس الضالين حيث يصبح الدين لا يصلح لقيام المجتمعات ولا تحديد مواقفها، ولا إلى تكتل الناس على وفق أحكامه وأقضيته، بل هي المعايير الأخرى عندهم مما يسمونه الوطن أو القوم أو الجهة أو غير ذلك من قيم الجاهلية التي تضاد قيم الإسلام في البناء والحياة.

إن أعظم الخلق عند الله تعالى وفي هذا الوجود الدنيوي والغيبي هم الأنبياء، وعملهم هو أعظم الأعمال وأحبها إلى الله وأكثرها تأثيرًا في الوجود، كما أن آثار أعمالهم هي الحق الباقية في الأرض، وكلما اقترب المرء من هذه الأعمال كان كذلك، فالذين يريدون أن يفرقوا بين مؤمنٍ وكافر، وبين مسلمٍ ومشرك، وبين عابدٍ وفاسق هم أهل الحق، وهم عصبة الحياة التي يحبها الله وينظر إليها، أمّا أولئك الذين يجعلون الدين عاملًا مساعدًا لقيمهم الجاهلية، لا أصلًا في البناء والحركة، فيبعدون الدين عن منصة القيادة في الولاء والبراء، وفي الحركة في المنع والعطاء، والسلم والقتال هم أعداء الرسل، وهم أصحاب دعوة الجاهلية مهما ارتفعت أصواتهم وغلبت منابرهم بالقوة والصراخ والمال والعكسر.

فمن هنا نبدأ؛ فمن حيث بدأ الأنبياء، وهذا منطلق المهديين، فهم من يصنع التاريخ من خلال هدي القرآن، والاقتداء بالأنبياء، إذ ندعو الناس لتوحيده في أسمائه وصفاته وتأليهه، فلا يعبد إلا الله، ولا يطاع إلا أمره، ولا يعادى أحد إلا من أمر بمعاداته، ولا يوالى إلا من أمر بموالاته، حتى تخضع الحياة له ﷻ في التسبيح والتقديس، وتخضع له قيم البشرية في الحكم والقضاء، وفي السلم والحرب، وفي المنع والعطاء، وفي كل جوانب الوجود الإنساني بلا استثناء، ثمّ ما يتحقق بعد ذلك من إدراك لسُنَن الوجود فهي على القاعدة القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ فلا عطاء في هذا الوجود إلا على هذا

المعنى في هذه الآية وكما قال ﷻ في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فما من عطاء إلهي للمؤمن في هذه الدنيا إلا لتحقيق هذه المعاني؛ أي تحقيق المنفعة وابتلاء للإنسان على وفق ما قاله الله عن موسى لبني اسرائيل: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ فهذه حقيقة القرآن في مقصد الوجود الإنساني، لا ما يقوله الجاهلون ممن يجعل الدين وأمر الله وتوحيده أقل شأنًا مما هو عند الله تعالى، فيؤخر حيث تقدم عليه قيم الجاهلية وما نتيجة الإنسان لرفاهيته وحياته الدنيوية.

ومن جرائم العصر تسمية الشرك توحيدًا، حيث يجعلون مجرد إفراد الخالق هو توحيد الأنبياء، وإذ قالوا هذا فإنهم زعموا أن بعض تجمعات التاريخ التي عبد فيها غير الله تعالى، ولم تمتد برسالة الأنبياء هم أهل توحيد، كما يقولون عن المصريين القدماء، وذلك لإقرار أن التوحيد إنتاج بشري يمكن وجوده بدون أنبياء وهذا كذب وافتراء على مفهوم التوحيد الذي بعث به الأنبياء، ومثل هؤلاء من يجعل النصارى مع قولهم إن عيسى بن الله هم اهل توحيد، على المعنى المتقدم، وهو إفراد الخالق، وهذا كالأول كذب وافتراء على توحيد الأنبياء؛ فتوحيد الأنبياء وإن كان فيه إفراد الرب بالخلق والرزق والإمداد، إلا أن الاقتصار على هذا دون إفراده بالتأليه والإخبات والتقديس لا يسمى توحيدًا، فسؤال غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، كما أن صرف نوع من أنواع العبادات كالذبح لغير الله شرك وكفر بالله تعالى، وهذا هو شرك الأمم التي أرسل لها الأنبياء، كما أن من توحيد الله تعالى الخضوع لأمره وقضائه في شؤون الحياة كلها، وهذا هو بعض ما اعترضت عليه الأمم السابقة لما جاءهم الأنبياء به كما قال أهل الأيكة لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ، وما اعتراض قوم لوط عليه السلام إلا لدعوته لهم إلى ترك جريمة اجتماعية يأتونها هي إتيان الذكران من العالمين؛ فالتوحيد هو عمل وسلوك وأقوال لا مجرد تصور عقلي يثبت أمرًا غيبًا ثم ينزوي جانبًا ليترك للناس بناء حياتهم على وفق ما يحبون ويريدون، وهو ما سماه الله تعالى: حُكم الجاهليَّة، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فإعلان القرآن في هذه الآية وما في معناها مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يُبَيّن لمن أراد السير على درب خير الخلق، وعلى طريق حب الله تعالى ورضاه أن هذا هو المنطلق وهو المنتهى، فمن أجل هذا نحيا، ومن أجله نموت، وعلى فقهه نحب ونكره، ونعطي ونمنع، ونسالم ونحارب، ذلك بأن

الفقه الذي هو حكم الكتاب والسُنّة في كل تفصيلاته وجزئياته هذا هو منطلقه، وهذا هو أُسّه ومبعثه، وهو تحقيق العبودية لله تعالى، ونفي تأليه غيره.

وهذه الآية حين تبيّن مقصد بعثة الأنبياء في نهي الخلق عن عبادة غيره، كذلك هي تدل على أن عمل الأنبياء هو إرشاد الناس إلى عبادته، فعملهم نفي وإثبات، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر، إذ لا يتصور أن يترك المرء عبادة غير الله دون أن يعبد الله، كما أن عبادة الله لا تكون على وجه مقبول دون ان ينتهي المرء عن عبادة غيره سبحانه.

وأصل ذلك أن الإنسان مفطورٌ على التعبّد، فهو فقيرٌ ذاتي يحتاج إلى غيره، وهو عبدٌ في أصل خلقته، فالعبادة حاجةٌ لازمة له لا ينفكُّ عنها، إذ لا يمكن للمرء أن يكون بلا عبادةٍ قَط، فإن ترك عبادة الله ﷻ عبد سواه لزومًا لا محيض عنه، وكذلك فإن الشرك في العبادة أمرٌ لا تنفكُّ عنه البشرية في كل أطوارها، وقد أخبر النبي ﷺ أن الساعة لا تقوم حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة، كما أخبر أن فئامًا من أمته ستلحق بالمشركين، هذا مع أن هذه الأُمَّة هي خير الأُمم وهي أقل الأمم وقوعًا في هذا الباب، مع ذلك فهذا أمر يقع فيها وستصيب منه، ولذلك فالأُمم الأخرى بعد بعثة مُحَمَّد ﷺ كلهم مشركون يعبدون غير الله، فالتوحيد منذ بعثته وإلى قيام الساعة لا يكون إلا في أُمّته، وأمّا قبل بعثته فإن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) وهم الموحدون الذين بقوا على دين الرسل عَلَيْهِمْ السَّلَامْ، وهؤلاء دخلوا في الإسلام كما يثبت التاريخ ذلك، وقد كانوا قلة في بلاد الشام، وأكثر منهم في مصر.

وعبادة الله هي مقصد الخلق وغير ذلك ما يفعله الإنسان على وجه الحاجة الذاتية إنما هي تابعة لذلك لا أصل، وليس كما يقول الجاهلون، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال، فمعناها: ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة، وبهذا تفهم المعنى المتقدم. واللام في الآية للتعليل وهي غائية، ولا التعليل الغائية هي التي تأتي لبيان الغاية من الفعل، فقد تقع وقد لا تقع، وهم يفرقون بينها وبين اللام الموجبة؛ أي توجب الوقوع كقولهم انشقت الأرض للزلزال، فالمعلول مبنيٌّ عليها وهو لازم الوقوع.

وهذا التوحيد الذي أمر الله به الرسل رتب الله عليه أحكام الشرع كله، فقد أحلَّ الله به الدماء وحرّمها، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ وقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وحرّم به الفروج وأحلها فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وقال: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وجعل عقد الأخوّة بين الناس على هذا العقد فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. وجعل قبول الأعمال منوطًا بالإيمان فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾، ثم تكون خاتمة البشر يوم القيامة على حكم التوحيد لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

ولا يحصل الأمان في الدنيا والآخرة إلا به لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ والقرآن لا يمدح إلا المؤمن، بل ويجعل التوحيد هو شعار المدح لأوليائه وأصفيائه، فالله يمدح عبده إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقد مدح الموحدين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ○ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ○ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[١٢]

هذا دليل على أن السياق ما زال حول الملائكة وما يقال عنهم، وهو الذي يرجح ما تقدم أن السؤال في قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ هو سؤالٌ استنكاري، وأن الضمير في:

[١٢] الأنبياء: ٢٦-٢٨

﴿اتَّخَذُوا﴾ يعود إلى الملائكة عليهم السلام. فالله عز وجل ينفي ما اتهمه المشركون من جعل الملائكة الذين تقدم وصفهم بعدم الاستكبار وإدامة التسبيح والعبادة بلا فتور أنهم أولاد له سبحانه وتعالى.

وأنا أظن أن هذه الآيات ليست ردًا على مشركي قريش، لعدم معرفة مشركي قريش اسم الرحمن، وقد تقدم هذا بيانه في سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ﴾ وفيه أن القرآن يبين انكارهم لهذا الإسم كما في سورة الفرقان في قوله عنهم: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، ويشهد لذلك حديثان مذكوران في ذلك الموطن.

هذا مع أن القرآن ذكر عن المشركين في مواطن تسميتهم الملائكة أولاد الله تعالى، ففي سورة البقرة ويونس لم يذكر فيها نسبة الولد للرحمن، بل نسبة لاسم الذات وهو الله.

ففي البقرة يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾

وفي يونس يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾

وأمّا هنا في الأنبياء فجعلوا النسبة «للرحمن» وكذلك في مريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾، ولقد ذكر في بعض الكتب أن اسم الرحمن كان يعرفه أهل الكتاب. والحق أن هذا يحتاج إلى أعمال نظر لبيان هذا التنوّع، كما يحتاج إلى قراءة وبحث، والحال لا يعين على ذلك، وهو أمر قد سبق أن شغلني على الحال الذي أنا فيه من عدم المراجع فلم أهتد إليه إلى شيء أرضاه، فرحم الله عبدًا أرشدني وعلمني.

فهذه الآية تنهى تسمية الملائكة أولادًا لله تعالى، حتى لو كان على جهة نسبة التشريف، لأن أهل الكتاب يستخدمون هذا كثيرًا في كلامهم؛ أي تسمية الخلق أولادًا لله تعالى، ولذلك قال الله عنهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وهذه التسمية الباطلة هي أصل فساد النصارى في قولهم عيسى ابن الله، أو كقول بعض اليهود؛ وهؤلاء لا وجود لهم: ﴿الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ﴾، والفساد أول ما يقع في الأسماء ثم يلحق به الإعتقاد والعمل، كما قال الشيطان لآدم عليه السلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فالأسماء لها آثارها على السمع والقلب، وتوقع من المعاني بعد ذلك ما تريد، ولذلك حرص الإسلام على هذا الباب كثيرًا، وهذا من بابه كما تراه، والأسماء الشرعية لا يجوز إنزالها إلا على ما عناه الله ورسوله ﷺ، فلا يجوز تغييرها، كما لا يجوز إنزالها على غير المراد، فلا يجوز تسمية الصلاة بغير اسمها، كما لا يجوز تسمية غير الصلاة الشرعية بهذا الاسم، وهكذا كل الأسماء الشرعية كالشهيد والإيمان والتوحيد والعبادة، والشياطين تنازع المسلمين في هذا، إذ بتغيير الأسماء تغير الحقائق، وتوضع الآيات والأحاديث في غير مواطنها، فيقع الفساد؛ فهؤلاء سموا الملائكة ابتداءً إناثًا، ثم جعلوا يعظمونها بهذا الاسم

وهو أولاد الله، ثم عبدوها كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وهم لَم يعبدوا الملائكة على جهة الاستقلال، بل جعلوهم وسائط في عبادة الله، فكانت هذه عبادتهم إياه، وهذا المعنى هو أصل الشرك في الوجود، إذ يرفع المخلوق في المقام، فيعظم فوق ما هو عليه، ويجعل فيه من الأوصاف الباطلة بحجة التبجيل والتقدير، ثم يزيّن لهم الشيطان اتخاذهم وسائط عند الله تعالى، وتبدأ عبادتهم بالحب والخشية، وهما جذر العبادة والإخبات. فهكذا عبدت الملائكة، وهكذا عبدت الجن والصالحين والأنبياء، إذ الباب يفتح بالأسماء ثم تلقي هذه الأسماء على القائل والسامع معانيها فتتغير الحقائق ويفسد الوجود.

ففي هذه الآية: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ دليلٌ على عدم اعتقادهم بالولادة التي يحصل فيها نسبة الولد، بل قالوا: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾، فهو اصطفاء واحتباء خاص حتى سمي المصطفى المحتبى ولدًا، وإلا فلا يقول أحد بالولادة التي يحصل بها الولد النسبي، ولا النصارى يقولون هذا، بل لهم تفسيراتٌ أخرى في هذا الباب لا تصل إلى فهمٍ محددٍ واضح.

وهم في هذا الاعتقاد وهو قلهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ إنما يريدون إعطاء هذا المحتبى خصائص توجب صرف العبادة له، فيُسأل ويُدعى ويُخاف ويُرجى ويُستغاثُ به، هذا مع أصل اعتقادهم أن ما أعطى من الخصائص إنما هي من الله تعالى، وهذا ما نفاه الله بقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

وكما أن هذه الآلهة الباطلة تعطى من قبل عابديها خصائص توجب صرف أعمال النسك لها كما يقولون، كذلك هو حال من اعتقد أن أحدًا أعطاه حق الطاعة المطلقة دون قيد الرجوع للكتاب والسنة، فهذا كذلك من تسمية إلهًا من دون الله تعالى، إذ كل طاعة أمر الله بها لأحد من الخلق إنما هي مقيدة بحكم الله وقضائه وشرعه كما قال تعالى عن الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، واليوم تجدهم يسمون آلهتهم الباطلة مشرعين، ويشاركهم في هذه التسمية جهلة المسلمين، ولا يأنفون من ذلك، مع علمهم بقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ دليلٌ أن هذا من البهتان، وهو على هذا المعنى من جهتين؛ أولاهما القول على الله كذبًا كما قال ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١٣] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

فمن أعظم الكفر والشرك، الافتراء على الله، والتقول عليه ما لم يقل.

وثانيهما: أن هذا طعنٌ في قدوسية الله تعالى، إذ أن الله سبحانه المتكبر لا يرضى لأحد من خلقه إلا أن يكون عبدًا له، وإنما يزداد الناس قربًا لله تعالى بدخولهم في هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ وكما قال رسول الله ﷺ: ((أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)). فأيُّ قولٍ أو تصوّر لعلاقةٍ أخرى غير هذه هو طعنٌ في ربوبية الله وقدوسيته وكبريائه جلَّ في علاه، وهذا هو من أعظم الشرك والكفر، فالله يقول: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

فإدراك الخلق أن الله رب كل شيء وخالقه، وأن غيره مربوب له محتاج إليه في وجوده وحياته وقيامه على نفسه، يمنعهم من تصور اي علاقة غير علاقة العبودية بينه وبين خلقه، حتى من أكرمهم وخصهم بالقرب منه كالملائكة والأنبياء والصالحين، وهذا المعنى يلقي على قلب قارئ القرآن معنى الوجود كله عامة، ومعنى وجوده في هذه الدنيا، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فسبحانه جل في علاه، يسبح له الوجود كما يسجد له، ولا يخرج عن هذا إلا بعض الخلق ممن تنتظرهم جهنم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ هذه هي مرتبتهم عنده، وهي أعلى المراتب، إذ أنهم لعبوديتهم الله التي تقدم وصفها في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ رفعهم الله بأن جعلهم: ﴿مُكْرَمِينَ﴾، وهي مرتبة قرب

---

[١٣] يونس: ١٨

من الله تعالى، كما هي مرتبة اصطفاء، أعظم ما فيها هو عملها التي تقوم به، وهي العبادة؛ فالعبادة هي مرتبة إكرام بذاتها، لا لما يحصل لها من آثار وجزاء، فهذا الجزاء أمر زائد من الكرم والعطاء، لكن أعظم الإكرام هو الدخول في ذات المرتبة، إذ لا يدخل الله تعالى أحدًا في مرتبة العبودية والطاعة إلا من هو مكرم من الله تعالى، وهذا دعاء ابراهيم عليه السلام لنبيه حين قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ وهو دعاء موسى لنفسه وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وسيأتي في هذه السورة أن هذا اصطفاء وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾؛ فعبادة الله تعالى مرتبة تشريف بذاتها، إذ لو لم يكن إلا هي بلا جزاء لكان تحقق العبد بها نعمة وعطاء يوجب شكرًا وحمدًا لله تعالى كما قال الله عن المهتدين في قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فكانت العبودية لله نعمة تستوجب هذه المقالة العظيمة من الحمد لله تعالى.

فجنس الملائكة قد أكرمهم الله باختصاصهم في هذا المقام، وهو تسبيحٌ دائم لا يفتَر ولا يَنقطع، بل عبادة موصولة، ولا جزاء لها، بل هي الفعل والجزاء، وبهذا تعلم مقام العابدين، وأنه مقام إكرامٍ واصطفاءٍ إلهي، وأن مقام العصاة والمعرضين هو مقام عذابٍ بذاته، ومقام طردٍ مذموم، ولو لَم يكن لهم إلا هذا المقام حيث تغيب عنهم نعمة العبادة والتذلل والخضوع وتسبيح الله وتقديسه لكان هذا كافيًا في العذاب كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾.

والجهلة في هذا المعنى هم الذين يظنون أن أهل المعصية في نعيم وراحة، وأن أهل الطاعة في تعب وشقاء، والأمر كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، وكما هو أمر الشهداء، فإن الناس يرونهم في دمائهم وأشلائهم المقطعة، وهم في النعيم والسعادة، بل ويتمنون ان يعودوا للدنيا من أجل العودة غلى لحظة السعادة والنعيم التي عاشوها لحظة الشهادة، فهي لذة الروح والبدن والنفس بما لا يعرفه أهل الدنيا في شأنهم كله.

ومن أجل هذا المعنى كانت آيات الله بالامر والنهي رحمةٌ من الله تعالى، ونورًا وروحًا كما سماها القرآن، وأمّا الجهلة والمنافقون فلا يرونها إلا عذابًا ورهقًا كما قال الله عنهم في عدم رؤية النعيم في العطاء الإلهي: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. وقد ضرب الله مثلًا للفريقين حين نزول النور الإلهي، ومجيء الاحكام الربانية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ

﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، فلا يَغبط العاصي إلا جاهل، وحاله كمن غبط فاقد الحس والشم والذوق والسمع والبصر، أو كمن غبط المريض الذي يتلذذ بالقاذورات والأزبال، وهؤلاء كثر في الوجود، إذ ترى أحدهم يحسد صاحب المال الذي جناه من حرام او منع حق الله فيه كما قال الله عن سلفهم لَمّا رأوا قارون وزينته: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

ولقد كان رسول الله ﷺ من أسعد الخلق، وهو أولى الناس في دخول هذه الآية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ومثله أخوانه الأنبياء على ما وقع لهم من وقائع وأحداث زادت قربهم من الله تعالى، فحياة يوسف عليه السلام هي الحياة الطيبة، وكذا حياة أبيه حتى مع قوله تعالى عنه: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، فإن معاني الإيمان ولذته وهو يقول: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ هي أجمل وأرقى وأحلى ممن قال الله عنهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، فإنها لذائذ أشبه بلذة شارب المخدرات حيث تدمره وتفسد عليه حياته وفطرته، وهي أشبه بالمريض الذي يلعق المبرد حتى يدمي لسانه ثم يتلذذ بلعق دمه ويكون في ذلك هلاكه. وبهذا لا يكون العبد مُكرّمًا إلا إذا أدخله الله في طاعته، وأذن له في ذكره وتسبيحه والسجود له، وشعار الصالحين في ذلك: إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، هذا هو شق العبادة الآخر الذي ينفيه الجاهلون، ويأبون إدخاله في مسمى العبادة، فإن الله تعالى ذكر عن نسك العبادة وتسبيحهم وتقديسهم، وذكر هنا أمر عملهم واختيارهم فيه، وذلك أنهم عباد في الطاعة والإنقياد، كما هم عباد في النُسك والإخبات. والجهل في هذا الأمر وأنه عبادة له، وأن توحيد المرء وإيمانه يخرجه إلى طاعة هواه وطاغوته، فيتخذ من الأحكام والتشريعات غير ما أمر الله تعالى، وعلى الضد من شرعه وحكمه. وما وَصَفَ الله به الملائكة هنا من تمام عبودية هو أمر لعبيده من الخلق كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

والله عز وجل في كلامه حين يبين إستغناءه عن العصاة يجعل فعل المحبوبين له قائمًا له في تحقيق الحب والرضى، فإن الله يريد تحقيق رضاه في الخلق، ويريد تحقيق ما يحب من سماع تسبيحه، وخضوع لأمره، وحين يعرض العصاة عن ذلك فإنه سبحانه وتعالى يبين أن هذا الرضى والحب قد تحقق في غيره، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا

فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾. وقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

ففي الآية الأولى في سورة فصّلت ذكر الله قيام الملائكة بما يحب ويحقق له الرضى، وفي الثانية في سورة الأنعام ذكر قيام أنبياءه إن كفرت قريش، فالله ﷻ يضرب المثل بالمقربين وأعمالهم ليعلم الخلق ما يحده ويرضيه.

فهاهنا ذكر الله تعالى ما يحبه من عبيده، وما هو دينه الذي شرعه لهم وهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وهذه المسألة هي من قضايا الأصول وأبحاثه؛ ذكرت في بعض كتبه، وهو الاقتداء بالملائكة وهذا المذكور يشهد لصحة القول بذلك؛ أي إن أفعال الملائكة شرعٌ للمسلمين، ويُستَدَلُّ لها بأحاديث أخرى كحديث جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ.
وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((خَلَقَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ على صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً، فَلَمَّا خَلَقَهُ قال: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولَئِكَ: نَفَرٍ مِنَ المَلائِكَةِ جُلُوسٍ فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ فإنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فقال: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فَقالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ)). ويشهد لهذا كذلك قوله ﷺ من حديث أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه: ((لاَ تَدْخلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةُ تَمَاثِيلَ)) فجعل علة التحريم كراهية الملائكة له.

وأحاديث أخرى على وفق هذا، وهي تدلُّ على أن فعل الملائكة شرعٌ للمسلمين إلا أن يكون خاضعًا لهم، وأعظم ما يُحتَجُّ به ما قاله جبريل عليه السلام يوم الخندق لرسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزاب فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ووضع السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل في بيت أم سلمة من وعثاء تلك المرابطة حول الخندق، إذ جاءه جبريل عليه السلام مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ فَقَالَ: أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: فَمَا وَضَعَتْ الْمَلَائِكَةُ السِّلَاحَ بَعْدُ وَمَا رَجَعْتَ الْآنَ إِلَّا مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ، وفي رواية قال له: عَذِيرك مِنْ مُقَاتِلٍ أَوَضَعْتُمْ السِّلَاح، قال: نعم، قال: لَكِنَّنَا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدُ، اِنْهَضْ إِلَى هَؤُلَاءِ، قال: أَيْنَ؟ قال: بَنِي قُرَيْظَةَ. فأمر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ أن يكون أمره في العمل أمر الملائكة في عدم وضع السلاح حتى ينجز المهمة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ هما وصفان؛ أولاهما عدم العمل والقول في شيء من عند نفسه، بل لا يقول ولا يعمل إلا بعد أمر الله ومعرفة قوله وحكمه، وثانيهما: امتثال أمر الله في الأمر والنهي، والأول قد لا يقتضي فعلاً أو نهيًا، فقد يكون حكم الله تعالى على وجه الإباحة، أو قد يكون قولًا يتعلق بعلم غيبي، أمّا الثاني فهو الطاعة في الانقياد ولزومًا.

واختصاص ذكر امتثال الأمر هنا في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لأن الفعل أحب لله تعالى من الكف، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، مع أن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ مفهومه أنهم لا يعملون أمرًا لم يؤمروا به، وفي سورة التحريم تفصيلٌ لهذا بقوله سبحانه عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِالْقَوْلِ﴾ شاملٌ لِما هو باللسان أو القلب، أي لِمَا هو عَمَلي وما هو عِلمي.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

فإحاطة الله العلمية لهم هي على معنى ما تقدم من العلم الذي موجبه القدرة، فهي إحاطة علمٍ وقدرة، فالملائكة مع ما وصفوا من عظيم الخلقة والقدرة، إلا أن الله محيطٌ بهم، لا يغيب عنه شيءٌ من أعمالهم وأحوالهم، وذلك لأن الله بكل شيءٍ محيط، وهم خلق من خلقه.

وقال بعض أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي ما هم عاملون وسيعملون، وما عملوا من قبل ذلك، وهذا معنى حسن، فإن من جهالات المعرضين السؤال عن العمل الماضي وشأنه كما قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ لأن من عمل الملائكة الشفاعة في الدنيا بالاستغفار للمؤمنين ولأهل الأرض كما قال الله تعالى في غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفي الشورى قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، ويوم القيامة لهم شفاعة عند الله تعالى لهذه الآية، فهي تثبتها، والمنفي هو الشفاعة للكافرين، والشفاعة جعلها الله لموصوفين في كتابه بقوله: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا

كما يقول أهل العلم استثناء منقطع، فهو سبحانه إذ ينفي الشفاعة عن آلهتهم الباطلة، فهو يثبتها لمن شهد بالحق، فيدخل فيها الملائكة والنبيون والصالحون.

ونفيه ﷻ الشفاعة منهم إلا لمن ارتضى، هو على معنى قوله تعالى عن النبي ﷺ والمؤمنين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ولذلك كان ذكر قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ في سياق عذابهم للمشركين كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فحيث غضب الله على عبد عصاه، فإنه يأمر ملائكته بالغضب عليه، كما يأمر المؤمنين بذلك، وهو كما يأمر ملائكته بعذابه يأمر الصالحين من عباده بذلك كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ والعاصي في ترك العقاب كالعاصي في ترك الرحمة والله يقول عن جلد الزاني: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. والقرآن في تقييده الشفاعة كما في كل الآيات التي ذكرتها لأن الشفاعة فيها معنى الدالة، وقد يقع بالشفاعة ما لا يحبه المشفوع عنده لهذا المعنى، وقد يكون الشافع أعظم من المشفوع عنده فيوقع عليه الأمر على هيئة وصيغة الشفاعة، فلذلك نفى القرآن كل هذه المعاني وغيرها بهذه التقييدات التي تعلمها.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ﴾

فهم مع مقام الحب والرضى والطاعة المطلقة، إلا أن علمهم بربهم توجب عليهم الخشية والخوف منه، بل لا يصح مقام الحب والرضى والكرامة عند الله إلا بالخشية منه. والخشية في قلوب عابديه مبعثها عظمة الله تعالى، والملائكة أعلم الخلق بهذا، فهم يرون عظيم خلقه مما لا يرى الناس ولا الجان، وهم يرون أمره ﷻ الذين ينزله، كما أن الخشية تنشأ من معرفة عذابه لمن عصاه، وهم يرون النار وما فيها، فكل ذلك يحقق مقام الخشية منه ﷻ.

وقد يُشكل على البعض أن الملائكة وهم على الوصف المتقدم من الطاعة ودوامها، وترك المعصية كيف يخافون؟ والجواب: أن مقام الخوف ومنزلته هو عبادة للمكرمين من خلقه، فهم يتعبدونه بها لما يعلمون من أسماء الله تعالى المنتقم، ولما يعلمون من صفاته ﷻ الغضب، وعندما يعلم الخلق هذا من ربهم فإن من عبادتهم له أن يتحقق فيهم الخوف منه.

وأمرٌ آخر؛ أن علمهم بربهم وعظمته وقدوسيته وملكه، وحاله من صفاتٍ حُسنى جلَّ في علاه، تعلمهم أن كل عبادةٍ يقومون بها فإنها تستحق الاستغفار، لِمَا فيها من النقص كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ فهم يخشون ربهم لما يعلمون أن طاعتهم لله هي أقل ما يجب في جنب الله تعالى، فيصح منهم هذه المنزلة.

ثم إن علمهم بما يقع من الطائعين الإنقلاب على الأعقاب، والتغير والتبديل توجب عليهم الخشية من الوقوع في ذلك، فإنه: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهو حكم يلحق الإنسان والجن والملائكة كذلك، فلا يصح منهم الأمن من مكر الله جلَّ في علاه. واعلم أن التسبيح والتقديس لا يقع على معناه الكامل الذي يحبه الله إلا إن وقع على معنى الحب والخشية، فإن انطلق لسان الذاكر وقلبه فيه هاتين الصفتين كان تسبيحه وعبادته أعظم مقامًا وأكثر قبولًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[١٤]

وهذا الشرط لا يلزم وقوعه لقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾، والملائكة حالهم في هذا كحال الأنبياء في الطاعة والتبليغ والله يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. وأعظم الخلق جرمًا هو من نازع الله في ألوهيته، فطلب عبادة الناس له، ولذلك كان من حرص النبي ﷺ على حماية جناب التوحيد أن منعهم من القيام على رأسه، ومنعهم من مدحهم له على وجه يخرج عن حد الاعتدال ووصفه أنه عبد الله ورسوله، كما منعهم من قوله: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وكان ﷺ يفرح إذ ينسب الحمد لربه كما ابتسم لما قالت أم عائشة رضي الله عنها حين ظهرت براءتها: "قومي إليه"؛ أي إلى رسول الله ﷺ، فقالت الصديقة رضي الله عنها: "والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي."

ولذلك كان الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أهل العلم يكره أن يعبد الناس ربهم بآرائهم خوفًا من أن يقع عليهم قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. فالصالح هو من يُعرّف الناس بربهم، ويحببهم فيه، ويقرّبهم لعبادته، لا أن يجعل الناس عبيدًا له، يمتثلون له، ويعظمونه، ويصدرون عن قوله فيما يجتهد فيه.

[١٤] الأنبياء: ٢٩

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ هذا من تسمية الشرك ظلمًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وفي الحديث لَمّا نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ شق ذلك على الصحابة وقالوا: "أيّنا لم يظلم نفسه؟" فقال النبي ﷺ: لَيْسَ الأَمرُ كَمَا تَظُنُّون، إِنَّمَا المرَادُ بِهِ الشِرك، أَلَمْ تَسمَعُوْا إِلَى قَولِ الرَجُلِ الصَالِحِ - يعني لقمان -: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. والأمن الذي تعنيه الآية التي يكون فيها الظلم هو الشرك إنما هو الأمن المطلق، فلا يقع إلا بالبراءة من الشرك، ويقل الأمن بمقدار حصول الظلم الذي هو أدنى من الشرك، فإن وقع الشرك انتفى الأمن مطلقًا. فالأمن المطلق يكون بالإيمان الكامل، ومطلق الأمن شرطه وجود التوحيد ونفي الشرك.

وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فسمّى العابدين لغير الله ظالمين. وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يكون لمن طلب تأليهه مع الله، أو طلب إخلاص التأليه له، فكلاهما داخل في هذا الوعيد، مع أن عامة الشرك هو وقوع تأليه للباطل مع الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١٥]

يَذْكر الله تعالى هنا آيات قدرته الكونية، وهي موجبات تأليهه وحده، فهي دالة على قدرته جل في علاه، كما أن معرفة العبد لها توجب شكره، فهي آيات تساق للدلالة على قدرته كما تذكر للدلالة على نعمه على خلقه، فهي تثبت حقه في التأله والحمد والشكر. والآيات الكونية في القرآن لأهل العلم قديمًا فيها موقفان؛ موقف يوجب فهمها على وجه ما فهمها العرب عند نزول القرآن عليهم، وهو موقف نصره الشاطبي في الموافقات، وموقف تجعل معانيها تمتد وتتجدد بحسب ما يحصل للناس من معارف، وهذا رأي يقول به أصحابه أخذًا من حديث النبي ﷺ: ((مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ، إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ، آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ))، فالحديث يدلُّ على مناسبة إعجازه لكل حالات البشر العلمية، والناس في أمر التكوين على تغيّر وتبدُّل، فيكون ما فيه من الآيات الكونية معجزات لكل عصر بما

[١٥] الأنبياء: ٣٠-٣٣

يعلمون ويدركون. ومما لا شكَّ فيه أن الصحابة ﷺ وهم أعظم الناس إيمانًا لم يكونوا يتعمّقون في إدراك ماهيات هذه الكونيات ويشهد لهذا قول الفاروق ﷺ وقد قرأ سورة عبس فلمّا أتى على قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: "قَد عَرَفنا الفَاكِهَة، فَمَا الْأَبّ؟" فقال: "لَعَمْرِك يَا بْن الخَطَّاب إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّف."

فجعل معرفة ماهية الأَبّ من التكلف، مع علمه بأنها مطعوم لموقعها من السياق في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾، وقول الفاروق أنه من التكلف لاستغنائهم عن معرفتها، ولانشغالهم بغيرها، وإلا فإن الفهم الكامل على الله إنما يكون بإدراك مراده منه على وجهه، فمن عرف حقيقة الأَب كان فيها أعلم ممن خفيت عنه. والصحابة استغنوا برؤية آيات أخرى حصلت لهم فقوي إيمانهم بها، والناس فيما بعدهم لم يحصل لهم هذه الرؤية، وإن كان المسلم يصدق بها للخبر، لكنه كما جاء: "ليسَ مَن رأَى كمَن سمع" وفي الحديث: ((لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ))، وهم برؤية آيات الكتاب تفصيلًا وعلمهم بها تقوي إيمانهم ويحصل بها التثبيت، كما يحصل بها إقامة الحجة على الخلق ممن لا يعرف إعجاز القرآن البياني واللغوي، بل ولا يعرف العربية.

ولذلك فالتفسير العلمي للقرآن عملٌ من أعمال الجهاد، وقد حصل به خيرٌ كثير للناس، سواء منهم المؤمن وغير المؤمن، ومنافعه كثيرة، مع الحذر من المزالق، وهي كثيرة يعرفها الناس، وتكلم عليها أهل العلم بالقرآن فكفوا وشفوا، ولكن وجود مزالق وأخطاء لا يمنع صحة الأصل، فهذا هو شأن العلم وقواعده في كل باب من أبوابه وشؤونه، والناس قديمًا من أهل العلم أكثر خطأ من المتأخرين في هذا الباب، فلو نظرت إلى تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لرأيت العجب من تصور خلق يأجوج ومأجوج، مع انهم من نسل آدم كما في حديث بعث النار، ومن علم جغرافية الأرض فهم أن الستر هو الليل، إذ أن ذا القرنين بلغ مكانًا في الشرق حيث ينتهي العالم القديم، وهو في شمالها يكون النهار فقط ولا يستر الشمس الليل، وهذا في زمن وصول ذي القرنين هذا المكان.

فكان وصول ذي القرنين إلى شرق الأرض يومذاك، وهو في شمالها قطعًا في وقت يمتد النهار بلا ليل، فهذا معنى الآية لا غير، وليس بتلك التصورات القديمة التي يقولها بعض المفسرين بحسب ثقافة عصرهم، ولا بما تقوله الأحاديث الضعيفة المنكرة التي يصححها المتأخرون دون عناية بالمعنى ومخالفة الصحيح.

والقصد أن المفسر للآيات الكونية قد يقع منه أقوال هي ثقافة عصره ونتاج أخبار لا تصح فيأتي بالخطأ، واليوم وإن كان الناس لم يبلغوا حد العلم الكوني التام، إلا أنه حصل لهم الكثير مما لم يكن للسابقين، فتفسيرهم للآيات الكونية أكثر صوابًا من المتقدمين، حاشا ما قاله المعصوم رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ قد أوتي القرآن ومثله معه، وفي الحديث من البيات الكونية التي تدل على معنى ما يدل عليه القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوآ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُون﴾ يدل على معنى فطري يراه البشر في حياتهم، وهو ما يحدثه الله من شقوق الأرض بإخراج النبات منها، وكذلك السماء بما ينزل الله منها من مطر، وهذا ما قاله العالمون بكتاب الله تعالى من الأوائل، وقال آخرون هو أن السماء كانت واحدة: ﴿رَتْقًا﴾ متصلة، ففتقها وجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض، وقال بعضهم: هو اتصال السموات والأرض جميعًا ثم فتق هذه عن هذه، فكانت السموات وكانت الأرض. ولفظ الآية يحتمل الجميع، إلا أن القول إن السموات؛ ويقصد بها السبع الطباق كانت متصلة مع الارض قول بعيد، لأن القرآن يدل أن السماوات خلقت بعد الأرض وليست معها، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ويشهد لهذا كذلك آيات سورة فصلت وذلك في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، لكن المعاصرون اليوم يقولون إن هذه الآية دليلٌ على ما يعتقده أكثر الباحثين اليوم مما يسمونه «الانفجار العظيم»، ويقولون: إن هذه النظرية هي أكثر النظريات إجابةً على الأسئلة، وشأن هذه النظرية كشأن نظرية مكونات الذّرّة، فالناس لم يروها كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾، وكذلك فهم لم يشهدوا خلق السموات والأرض، وإنما هي تصورات تتجمع من معطيات ومقدمات، ثم تتشكّل النظرية، فعلى هذا القول يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ﴾ المقصود به ما في السموات من أَجرام وأفلاك، لا السموات الطباق السبع، أي إن الكون كله كان كتلةً واحدة ثم حصل به انفجارٌ عظيم أدى إلى تكوين المجرات والشموس والأفلاك والأرض والنجوم.

والقرآن الكريم ذكر كثيرًا بداية الخلق، كما ذكر نهايته على الوجه الذي بدأ به كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كما يقول الله تعالى في نهاية هذه السورة، ولمعرفة هذا الأمر فقد كتب فيه الكثير في زماننا فليرجع إليه ففيه نفع كبير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، وهذا دليل على وحدانية الخالق ﷻ، فأن تجعل حياة كل شيءٍ في الوجود مُعلقةً بوجود أمرٍ واحد هو الماء دليلٌ على أن الله خالق كل شيء ﷻ، كما أنه دليل على أنه لا يوجد مخلوق فيه الحياة قائم بنفسه بل هو قائم بغيره، وهذا دليل على حاجة المخلوق لغيره، إذ لو كان قائمًا بنفسه لكانت الحياة فيه لا تحتاج لشيء خارج عنه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فالشيء مخلوق، ثم أن تكون فيه الحياة جعل آخر.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ عام لكل مخلوقاته ﷻ، فإنه ﷻ يقول عن الأرض: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ولما يعطيه الماء من حياة للوجود سماه الله ﷻ مباركًا كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاء مَاء مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّات وَحَبّ الْحَصِيد﴾، وسماه طهورًا كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾، فهذان وصفان عظيمان، إذ البركة يحصل بها التكثير والنماء، والطهارة يحصل بها التطييب، فهو مانح للكثرة والتطييب، فقد يكون الشيء طيبًا لكنه قليل، وقد يكون كثيرًا ولا يكون طيبًا، وهذا معنى الحياة، فإن النماء لا يكون إلا بالحياة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه أول الأمر وبأي شيء يقوم ذكر الله عنايته به وقيامه عليه بالحفظ والبقاء فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾، ذلك بأن الله سبحانه خلق الأرض على صفة تصلح بها حياة الإنسان والحيوان والنبات، وذلك بإقامة الجبال فيها لتكون أوتادًا تحميها من الانزياح، فإن أعظم عمل لها هو منع انزلاق الطبقة العليا التي عليها حياة البشر والحيوان والنبات والأنهار والبحار، مع ما في ذلك من معاني أخرى وهي تحقيق التوازن لمنع اضطرابها، لكن تسمية الجبال أوتادًا يفيد أعظم مقاصدها الذي ذكر، وهذا أمر لم يعرفه الناس إلا حديثًا. وكون الأرض محفوظةٌ بأوتادها دليلٌ لِمَا ذُكِرَ سابقًا أنها غير قائمةٍ بنفسها، وهذا مما جهله منكروا الخالق اليوم، حيث جعلوا سُنّة الجاذبية كافيةٌ لتحقيق معنى الأرض التي يعرفون من الاستقرار والثبات، وهذا من جهلهم وغياب ما يعلمون عن عقولهم عند النظر في العقائد وأبحاثها، فإن الجاذبية لا تحقق لوحدها ما قالوه، فالجبال هي أكثر تحقيقًا لمنع الانزياح والاضطراب والتفتت.

ووجود الجبال التي هي أعظم ما خلق في الأرض، وهي أعظم ما تحتاجه الأرض في قيامها بالسُنَن المودعة فيها، من أعظم الدلائل على قدرة الله تعالى ولذلك أمر عباده بالتفكر فيها فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، وهذه الآية دليل على أن خلق الجبال كان بعد خلق الأرض. وفي سورة فُصّلت جعل الله الرواسي؛ أي الجبال فوقها، فقال ﷻ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ وهذا دليل على أن جذر الجبال لا يصل عند الأرض، بل الجبل بكل أجزائه الظاهرة والباطنة فوق الأرض، وهذا ما يعلمه هل النظر في هذا العلم من أهل هذا العصر، فإن الناس لم يكن لهم القدرة في إدراك هذا المعنى. وفي سورة فُصّلت هذه ذكر الله أن الله خلق الأرض في يومين، ثم جعل فيها الرواسي وما فيها من أقوات في يومين فكانت أربعة كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾. وأمّا حديث أبي هريرة في مسلم: ((خَلَقَ اللَّهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ))، فهذا مع وجوده في مسلم إلا أنه شاذ، ويكفي أن إمام الصنعة البخاري قد أعلّه كما في تاريخه، وكذا قال الدارقطني في الإلزامات والتتبع، ويأبى الله أن يتم إلا كتابه، ومن حاول تقويم علته من المعاصرين فقد أخطأ ولم يصب، فالمنكر منكر والضعيف يحتاج إليه كما قال أحمد بن حنبل، هذا وقد قال البخاري: "رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح." ثم ذكر سبحانه خلق السموات في يومين: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فهذا هو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. وهذه الايام قطعًا ليست كأيامنا هذه بل هي كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وهذه كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فقد نوع الله ﷻ خلق الأرض على وجوه كثيرة، إذ نوع فيها الأخاديد، كما نوع فيها وجود الأنهار او عدمها، وهل هي صحاري أم حدائق وأشجار، وهكذا؛ وكل ذلك لمعاني عدة أعظمها ما قاله ﷻ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ولو كان على وجه واحد لم يحصل الاهتداء، ولذلك فإن الناس إن كانوا في الصحراء الواسعة التي لا تغير في تضاريسها أخذهم الضلال إلا بما يعرفون من النجم، ولذلك قال ﷻ عقب آية النحل: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، فإن غابت عنهم علامات الأرض استدلوا عليها بالنجم الذي في السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وهذا دليل على أن السماء بساط والأرض لا جوف، وهو مأخوذ من قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء﴾، والطوي لا يكون إلا للبساط، بخلاف الأرض فهي مصمتة لا جوف لها، ولذلك في الحديث: ((يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ))، والله يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. وكون السماء سقفًا لأنها محيطة بالأرض كسقف البيت للبيت، والسماء في القرآن تطلق على ما هو محيط بالأرض من فضاء وذلك كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ فالمقصود من فوق الأرض، وتطلق على ما هو طباق، وهي السموات السبع، وهي المقصود عنا، وقد تفرد في ال...، وقد تجمع، ومثال الجمع الآية المتقدمة كما تقدم، وقد أجاب الطبري رحمه الله على من اعترض على الجمع وهي واحدة بشواهد فليرجع إليه من أراد. وإفرادها هنا لأن السماء الاولى هي صقف الأرض كما أن السماء الثانية سقف للسماء الأولى وهكذا إلى أن العرش سقف كل الخلق وأعلاه الجنان. وكما ترى فإن الله لما ذكر الجبال ذكر فائدتها للأرض، ولما ذكر الفجاج ذكر فائدتها للإنسان، ذلك بأن منفعة الإنسان المباشرة لما في الفجاج من تسهيل وسهول أكثر كما أنها أحب إليه. ولما ذكر السماء لم يذكر فيها إلا وصفها بأنها سقف الأرض، وذكر امتناعها وقوتها من أن ينال الناس منها كما ينالون من الأرض فقال: ﴿مَّحْفُوظاً﴾، ومن حفظها ما قاله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد ذكر الله عن السماء قوله: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وهذه الآية هي عند بعض المعاصرين دليل آخر على نظرية الانفجار العظيم، إذ لما كان لك ما تحت السماء الدنيا كتلة واحدة ثم حصل لها انفجار فتمددت وانتشرت، ثم ما زال هذا التمدد يزيد ويزيد إلى قيام الساعة، هذا مع قوله تعالى عن نهاية الكون: ﴿بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾، إذ يقول بعض أهل الفلك من غير المسلمين: إن هذا التمدد سيبقى مستمرًا إلى أن يحدث أمر ما، إمّا أن يتشتت ويتناثر، وإمّا أن يعود إلى التجمع كتلة واحدة، وكما ترى فإن القرآن – إن صحّت النظرية – يقول بعودة الكون كله جزءًا واحدًا وكتلة واحدة، وهذا هو طوي السماء وقبض الأرض والله أعلم. وقد تَقَدَّم أن بعض أهل العلم فسّر فتق الرتق في السماوات بما ينزل منها من ماء، والله يقول: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ وهو نفي للتق إذ لا فروج فيها، والجمع بينهما لا يكون إلا بما تقدم أن السموات في هذه الآية؛ أي آية سورة الأنبياء هي على المعنى الأول، وهو ما ارتفع فوق الأرض لا الطباق، وأن هذه الآية التي في سورة ق إنما المقصود بها السماء الدنيا من السموات السبع الطباق.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ والإعراض المذموم في القرآن هو التفكر الذي لا ينتج إيمانًا، أما مجرد العلم بالحياة الدنيا وسُنَن الكون فليس ممدوحًا، بل قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فالتفكر الممدوح هو الذي يؤدي إلى تسبيح الله وتعظيمه والإيمان بالدار الآخرة، وبدون هذا الإيمان فإن علمهم بالسُنَن ونظرهم في الكون قد أنتج فسادًا في الأرض، واتخذوا ما يعلمون وسيلة للظلم والقتل والدمار.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، فالله تعالى لما ذكر بداية الخلق، ثم ذكر كيفية الخلق على وجه يلائم منفعة البشر فيه ذكر الله أحوال هذا الخلق وتقلبه وجريانه، فإنه سبحانه خلق الليل والنهار، وقد جاء في آيات أخرى مقاصده من هذا التقلب؛ ففي سورة القصص قال سبحانه: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فالليل للسكن والنهار للمعاش، وفي سورة الفرقان قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فجعلهما لتحقيق الذكر الملائم لكل حالة من الليل والنهار، ولحصول الفكر والتذكر، وفي سورة الإسراء قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فزاد فيها مقصد حصول الأيام والشهور والسنين التي يحصل بها حساب الناس. وخلق سبحانه الشمس والقمر، وجعل حركتهما التي قال عنها: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بحسبان كما قال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وتواردهما على وجهٍ سُنَني هو الذي يحقق الحساب الذي تقدم ذكره في تعاقب الليل والنهار لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ يدلُّ على أمرين؛ دورانها وعلى كرويتها، وهذان أمران أجمع عليهما أهل الإسلام قديمًا، حتى ابن حزم حكم بكفر من أنكر ذلك كما في كتابه الفصل في الملل والنحل.

ومما يجب أن يعلم أن إثبات الحقائق الكونية في ديننا أمرٌ شرعي، ومنكره منكر لأمر يقيني ديني، ولذلك سمى الله تبديل الشهور كفرًا فقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ و ﴿النَّسِيءُ﴾ هو تسمية الشهور القمرية بغير اسمها ليتبع ذلك تغير أحكامها، والنبي ﷺ لعن من غيّر منار الأرض، أي علاماتها التي تتعلق بها الحقوق، وهذا ابن حزم كما رأيت يحكم بكفر منكر حقيقة كونية، فالحقائق الكونية اليقينية حكم شرعي، يجب التزامها كالتزام الحكم المنصوص في الكتاب والسُنّة، فملعون من نسب إلى غير أبيه، وملعون من طعن في الأنساب، وحكم أهل العلم بكفر من أنكر قبر الرسول ﷺ، وهكذا لتعلم أن الحقائق في ديننا مرتبةٌ واحدة، لأنهما وضعٌ إلهي كما قال

ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، ومن ذلك فإن الشرع أوجب إقامة الفِطرة، وهي أصل الخلق، فلعن من غيرها، أو بدّل فيها كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾، وما أمر المسلم بإزالته من أمور خلقته إنما تزال لضررها كإزالة شعر الإبط والعانة وحف الشارب وقص الأظافر، وإلا فالأصل هو البقاء، وفساد البشرية في حياتها إنما في إفسادهم إياها وهي التي خلقها الله على وجه يلائم حياة البشر وسعادتهم.

واعتقاد المسلم أن الوضع الكوني وحقائقه وضعٌ شرعي وحكمه يعني براءة المنهج الإسلامي من الشعوذة والخرافة، وأن التفكير يجب أن يكون على وجهٍ سُنَني، فلا يحكم على وقائع الحياة ولا الوجود إلا بما يعلم من السُنَن المبثوثة في النفس والوجود، فلا يجوز قراءة التاريخ بغير ذلك، كما لا يجوز قراءة الجغرافيا بغير ذلكن ومثلها حركة الإنسان وإنتاجه، والقدماء من المؤرخين كان لهم شغف بالغرائب كما هو شأن الإنسان كله، وهذا الشغف جعل الإنسان لقلة وسائط المعرفة يعتقد أمورًا لا وجود لها، ويفسر أحداثًا على وجه خارج سُنَن الله في الكونن فوقع في الخرافة والشعوذة، وأول ما حققه الإسلام في الإنسان أن أخرجه من دائرة الوهم والخرص إلى أفق الحقيقة، سواء ما كان من عالم الغيب أو الشهادة، وجعل من الشرك أن يعلق فعل على غير سببه كاعتقاد الأنواء في نزول المطر أو حركة الرياح، أو اعتقاد الطيرة، وغير ذلك من الخرافات التي تنسب الحوادث لغير أسبابها الكونية.

ومع إقامة السُنَن الكونية وحقائقها كذلك أقام عالم الغيب فاعلًا في عالم الشهادة، كالملائكة وإمدادهم، ونزول البركة في الطعام والماء، وأثر الدعاء في الحوادث والكوائن، وهذا كله من رحمة الله بالمسلمين، لكن لا يوجد أثر غيبي في عالم السُنَن إلا مع وجود سببه الكوني، فكل حوادث نزول البركة في الطعام والماء كانت مع وجود الطعام والماء، لا أن يوجد الطعام والماء من لا شيء، لا لأن الله لا يقدر الإيجاد من العدم سبحانه، فهو خالق كل شيء من لا شيء، لكن لإقامة سُنَن الوجود ومراعاتها، فإن إلغاءها طعن في حكمة الخلق، ولا يكون هذا إلا لمعجزة، ولهذا كان النبي ﷺ يراعي السُنَن كما يراعيها الخلق في أمورهم، ويدعو أصحابه لذلك، فكان حرصهم كما قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وما جرى لهم من حوادث الحياة كانت كلها على وفق السُنَن في الدفع والقدرة، فلم يغلبوا أعداءهم وهم في مكة بلا سلاح وقوة، وفاتهم النصر في أحد لتخلف أسبابه، وهكذا فعظمة هذا الدين أن تحقق نصره وفق السُنَن مع مدد الغيب الذي كان ينزل لعلة الإيمان والطاعة والاستغاثة.

ومما تعجب للمسلمين اليوم خلافهم في مسائل فقهية مبعثها اختلافهم في أعمال ما علم الناس من سُنَن يقينية، ذلك كخلافهم في رؤية هلال رمضان، والله يقول: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وبعض من لو سكت لكان خيراً له يقول عن علم الفلك اليوم هو علم الفلك قديمًا، فما أنكره الأقدمون من اعتماد الحساب في رؤية الهلال يجعلونه حجة في إنكار اعتماد علم الفلك اليوم في الرؤية وإثبات وجود الهلال، ولذلك يقع من الحوادث ما يضحك الثكلى حيث يعتمد رؤية مطعون في دينه يجري لإثبات رؤية الهلال من أجل المال الذي يكافأ عليه الرائي، فيصوم الناس على رؤية هلال لم تستطع كل آلات الدقيقة رؤيته ولكن رآه هذا الفاسق، وهذا من أعاجيب المسلمين اليوم، وهي كأعاجيب من يعتقد أن يأجوج ومأجوج موجودون في مكان خلق السد، وهم محجوزون خلفه، ولا يعرفهم الناس، كما أنهم لا يعرفون العالم حولهم لإحاطة السد بهم، ويصححون أحاديث طعن فيها أئمة الحديث قديمًا، وجاء المتأخر فصححهما على طريقته، وإن سألتهم أين هؤلاء الناس؟ قالوا: هم خلف السد، فإن سألتهم أين السد الذي يختبؤون وراءه؟ قالوا: هو مخفيٌّ عنّا. ولا أدري هل هؤلاء مكلفون بالإيمان بمُحَمَّد ﷺ أم لا إن كانوا على هذه الهيئة التي يتصورونها، حيث لا نراهم ولا يرونا. والحديث الذي أقصده في حجة هؤلاء هو ما روي عن أبي هريرة مرفوعًا: ((إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا فَيُعِيدُهُ اللَّهُ أَشَدَّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَاسْتَثْنَوْا فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيُنْشِفُونَ الْمَاءَ وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَّ[16] فَيَقُولُونَ قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ فَيَبْعَثُ اللَّهُ نَغَفًا[17] فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا[18] مِنْ لُحُومِهِمْ)) وهو حديثٌ شاذ.

والقصد أن الرغبة بالغرائب تجعل البعض يستحسن ما كان على خلاف السُنَن، ويزداد الأمر شرًا حيث ينسب للدين ويحارب قائله بسيف السُنّة والحديث دون اعتبار لقواعد أهل العلم، ولا لقواعد الحق والسُنَن، بل الكثير منهم يعلق الأمر على الاحتمال العقلي، وهو باب لا يفعله العلماء بل الجهلة، وآخرون يحملونه على القدرة الإلهية، وهو باب يرتجف منه البعض، لأن رده يعني نقض القدرة الإلهية المطلقة، وينسى هؤلاء أن الله تعالى خلق الخلق على وجه سُنَني، وأمر الناس الإيمان به والعمل والفهم على وجهه لا مناقضته. وهذا الباب أعلم أن بعض

[16] اجْفَظَّ: ترجع سهامهم وقد امتلأت دما فتنة لهم.
[17] نَغَفًا: دوداً.
[18] شَكَرًا: تمتلىء شحماً.

من انتسب للسُنّة سينكره وخاصةً اعتماد رؤية الهلال على الحساب الفلكي المعاصر لأن البعض جعل هذه المسألة في منهجه من مسائل الاعتقاد، وكأن المخالف لها مخالفٌ للسُنّة، وهذا من الخطأ المنتشر المشهور، وكأن هؤلاء يرون الوسيلة هي المقصود لا الهلال وتولده او وجوده، ولعدم الاهتمام بالمقصد بل بالوسيلة هي التي جعلت المسلمين طوائف عدة في الصوم والإفطار.

أمّا اعتقاد أمور على خلاف سُنَن التكوين فهي أمور كثيرة في حياة المسلمين، وسبب وجودها إمّا الأحاديث الضعيفة أو المكذوبة، وإمّا أقوال علماء ثقات أقدمين قالوا بها فقلدهم المخالف لظن أن هذا العالم الثقة لا يقول شيئًا من جهة نفسه، وإمّا أفهام مخطئة للكتاب وصحيح السُنَّة. وغير المسلمين ليسوا بُرآء من هذا بل جهالاتهم أشد، ولهم حماقات تضحك الثكلى، ولا يغرنك الصور، إذ لا تعجب من عالم ذرّة يؤمن ببركة روث البقر، أو عالم جيولوجيا يشعل شمعة ليطرد أرواح الموتى وغير ذلك مما هو فيهم، وهذا الأمر يدلك أن الشرك والخرافة أمر ملازم للبشرية في كل أطوارها، ولا وجود لما يسمى بالتقدم الإنساني في باب العقائد والمفاهيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[19]

لقد تَقَدَّم وصف الله لأنبيائه بأنهم بشر، وقال سبحانه عنهم: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، وذكر ما يقابلهم من خلقه من الملائكة على الوجه الذي رأيت، وها هنا يتكلم الله ﷻ عن رسوله ﷺ، وأنه على سُنَن السابقين في الحياة والموت، فهو ﷺ وإن لم يأت بآية على الوجه الذي حدث للأنبياء السابقين رحمة بأمته من أن تستأصل إن كفرت بها كما كفرت الأُمم السابقة بآياتها، إلا أنه ﷺ تجري عليه سُنَن الوجود في الحياة والموت. والآية هذه تشعرك بأمر وذلك لقوله تعالى فيها: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ وكأنها تردُّ على تصورٍ شركي قالت به قريش لرسوله ﷺ، وذلك بربط دينه بحياته، فحيث تنتهي حياته ينتهي دينه، وأمّا هم فلكثرتهم فإن بقاء نسلهم بقاء لدينهم، ولذلك – والله أعلم – قال الله لهم: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾، ذلك بأن الكل ميت، فإن عيروه بموته الذي سيكون لأنه بشر منهم كذلك بشر سيموتون.

وهذا الاشتراك في الحياة والموت لا ينقص قدر النبي ﷺ، ولذلك قال بعدها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، فإنهم وإن كانوا كلهم إلى موت، ولكن فرق بين موت من عمل خيرًا ومن عمل

[19] الأنبياء: ٣٤-٣٥

شرًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. وهذه الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ تدلُّ على عدم جواز التغيير بالموت، ذلك لأنه قدر لازم لكل مخلوق، فإنه إن لم يصبه اليوم أصابه غدًا، ولذلك وجب الاعتبار لا التعيير. كما أنها تدلُّ أن الدين بقاؤه ليس مرتبطًا بشخص الرسول ﷺ، فإن تمنّى الكفار موته، وهو ميتٌ لا محالة فإن دينه باقٍ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.

وكأن في الآية كذلك أن قريش فكرت بقتل الرسول ﷺ، فنبه القرآن أنّه إن سبقهم بالموت فسيموتون ويرجع الكل إلى الله، وقد قال القرآن هذا في موطن آخر في قوله تعالى في سورة الزخرف – وهي مكيّة –: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾، وتدلُّ على أن لا أحد قبل النبي ولا بعده لم يصبه الموت لا الخضر ولا غيره، وهي نص في الباب، والخلد في الآية معناه كما تراه طول الأمد لا عدم الفناء البتة، فقد نفى الخلد عن أحد قبله، أي لم يدركه أحد من السابقين إلى يومه ﷺ إذ أصابهم الموت جميعًا، وهذا أحد معنيي الخلد في القرآن ويحمل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ أي مكث طويل وإن كان له نهاية، وهو الإعتقاد الحق، إلا أن يكون المقصود كما قال بعضهم: من قتل مؤمنًا لإيمانه، وهي على قاعدة: تعليق الحكم بالمشتق تؤذن بعلية الاشتقاق، والتفسير الأول أقرب، والله أعلم.

وذكر الموت خصوصًا في وصف عوارض البشر لأن الموت ومقدماته هو أعظم معاني الضعف في الخلق، فهو قاهرهم، وهو محيط بهم، إذ كل شيء له دواء إلا السام؛ أي الموت، والناس يدفعون الحر والبرد، كما يدفعون الجوع والخوف، كما يدفعون الفقر والألم، لكنهم لا يقدرون دفع الموت، فهو أعظم مظاهر الضعف فيهم، وهو أشد ما يكرهون وقد قالت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكِ؛ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ هذا تعليل لخلقهما، وهذا دليل أن الشر مخلوق، وها هنا بمعنى ما تكرهه النفوس، فهو شر لها، لكن لعلته هو خير، ولذلك في الحديث: ((وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))، وقوله ﷺ: ((عَجَبًا

لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ))، وهذا دليل أن الخير والشر اعتباريان بحسب فهم المرء لهما.

وقوله سبحانه: ﴿فِتْنَة﴾ أي ابتلاءً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تنبيه أن الموت ليس النهاية، بل هو بداية مرحلة أخرى، هي الحياة بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[٢٠]

ردٌّ على كفار قريش الذين كانوا يستهزؤون برسول الله ﷺ، وأنه بشرٌ مثلهم، يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، فجعلوا بشريته سببًا للإستهزاء به أن يتخذ الله بشرًا رسولًا، وهذا البشر جعل جهده أن يطعن في آلهتهم. فهذا مبعث استهزائهم أن يطعن بشر بهذه الآلهة العظيمة في نظرهم، وإذ كانوا كذلك فيكفيهم جهلًا أنهم وهم بشر كذلك يكفرون بالله، فمن أولى بالاستهزاء إذًا؟ هل هو البشر الذي يطعن بالآلهة الباطلة، أم البشر الذي يكفر العالمين؟

وهذه الطريقة من الشر التي يقع بها الكفرة في نسيان ما يفعلون من الباطل، ويتعجبون جهلًا من فعل الحق الذي يأتي به الأنبياء وأتباعهم كما قال تعالى عنهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾، فأنتم إذ أنكرتم القتال في الشهر الحرام فإن ما تفعلونه من الضلال هو أشدُّ من ذلك، لكن هذه هي طريقتهم، وهي مسلك أتباعهم من بعد وإلى يومنا هذا، إذ يأتون بالجرم العظيم ثم يهولون ما يأتيه أهل الحق، فهم يعطون لأنفسهم الحق أن يقولوا عن رسول الله ﷺ كل ما هو بريء منه، فيتهمونه في صدقه وفي أمانته وفي عقله، فإن قيل لهم أنتم كفرة بالله وبرسوله صرخوا: "هذا سبٌّ لنا ولديننا." ثم تطرد هذه القاعدة في كل منازعة بين أهل الإسلام وبينهم، فإن قتلوا المئات من غيرهم كان هذا عدلًا ومشروعًا، وإن صرخت مستنكرًا فأنت كاره للعدل، وإن انتصرت فأنت إرهابيٌّ بغيض، وإن سلبوا الديار

[٢٠] الأنبياء: ٣٦

كان هذا تحقيقًا ونشرًا للسلام، وإن عاندت كنت مجرمًا عدوًا للسلام؛ فكل قبائحهم حق عندهم، وكل جرائمهم ضد غيرهم مبررة ولها معاني حسنة جميلة، وأمّا مجرد الإعتراض عليها فوحشية وإجرام وعدوان.

والقرآن قرر في ثلاثة مواطن الحق في المكافأة وذلك في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وهذا الصبر في الحقوق الشخصية لا حقوق الله.

وفي سورة الشورى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

وفي سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

ويشهد لهذه المواطن قوله في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾.

وأمّا أحاديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود والترمذي: ((أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)) فلا يصح، ولا تلتفت إلى تصحيح الحاكم في مستدركه أو ابن السكن، ولا إلى تصحيح المتأخرين له، فإن أساطين أهل العلم على رده، فقد استنكره أبو حاتم الرازي، وقال الشافعي: هذا الحديث ليس بثابت، وقال أحمد: "هذا حديث باطل لا أعرفه من وجه يصح." وقول الترمذي: "حَسن"، قول صحيح فإن الحسن عنده ما فيه مطعن كما عَرّف ذلك في العلل الصغرى، لا كما يظن الكثير أنه تقويةٌ له.

وهذا الإنكار القرآني على ميزان الكفرة في الفعل والعلم يرشد المسلمين إلى عدم الاهتمام بهم، وعدم إلقاء الأذن لهم فيما يقولون ويحكمون، بل يكفي المسلم أن يعلم أن الله قد حكم بهذا فيفعله دون أن يقيم شأنًا لجهالات المخالفين الذين يهرفون بالباطل، ويصرخون بالكذب لتنفير الناس من الحق، وهذه الفتنة وهي تهويشات الباطل تجد أذنًا صاغية من جهلة المسلمين وضعاف الإيمان ممن يعنيهم أن يرضى عنهم الآخر، أو يبتسم لهم، بل هم على استعداد أن يغضبوا آلاف المسلمين ولا يهتز لهم جفن مع جبن وخور من أن يلتفت كافر لهم بنظر تساؤل فقط، وهذا كله من آثار الهزيمة التي تعيشها الأُمَّة أمام خصومها. هم لهم الحق أن يتكلموا عن الإسلام، وعن المسلمين، كما لهم الحق أن يحشروا أنفسهم في حياة المسلمين وفي بيوتهم، بل بين الرجل وزوجته، والأب وابنه، لكن لك الويلات إن تكلمت عن مبادئهم وتاريخهم، فمجرد كلمة في اتهام خبر تاريخي مزور يرجونه تحارب وتسجن وتعاقب. ولذلك فالمؤمن المعتز بإيمانه والواثق بربه وبحكمته وبعدله، والمصدق لرسول ﷺ يرى أن ما ينعقون هو مجرد طنين ذباب يعرض عنه ويحتقره، ويمضي إلى ربه وإلى مقاصد دينه دون اعتبار لدعاياتهم وأبواق إعلامهم وزنادقتهم الذين يروجون لهم الباطل في أوساط المسلمين، وإن من أعظم معوقات الطريق ومهلكات

المقاصد أن ترسم مناهج الدعاة، أو أن تغيّر وتُبدّل من أجل مراعاة خواطرهم، أو في سبيل كسب تعاطفهم، لأنه من أجل تحصيل ذلك يجب عليك أن تتنازل عن كثير من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، كما يجب عليك أن تقول بالكثير من الباطل ممن لا يرضاه الله تعالى، وهذا واقع كثير من تجمعات المسلمين وأحزابهم، ولذلك تذهب عنهم عوامل النصر والقوة.

واعلم أنك في جوف عدوك، وتحت سلطانه، وتسير ضمن خطوط عمله ومناهجه إن لاحظت رضاه، أو حاولت أن تخضع لموازينه في الحكم والعمل، وهو بهذا فرح بك، مرتاح من جهتك، وحين تخرج من ذلك فأنت على سبيل نصر ومصدر قوة وتوجه حكيم إلى مقاصد دينك، وهذا يعني أن تشتد عداوتهم لك، فيسعرون عليك الحروب، ويشعلون النيران حولك، وهي مقدمات تحصيل الغايات والأهداف، فالحق مبتلى من خصومه، لكن شدة الابتلاء يعني صحة الطريق الموصل إلى النصر والرضى الإلهي.

وهذه الآية: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تعلمنا امتحان مصداقية الآخر في دعواه، وذلك من خلال رؤية تطبيقاته لمبادئه حتى لو كانت غير صحيحة في أصلها، فإن إلزام الآخر بما يقول أدعى في نقض صدقه. وهي كذلك تعلمنا أن الباطل لا يكشف من داخله دون طرح الحق الذي يقابله، فإن إنشاء الآلهة الباطلة أمر نفسي، حيث يكون تعظيمها في قلوب أصحابها، ونقض هذا الوهم لا يمكن تحقيقه في مستواه النفسي إلا بقول الحق الذي يقابله، وهو الدعوة إلى الله الإله الحق، فيصدم الباطل وتتهاوى دعواه في نفس صاحبه إن كان مجرد الوهم هو الذي يحكمه لا الكبر والاستعلاء. وهي كذلك ترفع الخصومة بين الداعي وأعدائه من وضعها الشخصي كما يحاولون ذلك، حيث استهزئ به، إلى خصومة بينهم وبين الله مرسل الرسل، إذ يقول الله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، فجعل إجرامهم ليس مجرد الاستهزاء بالداعي إنما كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية، فالعداء حول القيم ابتداءً، ولا يسمح بجره إلى الأشخاص كما يريدون بالاستهزاء والطعن والتنقيص في حامل الكلمة أو المجاهد، لأن هذا أسلوبهم المتبع دومًا من زعمهم عدم معاداة الحق وإنما معاداة من يتلبس بالحق من أجل مقاصده كما يزعمون، فيبدأ الداعي بالإنشغال في رد التهمة الشخصية، وتطرد الحالة حتى تنسى المبادئ والقيم. فالخصومة في الله، ويجب ابقاؤها هكذا، حتى يفوت على المجرمين خدعتهم ومكرهم بالناس، وهذا يتم حول سؤالهم دومًا: لمن الحكم؟ ومن الإله الحق الذي يجب أن يعبد ويطاع؟

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٢١]

حين ينذر الإنسان باليوم الآخر ولقاء الله تعالى، وحين ينذر بعذاب الله في الدنيا بنزوله عليه فإن الكافر يشكك في مواطن كثيرة بسؤاله المنكر للحقيقة: متى؟ وسبب هذا هو جهله بالعواقب، واغتراره باللحظة الراهنة، وغفلتهم عن العواقب، فهذا هو الإنسان في أصل خلقته كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ وكون الإنسان كذلك يعني أن يأتي الشرع الإلهي بتقويمه، فإن الشرع كما ذكر في مواطن أخرى لا يأت على وفق عثرات الإنسان وضعفه كما تبنى المبادئ الوضعية الجاهلية، لكن الشرع يقوم ضعف الإنسان ومزالقه، ومن ذلك العجلة، فقد أمر بالصبر والأناة، كما أمر بمراعاة السُنَن لتحصيل المقصود، وهي التي لا تحصل إلا بوجود عامل الزمن كالولادة والبلوغ وإثمار الأشجار وغير ذلك مما هو مطلوب للإنسان ومحبوب له.

والاستعجال ضعفٌ بشري، إذ فيه فترة في الإرادة، وقلة بصر بالأمور، وتحول عن المقاصد الشريفة ببنيات الطريق وسفاسفها، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ بقوله في حديث خباب بن الأرت: ((وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعجِلُون)). والإقامة على الشيء حتى يبلغ مقصده، وتتحقق معالمه هو الصبر، وهو قسمان أولهما: الصبر على العمل الذي يحقق المراد، وثانيهما الصبر على عامل الزمن اللازم لانضاجه، إذ في أحوال كثيرة لا يكون للعامل إلا الإنتظار حتى يأتي موعد الآخر ليقطف. والانسياق وراء ضعف ومرض الإستعجال حالة طفولية يقع فيها الأطفال وأشباههم الذين لم يخبروا الحياة، ولم تعركهم تجاربهم، كما يقع فيها ضعفاء اليقين على الوعود فتبهرهم مغريات الطريق فيجلسون على زهرتها الذاهبة حيث يتلهون بها عن معالي الأمور الموعودة لأمثالهم في خاتمة المسير، كما ينجرُّ إليها مُخَنَّثي الإرادات الذين تُكسَرُ هِمَمَهُم أمامَ الفتن اللازمة للثبات وتحمّل تبعات الرحلة.

هذا ولم يجعل الله تعالى أمرًا في هذه الحياة يناله المرء إلا بالصبر والبراءة من مرض الاستعجال والثبات على المبدأ الذي حمله من بداية الطريق، وهذا أمر مطرد في مطالب الدنيا والآخرة؛ ففي هذه الآية يقول تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وفي سورة النحل في مطلعها يقول الله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهي آيات تنهى عن هذا المرض الإنساني الأثيم الذي يضيع عليه الدار الآخرة بما يرغب من زهرة الدنيا العاجلة.

[٢١] الأنبياء :٣٧-٣٩

ونهيُّ القرآن عن الاستعجال يعني أن الخير كله في هذا الوجود وفي الآخرة لا يكون إلا بعد رحلة، ولا يتحقق إلا بصبر وثبات ويقين، فالذي يطلب أجر عمله وإجابة دعائه وذهاب العسر وتأويل رؤياه شرط بلوغه ذلك عدم الإستعجال، فكل هذه وغيرها وعود ربانية في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، والله ﷻ يبذلها في أول الطريق، ثم تبدأ الرحلة صانعة الوعد على وفق سُنَن إلهية وحكمةٍ ربانيّة حتى تصل إلى نهايتها التي قع فيها الوعد وتتحقق البشائر والخيرات، وحينها يحمد القوم السرى، ويقول المؤمنون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ على معنيين بحسب السياق؛ آيات يوم القيامة، وآيات العذاب الدنيوي، والأولى أولى بحسب السياق، فإن الآية التي تليها تتحدث عن وعد يوم القيامة، هذا مع أن آيات العذاب الدنيوي هي من علامات يوم القيامة بالنسبة لمن نزل عليهم القرآن من قريش، فإن ما حصل لهم من هزائم، ثم من مات من كبراءهم، ثم ما فتح الله به على المؤمنين مكة هو كله من بيات يوم القيامة، وهي من الوعد الإلهي للمؤمنين وللوعيد الإلهي لهم.

وهذه الآية حين تجمع مع قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الفعل له ظهوران، ظهور خفي، وذلك من خلال مقدماته اللازمة له، وظهور معالم الشيء والتي هي جزءٌ منه، وأهل الفراسة هم من ينظر إلى الأول ويراعيه ويفهمه، وأما رؤية معالم الشيء والتي هي جزء منه فمرتبة أدنى مع أن بعض العميان لا يرونها حتى تحل بهم بكاملها.

ومما يُقرّب لك الأمر أن يعقوب عليه السلام لما قص عليه يوسف عليه السلام رؤياه علم أن سيكون لها مقدمات لازمة لها فقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، فهذه المقدمات وإن كانت ليست جزءًا من الشيء إلا أنها لازمة له، ولا يكون الشيء إلا بها، ففي شرط له مع أنها خارجة عنه، ثم يكون الشيء، حيث تظهر علائمه حتى يتم ويستوي.

فكون النبي مُحَمَّد ﷺ آخر الرسل يعني أن الحياة آذنت على صرم، وتمت واستوت، فأُمّته آخر اليوم وليس بعدها إلا يوم القيامة، وحيث هي كذلك فإنها منصورة على أعدائها باقية حتى يأتي أمر الله تعالى.

فها هنا يقول الله: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ وفي النحل يقول: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ذلك بأن قدوم شرط الشيء يعني قدومه، والشيء لا يكون قدومه على وجه حسن إلا إن كان له من البيئة ما يتلاءم معه، وإلا فهو ذاهب حتى لو تم من جهة نفسه، ولذلك فإن الأمر لا يكفي تمامه ليستقر، بل لا بدّ من تمام البيئة المحيطة له كذلك ليدوم، ومن تفكر في قصة يوسف عليه السلام علم هذا على وجهه، كذلك من تفكر في وقائع أحداث المدينة بين الأوس والخزرج وقتل كبرائهم في بعاث قبل هجرة الرسول ﷺ علم أن الله إن أراد شيئًا هيّئ له أسبابه وتلك حكمة الله تعالى وتدبيره.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهذا من استعجالهم الجاهل، فإن المرء حين يصدق خبرًا ويكون فيه النذر فإنه ينشغل بالإعداد له والخوف منه، أمّا أن يرده لعدم قدومه، فهذه جهالةٌ وسفاهة، وهؤلاء الكفرة لما رأوا أن وعد الآخرة وقيام الساعة قد أنذرت به كل الرسل ولم يحصل إلى يومهم ذهبوا يكذبونه كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ○ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ○ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهكذا يقلب الله الأُمم والأقوام الكثيرة، فيهلك أُمم ويحيي أُمّة، فبدل أن تتعظ الآتية ذهبت تتخذ خلافتها لغيرها سببًا لدوامها وعدم فنائها كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وقد تَقَدَّم لك كيف ردَّ الله تعالى على تساؤلهم الجاهل هذا في مواطن من كتابه، وأمّا ها هنا فإن الله تعالى لم يرد على سؤال "متى؟" ولكن ردَّ عليهم بكيف سيكون عليهم ذلك اليوم، وهذا يسمونه «جواب الحكيم» كما يقول السكاكيني، فإن هذا ما يجب أن يشغلهم، وهو الأهم لهم، ثم إن هذا جواب الرب سبحانه وتعالى، فإنه جلّ في علاه غني أن يسايرهم في أسئلة الاستهزاء والإنكار والتكذيب.

فقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، ذلك بأن النار المحيطة بهم من كل جانب؛ من أمامهم ومن خلفهم؛ هذا إن كان تساؤلهم عن يوم القيامة، أمّا إن كان تساؤلهم عن العذاب الدنيوي كما يقول بعض أهل التفسير، فإن هذا الجواب يكون بيانًا عقوبة لتكذيبهم آيات العذاب في الدنيا. وفي هذه الآية بيان عجزهم من جهة أنفسهم من دفع العذاب، وكذلك بيان عدم الناصر

من غيرهم في هذا، فانعدمت قدرتهم كما انعدم الناصر لهم من غيرهم. ولقد ناسب موضع العذاب في هذه الآية العجز عن الكف وعدم الناصر، فذكر أن العذاب على وجوههم وظهورهم، فإن الإنسان يدفع ما يأتيه من وجهه، ولا يستطيع أن يدفع ما يأتيه من ظهره إلا بالناصر، وإلا ففي آيات أخرى ذكر أن العذاب يأتيهم من جهات أخرى كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وهذا الموطن من سورة الزمر وافق كون المؤمنين في غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، فقوبل الكفرة بظلل النار من فوقهم وظلل النار من تحتهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[٢٢]

وبهذا اجتمع أمران في العذاب، ثم يقع العذاب فجأة، وهذا من مكر الله في أعدائه في الدنيا، وأمّا عذاب الآخرة، فإنه مع بغتته إلا أنها بغتةٌ لا تقع بسبب انتظار، وهي بغتةٌ حتى مع علم المرء بها، فإن شدة آلامها وعظم هولها كاف لتحقيق البغتة التي وصفها الله تعالى، وقد قال الله عن حال الكافرين وهم ينظرون إلى جهنم: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، وأمر جهنم مع كل وصف الله تعالى لها في كتابه إلا أن حضورها أمام العين أمر آخر، فكيف حين يدخلها هؤلاء، وها نحن نسمع عن يوم القيامة، ونعلم عنه ما أخبر الله به، وما أخبر به رسول الله ﷺ ومع ذلك يقول الله عمن حضره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن خوفهم من النار، فإن الرحيم هو لاذي يخوف غيره ما يؤذيه ويشق عليه، والنار هي أعظم العذاب، إذ أنها غضبه جلَّ في علاه التي لا رحمة فيها، ونار الناس اليوم في الدنيا هي مخففة عن نار الآخرة، فغمسة فيها تنسي أكثر الناس نعيمًا في الدنيا كل ما ذاقه، والعاقل هو الذي يعمل جهده للنجاة منها، وأشقى الناس هو من استهزأ بها واتخذها مادة للفكاهة والضحك كما يفعل المجرمون، والشيطان يغريهم تحت دعوى الجرأة والشجاعة وعدم الخوف منها، مع ما يعلم الناس من جبنهم، إذ أن هؤلاء المجرمين لو وقف أمام شرطي من الشرطة الظالمة لاصطكت ركبتاه جبنًا وخوفًا، لكنه يستهزئ بآيات العذاب ووصف النار، وذلك لتكذيبهم لها، وهي التي لعظمتها أشفقت الملائكة على نفسها وعلى الناس.

[٢٢] الأنبياء: ٤٠

والعبد في هذه الدنيا إن خاف الله وعذابه كان أشجع الناس، إذ أن ما يهدد به طواغيت الأرض الناس ليس بشيء أمام عذاب الله، فخوف المؤمن من ربه ومن عذابه يمنعه من خوف ما سواه، وأما من لم يخف عذاب الله فإنه سيخاف كل تهديد ووعيد يلقاه في دنياه كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، فالمعذب الشقي من كان من أهل النار، والسعيد من عافاه الله منها، فاللهم عافنا واعف عنا يا رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[٢٣]

هذا من تطمين قلب رسول الله ﷺ ومن كان على طريقته في الدعوة إلى الله تعالى، فإنّه ﷻ لما رد عليهم استهزاءهم، وذلك من جهة نفسه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فبيّن من أولى بالاستهزاء والضلال، كان قولهم هنا ردًا لآثار هذا الاستهزاء عن قلب رسول الله ﷺ، فإن للكلمة آثارها على النفس الصادقة الأمينة، حتى وهو يعلم كذبها وضلالها، فهذه النفوس تأبى التكذيب والاستهزاء، وتتألّم مما تلاقيه من المكذبين، فتأتي الآيات جابرة لها، لتثبت وتقوى، وذلك بتعليمها أن هذه سُنّة أمثاله من المرسلين السابقين، وأنه ليس بدعًا من الرسل، ولا أن ما يلاقيه شيء آخر غير ما لاقاه اخوانه، والشيء إن أتى من معدنه لا يستغرب، وهذا أمر تكرر ذكره في القرآن؛ أي تذكير الرسول ﷺ بسيرة إخوانه من الأنبياء فيما لاقوه وعانوه من قومهم.

ثمّ إن من تمام الجبر والتثبيت أن يذكره العاقبة التي وقعت بالمستهزئين، وذلك بوقوع عليهم ما استهزؤوا به من العذاب والهلكة، فإنهم أنذروا بآيات الله من الاستئصال فجاءهم هذا، وقد تنوع العذاب عليهم الذي استهزؤوا به كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وكان أعداء النبي ﷺ أن عذبهم الله بجنوده من المؤمنين فقال لهم وقد رماهم في قليب بدر: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

[٢٣] الأنبياء: ٤١

ووقوع العذاب عليهم بما استهزؤوا به هو من وقوع الوعد الإلهي الصادق، كما فيه من العبرة للمعتبر، وهذا يعلمك أن الحقائق لا يضرها الكلمات الباطلة، ولا المعاني النفسية الكاذبة، ولا مشاعر القبول أو الرفض، والقرآن علم المسلمين هذا بقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، والشيطان وجنده حين يشغبون بهذه الأصوات والكلمات إنما يريدونصرف أهل الحق عنه، ويستجيب لهم ضعاف الناس، إذ باستهزاء المجرمين بالحق يصاب مرضى القلوب بالعار الذي يؤمنون به، فيبدؤون بالإنسحاب عنه خجلًا منه، وأما المؤمن فإنه يقول: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذا الاستهزاء والسخرية واديهم الذي يتخذونه في كل زمن، وإلى يومنا هذا، إذ تؤلف الأشعار والطرائف ضد الدين وأهله، وضد عبادتهم وزيهم وهديهم الظاهر، بل ويستهزأ بالأحاديث التي يحتجون بها في دينهم كاستهزاء شياطين الإنس اليوم بحديث: ((فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ))، أو استهزائهم بالحور العين التي يسعى لها المؤمنون المجاهدون، هذا وقد ذكر الله تعالى أن الاستهزاء بالدين وأهله كفر بالله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقد ذكر أهل العلم أن من استهزأ بسُنّةٍ من سُنَن رسول الله ﷺ كفر بالله تعالى، وأجمعوا على ذلك.

أمّا أعظم الناس جرمًا اليوم في هذا الباب فهم الذين يستهزؤون بحملة الوعود الربانية، الثابتين على هُدى النبي ﷺ بلا تبديل ولا تحريف، فيصفونهم بالمجانين حينًا، أو بصغار العقول حينًا آخر، وهؤلاء لا يعلمون أن هذا من الكفر الذي ينقض أصل الإسلام في القلوب، فإن الاستهزاء بسُنّةٍ من السُنَن كاللحية ليس بأولى بالكفر من الاستهزاء بالإيمان بالوعد الإلهي في وقت الاستضعاف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢٤]

ينبههم الله تعالى أن عذابه إن جاءه لا يرده شيء عنهم، لا في الليل والنهار، فلا عاصم من أمر الله تعالى إن جاء إلا من عصم، إذ كل شيء قد أحاط الله به علمًا وقدرة، وهو خاضعٌ لقدرته وجبروته، فالناس أمام ربهم ضعفاء، فلا قوة لهم تحميهم، ولا آلهة باطلة تمنعهم، وأمّا ما هم عليه من الكلاءة والحفظ فإنما هو بحفظ الله وكلاءته، ولو خلى بينهم وبين أنفسهم لما قاموا بها، لأن الله تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت.

---

[٢٤] الأنبياء: ٤٢

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيه أن ما بهم من النعم كالحفظ إنما هو برحمة الله تعالى، مع أن الموطن موطن عذاب الله تعالى، وهذا كقوله ﷺ: ((وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ))، فإنه لا يحفظ الإنسان من عذاب الله إن جاء إلا رحمة الله ﷻ، فوجب الفرار منه إليه كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

إنها رسالة الله تعالى إلى رسوله ﷺ وإلى السائرين على دربه أن الإيمان لا تتحقق معانيه إلا في النفوس الشجاعة والقلوب الثابتة، ممن لا يرهبهم وعيد الطواغيت، ولا صراخ البهائم، ولا حرائقهم مهما بنوها وشيدوها، وأن الفتيان هم مادة هذا الفعل وهم عدته.

إنها رسالة الله تعالى إلى رسوله مُحَمَّد ﷺ وإلى السائرين على دربه أن الملة الإبراهيمية لا تستقيم في نفس امرئٍ حتى تهون نفسه عليه مما يلاقيه في سبيل الله، فهي عنده من الله، ولله وفي الله، ومن كرامة الله تعالى له ولها أن يشتريها منها ويجعلها تبذل في سبيله.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا على إِبْرَاهِيمَ﴾[٢٥]

هذه مع حقيقة وقوعها كما هي فإن من أعظم ما تريد تجليته لأهل القرآنأن النصر الإلهي للمؤمنين مخرجه انقلاب المحنة منحة، والبلاء نعمة، وهذه على القاعدة القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، فإن العدو يريد الكيد بالمؤمن، ويريد عذابه، وما يتحقق للمؤمن من معمعة بنيان الخصم هو حصول النعمة له، فيراها الخصم عذابًا، وتكون للمؤمن رحمةً، فقد كان ظاهر النار لأعداء الخليل عذابًا، وكان باطنها له بردًا وسلامًا، وهذه سُنّةٌ جارية مع السائرين على الدرب الإبراهيمي الرشيد، فالشهيد وأنت تراه مضرجا بدمائه، وقد قُطّعت أوصاله وتناثرت أجزاؤه فتظن أن الألم كان شديدًا، وأن عدوه قد حقق المراد منه غيظًا وحقدًا، ولكن الرسول ﷺ يقول: ((مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ، إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مَسِّ الْقَرْصَةِ))، ولعلم النبي ﷺ بلذة مذاق الشهادة عند أهلها فإنه قال: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ))، وكذلك المحبوس في سبيل الله والمقَيَّد فإن عدوه يظن أنه حقق الألم فيه، مع أنه يقول كما قال ابن تيمية رحمه الله: "لو جازَ لي أن أشكر ظالمي على ظلمه لشكرته على سجني" أو كما قال، وصدق والله؛ فإن المبتلى في سبيل الله تعالى تهب عليه النفحات حتى لتأخذه العبرات فرحا بها كأنه زفّ الى

[٢٥] الأنبياء: ٦٩

عروس، إذ تصبح المعاني حقيقة، فيذوقها ويخوض فيها، فيقشعر بدنه كأنها مسّ حبيب أصاب جلده، وخصمه يقهقه فرحا أنه عذبه، وأنه في النار التي صنعها، وهي والله عنده البرد والسلام والنعيم واللذة.

فهذه السُنّة الربانية مع أهل البلاء تتجدد مع كل شهيد، ومع كل مبتلى، ومع كل قائم لله بحجة على الخلق، وإنما يهرب من هذه المقامات من لا يعرف حقيقة المعاني، ومن كان بهيميَّ الحس بليدَ الشعور، وأصحاب القلوب الواجفة الضعيفة يخافون الوقوف أمام النيران أو أمام الجموع والسيوف، كما أن اسم السجن والقيد يميتهم هلعًا، وهذه مقدمات تحقيق هذه اللذة الإيمانية، إذ لا بُدَّ لمن أراد هذه المراتب أن يحس ألم القيد ورهبة الموقف فيصبر ويثبت ثم تأتيه رحمة الله تعالى وتغزوه نفحات الإيمان. ولو سألت هل هذا وقع لرسول الله ﷺ وقد اقتدى بأبيه الخليل عليه السلام في الثبات، فالجواب نعم، فمن قرأ قصة الحبيب ﷺ في هجرته علم كيف صارت نار قريش بردًا وسلامًا على ابن الخليل عليهما السلام.

ثمَّ لا تنسى أن الصبر هو النصر، فإن الله تعالى وقد قصّ علينا قصة الخليل عليه السلام فإنه قصّ علينا قصة أصحاب الأخدود، حيث حرقت النار المؤمنين، وقد قال الله تعالى فيها: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي الكفرة ممن أوقد النار، إذ جعل الله المقتول هو القاتل، وهو من أعظم النصر، فإن الكل الآن عند ربه، الظالم والمظلوم، ولكن شتان بين مقام الصابرين ومقام المجرمين.

وقد نتساءل ما معنى أن يصرف العذاب عن أحد ثم يقع على الآخر وكلاهما في درب الإيمان والابتلاء، فالجواب أن تعلم أن مراد الله فيك خير من مرادك لنفسك، وليس لك أن تبحث عن لِمَ بل الواجب أن تنظر إلى نفسك وكيف تؤدي عبودية الله فيما أنت فيه، فإن نجوت فليس من أجل نفسك، بل من أجل القيام في ساحة أخرى، وموقعة أخرى تحقق فيها عبودية الله تعالى، وإن ابتليت فمقامك مقام الصبر والدعاء والثبات، وبعض الناس يخطئ في فهم آيات القرآن حين يختار منها الحالة القرآنية التي يحب دون النظر إلى حكمة الله تعالى في الفعل ولا إلى واقعه الملائم له، ولأضرب لك مثالا مع أنها كثيرة، فإن بعض المسلمين يظنون أن قوله تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ هو حالة شاملة لكل حروب الكفار مع المسلمين، وقد يعجب ويتساءل ويحتار في تفسير وقائع كان الأمر على خلاف هذا، بل كان الكفار هم المهاجمين، والمسلمون يقفون وراء جدر كما وقع في الأحزاب، وهذا الناظر في هذه الآية يغفل عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فهاهنا يخبرنا القرآن أن الكفار هم الزاحفون كما وقع في بدر وأحد،

ولذلك يجب العلم بوقائع القرآن كلها، ومعرفة كل واقعة وما يلائمها، فإن وصف القرآن في سورة الحشر لحالة القتال كانت حيث وصل المسلمون إلى هذا المستوى من القوة وقد قال النبي ﷺ بعد الأحزاب: ((الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَا))، فهذه حالات تتلاءم مع واقع القوتين المتصارعتين.

ومثل هذا فهم بعضهم لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ فلا يتصور أحدهم في الجهاد وعلى كل أحواله إلا هاتين الحالتين ؛ النصر أو الشهادة وهذا خطأ، فهذه مرحلة متقدمة حيث نزلت سورة التوبة، وقد بلغ المسلمون يومها أن يتوجهوا إلى الروم وليس فقط إلى داخل الجزيرة العربية، والله يقول قبلها في وقت نزول أحد في سورة آل عمران: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فكان يومها اختيارات قَدَريّة أخرى غير النصر والشهادة، وهي حالة الصبر، إذ يدخل فيها البلاء بكل أنواعه كالسجن أو الجلد أو النفي، ولقد سمعت ورأيت من يشكك في وعود القرآن بسبب جهل هذا المعنى القرآني، كما أن بعضهم يشكك بالاختيار الإيماني في مواقف حين لا يتحقق ما يظن من العاقبة في الموقعة، وهو خطأ من الجهتين، فإن الواقع الإيماني له عواقب شتّى تتلاءم مع حكمة الله تعالى ومع سُنَنه في الوجود جلَّ في علاه.

فالمطلوب هو الموقف الإبراهيمي من الرشد والثبات والصبر، وترك العاقبة بيد الله تعالى فيما يحب لك، وما يُقَدِّرُ من أقدارٍ في هذا الوجود، وهي أقدارٌ ستنتهي إلى عاقبة واحدة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

والعبد حين يخلص قلبه لله وطلب الدار الآخرة فإنه يعلم أن ما يتحقق في الأرض من وقائع إنما هي زيادة على الأصل كما قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. ومن الفقه الواجب في هذا الأمر أن الآثار المترتبة على الأعمال والمواقف الإيمانية ليست قاصرة على زمن حضور أصحابها، بل هي تمتد بعد موتهم، فإن الخليل عليه السلام حين أذن بالحج لم يحضر أذانه إلا القليل لكن الله تعالى جعل ملايين البشر من المؤمنين بعده يستجيبون لندائه، وكذلك أفعال زوجته هاجر عند البيت الحرام مع ابنه اسماعيل عليه السلام، فقد جعل الله أعمالها نسكا من أعمال الحج، فإن أنجى الله الخليل عليه السلام ليقع له الآثار بعد ذلك من أبنائه الأنبياء كما سيأتي، وما قام بها من أفعال من هجرة تحقق بها بناء البيت الحرام وغير ذلك من الأعمال، فإن السائرين على دربه من التضحية يقيمهم الله صدى إيمان لمن بعدهم، وعلائم جهاد للسائرين على الطريق، فإن الطريق هذا لا تشغله كلمات الإيمان فقط، بل معالمه تقام بكلمات الله وبأولياء الله من الدعاة والمجاهدين والعلماء.

والقصد أن العبودية تعني إسقاط الاختيار، وتمام الاستسلام لأمر الله فيما يدبر لك ويختار جلَّ في علاه.

فإن قيل فما فائدة ذكر عاقبة النصر لإبراهيم عليه السلام والأنبياء من قبله ومن بعده، فالجواب أن الأنبياء هم واقع الدين كله في أزمانهم، وحالهم هو حال النبي ﷺ في بدر لَمّا قال: ((اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ))، وغيرهم ليس في هذه المرتبة فقد يهلك الواحد والجماعة ويبقى الدين، كما قتل أهل بئر معونة زمن رسول الله ﷺ ولم يكن هلاكهم هلاك الدين ولا زواله، فالممتنع هو هلاك أهل الحق كلهم فلا يبقى أهل الحق والعابدون لربهم، والله عز وجل يحقق النصر لأوليائه كما يكرمهم بالشهادة كذلك.

ثمّ إن ذكر نصر الله تعالى لأنبيائه ليعلم المهتدين بالقرآن أن الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والكفرة لن تنفذ إرادتهم في أوليائه إلا على معنى يريده كما قال السحرة رضي الله عنهم بعد إيمانهم لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، وليعلم المهتدين بالقرآن أن دينه سينتصر، وسيكون دون النصر شهداء يقتلون ويحرقون كما قال رسول الله ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه: ((كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ))، فقد كان هذا حال أتباع الأنبياء عليهم السلام قبل تحقق النصر النهائي للأنبياء ومن معهم ممن بقي دون تقتيل، فالمسلم الصادق في إيمانه إنما يريد نصر الدين، كما يريد بلوغ الجنان، فالأولى من النصر لا تهمه إن وقعت له ومعه، أو وقعت بعده وكان هو وقودها، ودمه هو نورها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسَرِينَ﴾[26]

بهذه الآية تعلم أن كل المشاهد التي صنعوها، والحكم الذي أطلقوه لم يكن إلا «كَيْدًا»، إذ لم يأتوا بأمر على وجه طلب الحق ولا تحقيقه، بل هي مشاهد مصنوعة وأقوال خداع وأكاذيب. وبها تعلم أن إرادة الله أقوى وفوق كيد أعدائه ومكر المستكبرين والطغاة، وأن الله تعالى حين يترك لهؤلاء بعض الأجل فإن له سبحانه مراد حق في ذلك كما يقول في خاتمة هذه السورة: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، فاللحظة الراهنة ليست الخاتمة، وكيد الكافرين وطغيانهم وقدرتهم في صناعة أبنية الجحيم لن تحقق لهم الخاتمة التي يخططون لها، فهذه إرادتهم: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وهذه الخاتمة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأخْسَرِينَ﴾.

[26] الأنبياء: ٧٠

والقرآن في كل مواطن مواجهة الخليل عليه السلام مع قومه لم يذكر لنا إلا نجاته وهجرته ثم ما أنعم الله عليه بعد ذلك، ولم يأتِ فيه أيُّ خبرٍ عن قومه وماذا حلَّ بهم. والذي تفيده الآيات فقط أن النصر الذي تحقق للخليل عليه السلام، والخسران الذي تحقق لقومه هو نجاته من بين أيديهم، وهذه تكفينا، فهي تعلن معنى الهزيمة كما تعلن معنى النّصر في الهدي القرآني، فإن النصر ليس مفهومه حالة واحدة وهي تحقق هلاك الخصم، بل مفهوم النصر أوسع من ذلك، ومعناه هنا هو بطلان إرادة الخصم فيك حين تكون أنت مجال الفعل لضعف قوتك، وهي أعظم خسارة له، إذ كيف تبطل إرادته (كيده) فيك وهو القادر وأنت الضعيف؟ وكيف لا تنفذ مقاصده مع وجود كل أسبابها دون موانع منك؟!

إن الإنسان ليجد العزاء أن يهزم من مثيل له في قوته، أو أن تبطل إرادته فيه لقوة الموانع، لكن أي عزاء سيذهب عنه غيظ قلبه وهو يرى «اللاشيء» كما يراه ينفذ من قبضته؟! إن هذه اللحظة ستقتله، وستهيج عليه آلامًا وآلامًا مبرحة هي أشد عليه من ألم الهزيمة من عدل له، ولذلك قال الله في وصف حالهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾، إذ طاشت مقاصدهم، وبطلت إراداتهم، وانماث كيدهم، ولم تنفعهم أبنية الجحيم.

والآية صريحةٌ في هذا المعنى إذ جعلت شق فعلهم: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وكان ما يقابلها: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾، فكان معنى الخسارة هو عدم تحقق مرادهم الخبيث.

والله عز وجل وصف هجرة رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر في قوله: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا﴾، فكان نجاة الرسول صلى الله عليه وسلم من أيدي قريش هو النصر، وفيها معنى آخر، وهو أن مقدمة الشيء جزءٌ منه، فلمّا كانت الهجرة مقدمةٌ للنصر كانت كذلك. ثم تأمّل المقابلة في الآية بين الإرادة والفعل، فهم أرادوا فلم تنفذ إرادتهم، ولكن الله جعلهم ولا رادَّ لقضائه.

وإن من معاني هذه الآية العظيمة أن الله تعالى جعلهم الأخسرين لأنهم أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيدًا، إذ كانت هذه العلة، فلم يذكر جلَّ في علاه العلة كفرهم وشركهم، مع أنهما سبب الكيد له عليه السلام، لكن ربط الخسران بالكيد به يدلك على عظمة مقامه عند الله تعالى، وأن الكيد بأوليائه يحقق الخسران بالمريد الكائد، وهذا تحقيقٌ لحديث الولي: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[27]

في هذه الآية معاني:

– أن كيد قومه لم يتوقف بعد نجاته من النار، بل تواصل، ثم تحققله النجاة منهم بعد ذلك بأن هاجر إلى الله تعالى كما قال تعالى في الصافات: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ فإن النجاة لا تكون إلا من كيدٍ وخصومةٍ وعداوة.

– إن مشهد النجاة من النار حقق إيمان فرد واحد فقط، إذ جاءت الأخبار أنه لَمّا أُلقي في النار قال: "اللَّهُمَّ إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ"، فلم يكن عند إلقائه في النار أحد معه، ثم حصل أن آمن له لوط عليه السلام كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾.

– وهي تفيد أن الكيد والأذى لاحق هذا المؤمن كما كان يلحق بإبراهيم عليه السلام فإن الله تعالى جعل النجاة لهما في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾.

– الرعاية الربانية، والقيمة في معيار القرآن إنما هو الإيمان، فإن الله تعالى ساقَ هذه الأخبار، وأقامها في الوجود مقام العبرة والاتعاظ والأسوة لا لكثرة العدد فيها، ولا لشيء من القيم المادية، إنما لأمر واحد فقط هو قيمة الإيمان، فقد ذهبت الجموع الكثيرة، وبادت الأقوام، ولم يبقَ لهم خبر بل كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾، فالذي بقي هو إبراهيم عليه السلام وخبره، والحق الذي دعا إليه، ثم أقام من نسله الأنبياء، وقد ختم الوجود بنبي عظيم من نسله هو سيد بني آدم مُحَمَّد ﷺ، فالذين يلاحقون الجموع، وتسرقهم الأعداد دون اعتبار قيمة الإيمان، ودون النظر إلى معيار الإيمان في هذه الجموع إنما يجمعون هباءً وزبدًا فارغًا، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ لتعلم أن الركب لا يكون بالعدد بل بما معه من الإيمان والحق. وإذ يسكت القرآن عن خبر الجموع التي خلفها ركب الإيمان المهاجر من إبراهيم ولوط عليهما السلام فلأنها غثاء بشر، وجموع ضلالة، وحين تكون كذلك فهي عند الله لا شيء.

– والقرآن إذ يذكر لوط عليه السلام قبل حدث الهجرة ثم يدخله لتعلم أن صفحة الإيمان التي لها شأن في عين الله تعالى لا تغلق، فإنه إن فاته مواقف فإن للإيمان مواقف أخرى لا تتوقف كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ووقائع الإيمان بفضل الله تعالى ورحمته لا تنتهي.

[27] الأنبياء: ٧١

- والقرآن في كل مواطنه لا يذكر لنا موطن الخليل عليه السلام ولكنه يذكر لنا موطن هجرته وهي: ﴿الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وهي أرض الإسراء والمعراج كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، وسيأتي ذكرها عند خبر سليمان عليه السلام.

وذكر الهجرة إليها يدل على فضل هذه الهجرة وفضل الإقامة فيها على معنى البركة التي جعلها الله فيها، وهي بركة العبادة كقوله ﷺ: ((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِد: المِسْجِدِ الحَرَام وَمَسْجِدِي هَذَا وَالمِسْجِدِ الأَقْصَى)) أو بركة الجهاد، وقد ذكر هذا المعنى في تفسير سورة الإسراء.

- وجعلها مباركة «للعالمين» ينفي ما قصره بعض أهل التفسير البركة بما فيها من زروع وثمار، فإن هذه لم تكن للعالمين، بل الأراضي المحيطة بها سوى الجزيرة العربية لا تحتاج إلى ثمارها لاستغنائها بما فيها من الزروع والثمار، والصحيح أن البركة فيها بما كان فيها من نبوة وعلم وجهاد في سبيل الله تعالى، وهي الأرض التي أعطيت جزاءً لبني إسرائيل بعد خروجهم من أرض مصر إكراماً لهم على صبرهم كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

فإن قيل: فإن الله تعالى أخبر في سورة المائدة أن موسى عليه السلام دعا بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة فامتنعوا كما قال سبحانه عن قوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، وفي الخبر القرآني أنهم امتنعوا فحرمت عليهم كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فما هي هذه الأرض؟

فالجواب: هذه التي حُرموا منها هي بيت المقدس، وهي التي الأرض المقدسة، فإنهم وإن دخلوا الأرض المباركة حول بيت المقدس إلا أن بيت المقدس ومدينته قد حرموا منها لما علمت من خبر سورة المائدة، ولذلك فقد فرق الله بين اللفظين، إذ جعل ما حولها مباركا، وأمّا هي فمقدسة.

وفي الآية أمر ينبغي العناية به، وهو لفظ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾، فإنه يدلك على ما تقدم من معنى النصر لمثل حال إبراهيم عليه السلام، وهو أن نصره هو النجاة منهم، وهو من أعظم النصر الذي يناسب حاله وحال لوط عليه السلام، والزنادقة في زماننا والجزم أنهم في كل زمان يسمون هذا هروبًا، ولو وقعت هجرة المصطفى ﷺ لاستهزأ بها الزنادقة

أن يخرج نبي عظيم يعد أتباعه بكنوز كسرى وقيصر على الهيئة التي تمت، ولقالوا فيها الأقاويل، ولربما وقع استهزاؤهم في قلوب بعض الضعفاء من المسلمين، كما يقع اليوم من إنجاء الله عباده من الدعاة والمجاهدين حين يخرجون على وصف الكلمة القرآنية: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ فتبدأ آلة الاستهزاء من أفواه الزنادقة بالقدح والتعيير، وهم يفعلون ذلك من غيظ قلوبهم، ولو وقع هذا الداعي أو المجاهد في أيدي أعدائه لشفيت قلوبهم السوداء الحاقدة، ومن فقههذا الأمر لم يضره هؤلاء ولا صخبهم وضجيجهم الخبيث، ولنظر إلى ما ينفع الإسلام والمسلمين في نفسه وما يجب عليها، وفي سُنّة الأنبياء ما يسعد قلبه ويكفيه. فالنجاة من أيدي المجرمين ليست عارًا، فإن النبي ﷺ يقول: ((الْحَرْبُ خُدْعَةٌ))، وفي قصة مؤتة وقوله ﷺ لهم: ((الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)) الهداية والشفاء من حرب هؤلاء واستهزائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[٢٨]

ذلك بأن إسحاق عليه السلام كان على كبر كما في القرآن في مواطن، وأما بكره فهو إسماعيل عليه السلام، وهو الذبيح خلافا للتوراة ومن تأثر بها من أهل التفسيروالتواريخ، والقرآن صريح أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، والتوراة وإن اعترفت أن إسماعيل عليه السلام هو بكر إبراهيم عليه السلام إلا أنهم ينفون أنه الذبيح مع تصريح التوراة أن الذبيح كان ابنه الوحيد إذ فيها كما في النص: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه، إسحاق" وهذا تناقض فإسحاق ليس ابنه الوحيد باعترافهم، فدلَّ أن اقحام اسم إسحاق هو من التحريف والبهتان. وأمّا نفي اسم الابن عن اسماعيل عليه السلام لأنه ابن أَمة فهو من جهالاتهم بوضع دينهم على أساسٍ عِرقي لا قيمي، فإن إسحاق عليه السلام هو أبو يعقوب وهو جدهم فحسدوه، والمقصود باليهود يومها هم بنو إسرائيل، وأمّا عامة اليهود اليوم فليسوا من نسله بل هم من يهود الخزر الذين تهوّدوا.

أمّا أن القرآن صريح أن الذبيح إسماعيل عليه السلام فلما ورد في سورة الصافات، فإن الله قال عنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فلما انتهت قصة الذبيح قال الله عقبها: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا

[٢٨] الأنبياء: ٧٢

﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فكانت بشرى إسحاق عليه السلام بعد بشرى الغلام الحليم والذبح، وقبل إسحاق عليه السلام لم يكن له ولد إلا إسماعيل عليه السلام، وهذا بين صريح لا خفاء فيه.

ومن الدلائل أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، أن بشرى إسحاق كان معها بشرى يعقوب، ويعقوب هو ابن إسحاق فكيف يأمره بذبحه صغيرا مع وجود البشرى بوجود نسل له؟! فلو وقع هذا لكان في علم إبراهيم عليه السلام أنه لن يذبحه لوجود عقب له فبطل معنى الابتلاء وهو المقصود من أمر الذبح.

وهذه المسألة وإن كانت من مسائل التاريخ إلا أنها ساحةٌ من ساحات التنازع في الأنساب، والمسلم لا يفرق بين رسل الله تعالى كما قال تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ لكن يرد على المنازع حين يكذب في حقائق الأنساب وما فيها من أعمال. وذكر المن الإلهي بالولد على إبراهيم الخليل عليه السلام بعد ذكر الهجرة كما في سورة مريم وهذه السورة لأن المهاجر يخاف انقطاع النسب، حيث يقطع صلته بأهله والأقربين ليذهب غريباً بين ناس آخرين، فهذا من تطمينات القرآن للمهاجر إن عاش ونجا، فإن للمهاجر أحوال أخرى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو حال آخر غير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ بل هو داخل في ما بعدها في قوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وهذه الآية؛ أي التي في سورة الأنبياء دليلٌ أن يعقوب ولد لإسحاق عليهما السلام في حياة إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً﴾ دليلٌ على ما تَقَدَّم أن إسحاق بعد إسماعيل عليهما السلام، وهي دليل على أن الولد داخل في قوله: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ فهو نافلة. ومن علمك بأن قصة تحطيم الأصنام وهو فتى، فكان الخروج قريبًا من ذلك، لكن هذه الهبة الربانية كانت على كبر منه كما قال الله عنه في سورة الرعد: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، ولم تكن زوجته أُم إسحاق سارة غير ذلك قالت عن نفسها كما في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى آلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، وكما في سورة الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ فإن هذا من تمام العطاء للمؤمنين، ومن دعائهم كما قال تعالى في سورة الفرقان عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهو دعاء زكريا عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي من لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾. لكن وجود الولد العاق ليس إهانة للوالد، فقد قصَّ الله علينا قصة نوح عليه السلام وابنه الذي قال الله له عنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فالإيمان ليس نسباً يتوارثه الناس كما أراده الجاهلون، بل الإيمان اختيار وكرامة إلهية، فقد يختارها الولد دون الوالد كإبراهيم عليه السلام، وقد يختارها الوالد دون الولد كنوح عليه السلام، وإنه من جهالات المعاصرين أن يسوقوا أنفسهم تحت شعارات الأنساب؛ سواء الأنساب العائلية أو الحزبية، وكأن وجود نسب صالح لهم يعطيهم حق الإمامة بلا عمل، والله عز وجل قال عن الأنبياء بعد أن ذكر الأنبياء والصالحين في سورة مريم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وقال في سورة الحديد عن ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فالجدود والسابقون ليسوا ستارًا يتخفى وراءه بالباطل، وليسوا شعارًا لتسويق أهواء الخلف، ومن راقب هذا التلطي علم كثرة الجهالات في هذا المهيع. كما أن هذا يعلمنا أن لا يعير الناس بأبنائهم ولا بآبائهم فهذه هداية الله تعالى وعطاؤه، كما أنها حرمانه ومنعه، وليس للآباء ولا للأبناء فيها يد كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

ومن تأمّل انتقال النبوة من إسحاق عليه السلام ونسله إلى إسماعيل عليه السلام بعد زمن طويل، علم أن الفضل الإلهي يقع على وفق القاعدة القرآنية: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ فقد سَرَت النبوة في إسحاق وابنه يعقوب عليهما السلام ثم في أبناء يعقوب من الأسباط حتى كانت في موسى وهارون عليهما السلام والكثير من أنبياء بني إسرائيل، ثم في داود وسليمان عليهما السلام حتى كان زكريا ويحيى كان آخر الأنبياء قبل مُحَمَّد ﷺ وعيسى عليه السلام، فليس بين عيسى ومُحَمَّد عليهما السلام أنبياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ والحديث يشهد لهذا، ثم كانت النبوة في العرب من نسل إسماعيل عليه السلام؛ أي في مُحَمَّد ﷺ، وقد حسد اليهود العرب في هذا ورفضوا الدخول في ملته أنفة منهم، وهذه الخصلة اليهودية يقع فيها المتعصبون للأحزاب وللرجال في تاريخ الإسلام، وهي في عصرنا أجلى، فإن الله تعالى ينقل الفضل والبركة والعلم والجهاد في البلدان، كما ينقلها في الأقوام والجماعات، فأهل الدين والإيمان لا يمنعهم هذا الانتقال من الانضمام لراية الحق حيث كانت، وأمّا الحاسدون المتعصبون للأسماء دون الحقائق فتقف بهم جهالاتهم إلى التمسك بالشعار والاسم حتى مع فقدانه حقيقته، بل يأخذهم الحسد إلى سب هذا الجديد وتقبيحه، وتبدأ آلتهم بفرز التهم أن هؤلاء أدعياء، وأنهم

خارجون عن القيم الثابتة والرموز المستقرة، وتبدأ تجارة الالتصاق بالأوائل والسابقين مع فراغ الأبناء هؤلاء من قيم آبائهم ورموزهم، لكنها الدعاوى لتسويق الذات على حساب الآخر.

والتاريخ يثبت أن هؤلاء تنتهي بهم الحياة إلى مجرد أرقامٍ أثرية لا حياة فيها، فإن الزمن يتجاوزهم، إذ الحياة لا تعترف إلا بالإرادة الحاضرة، والفعل القائم، والعلم المدافع، وأمّا الأسماء والشعارات فهي لا تقيمُ نصراً ولا تقيمُ عملًا. وها هنا أمر؛ وهو أن هؤلاء المتاجرين برموز الماضي دون عمل يتقنون بناء المؤسسات لتسويق أنفسهم تحت ستار الشعار، فالدعوة تتحول إلى شركة استثمار، والعلم ينقلب إلى متجر تربح، وهم مع مقاصدهم في هذه المطالب إلا أنهم يريدون فوقها قيادة الناس وحبهم، وهذه التي لا تحصل لهم، إذ لا يقع في حبالهم إلا أعمش العقل فاقد النظر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٢٩]

هذا هو تفسير الصلاح الذي مدح الله به إسحاق ويعقوب عليهما السلام، وهو قوام الإنسان الذي يحبه الله تعالى ويحقق مقصد الوجود في الأرض، وهي خصال داخل الإنسان في التفاعل مع الغيب والشهادة.

فالصلاح قوامه أن تتحقق الإمامة في المرء، وكل فهمٍ آخر يخرج هذا المعنى فهو شذوذٌ عن الفهم القرآني، وقد دخلت مفاهيم غريبة على معنى الصلاح في الشخصية الإسلامية بسبب غزو الآخر وخاصّةً الفهمَ الصوفي الهندي، إذ صار معناه الانسحاب من الحضور إلى الداخل، وكلما تحقق هذا عندهم صار الأقرب في معيارهم إلى الصلاح، والشخصية النبوية في كل تجلياتها لم تكن إلا حضور الحق ضد الباطل، وقذفٌ للنور ضد الظلمة، والقرآن مع ذكره للقوام الداخلي للشخصية النبوية من عبادة وإخبات إلا أن عمودها القائم فيها هو الإصلاح وهداية الآخر، ومصادمة الباطل وتقويض وجوده، ولذلك كان أول صفة تذكر لهؤلاء الوارثين للنبوة والصلاح هو: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

[٢٩] الأنبياء: ٧٣

وهؤلاء الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ذكر الله لهم صفة خصوصية مع النبوة كما قال عنهم في سورة: ص: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾، أي كان لهم قوة، ولم يذكر هذا عن الأنبياء السابقين قبلهم بل قال الله عن لوط عليه السلام قوله لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. ولذلك تحصل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام بداية تحقق إقامة بنيان مادي للدين، وذلك باعتزال طائفة الإيمان في تجمعات خاصة، كان يتحقق فيها ما قاله تعالى من القوة، ومن تأمّل قصة يوسف عليه السلام علم هذا، وهو أن يعقوب عليه السلام كان له وجودٌ منفصل، ولَمّا دخل إلى مصر بعد أن استقرّ الأمر لابنه يوسف عليه السلام كان لهم سلطان وحكم، بل وفي القرآن إشارة إلى طاعة أهل مصر ليوسف عليه السلام من جهة الإيمان والتوحيد كما قال تعالى في سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، ولكن القرآن جعل هذا الدخول بسبب الجاه والملك كما قال أهل التفسير، وفي هذا دليل أن الملك كان في بني إسرائيل قبل موسى عليه السلام كما قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾، وهذا قبل داوُد وسليمان عليهما السلام، فالسلطان الإيماني إنما بدأ بهؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

والإمامة في الدين لا تكون إلا بالمثال الذي يحقق أمر الله تعالى في شؤون الحياة، أما فراغ المرء منها فإن القائم بالتعبد لا يحقق معنى الإمامة، لأن الناس هم الناس لهم شؤون إنسانية، وخروج المرء منها يبعده عن صورة المثال لهم، ولذلك كانت الشخصية النبوية شخصية إنسانية في زواجها وأبوتها وبنوتها وبيعها وشرائها وصحتها وسقمها كما تعرض السورة هذا الأمر، ومع هذا فإنها تحقق العبودية التي يحبها الله تعالى، حينها تحصل بهم حقيقة الإمامة للناس جميعًا، ولما رفعت صور أخرى للصالحين في التاريخ الإسلامي ولم يكن لهم هذا القوم لم تحقق بهم الهداية للآخرين، وآل بالمحبين لهم جعلهم مجرد خيال يتغنى به لا مثالًا يقتدى به، ومن تأمّل خبر هذين النبيين إسحاق ويعقوب عليهما السلام في القرآن لم يجد لهما إلا وجوداً اجتماعيًا، أي حضورهما في أبنائهم وعائلاتهم وخاصة يعقوب عليه السلام، فإنه لا أخبار في القرآن قط على إسحاق عليه السلام إلا ما يذكر عنه في سياق النبوة والمن على إبراهيم عليه السلام بولادته والتبشير به ولذلك كان مدحهم كذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ فهذه المكرمات تذكر في القرآن كخصلة تغلب على العالمين بعد استقرار سلطان الإيمان كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ولا يعني أنها ليست خصالًا للصالحين قبل التمكين والسلطان، إذ لا يقول هذا إلا ضال، لكن أن

تذكر معالم صفات مستقرة فإنها تظهر بعد الأمن أجلى من قبله بسبب الخوف أو الانشغال بواجب الوقت عن النوافل.

ومما يشهد لهذا وهو استقرارهم على معنى الأمن والقوة ما قاله الله تعالى قبل عن الخليل عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ إذ تدل أن الله جعل له في الأرض المباركة مكان أمن كما قال الرجل الصالح لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. بهذا انتهى عرض القرآن لهذه الشخصية النبوية الجامعة تحقيقا لقوله تعالى في بداية السورة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۞ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾. فهذا هو إبراهيم عليه السلام فتى، له أبٌ على دين قومه، ينشأ بينهم، ثم يدعوهم إلى الله تعالى، ويجري معه من الأحداث التي تنتهي إلى نصره وهزيمة أعدائه.

وفي هذا المثال يعرض القرآن الشخصية النبوية في العلم والعمل، وفي الرأي والاختيار، وفي الإرادة والثبات، وفي الشجاعة واليقين، كما يعرض فيها مفهوم التوحيد على وجه صحيح، فهو في شقه الأول إقرارٌ داخلي وفي شقه الثاني مواجهةٌ للطاغوت معبودًا وعابدًا، في مجاليها في ميادين المناظرة وميادين المنازلة. ومن معالم هذا المثال هو بيان حقيقة رشد الرأي بحكم القرآن، ليتحقق التفكر في معيار الرشد عند المتأسين بملة إبراهيم عليه السلام، فإن للأهواء مساراتٌ تتخلل الرأي، فيُستر الجبن بدعوى الحكمة، ويُستر حبُّ الدنيا بمصلحة الدعوة، كما يُقذف رشد الرأي الحكيم بوصف القرآن بأن الفاعل فتى لا تجربة له، ومُستعجل لا يعرف العواقب، وأن الفعل لم يزد الخصوم إلا ابتعادًا، لم يشعل الساحة إلا نارًا، فشتان بين حكم القرآن وحكم غيره، إذ لكل منهما معياره، فالقرآن معياره الدار الآخرة، ومعيار غيره آلام الطريق.

إضاءة: روى الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء من طريق سعيد بن المسيب عن أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: ((كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام)) وقال النووي في رياض الصالحين "متفق عليه." فلينظر أين رواه مسلم، إذ لا أعلمه فيه. وهذا الحديث وما في معناه كما سيأتي يشكل على البعض فيضطر من لا يعرف وجهه أن ينفيه، لما يظهر لهم أنه يخالف العدل الإلهي، أو فهم السُنَن الإلهية في الوجود، إذ يقولون كيف يأمر الله بقتل كل وزغ في الوجود حتى قيام الساعة، وإنما وقع الفعل من الوزغ الذي حضر الحرق؟!

وقبل الجواب فإن في السُنّة أمثال هذا الحديث مما نفاه البعض كحديث: ((لَوْلاَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ ، وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ ، وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ)) لظنهم أن هذه الأحاديث على خلاف الوضع السُنَني أو لظنهم أنها تفيد سراية الإثم في الأبناء من الآباء مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

والحق أنه من نظر في الوضع الإلهي للوجود وسُنّة جريان أقدارها رأى أن الله ﷻ يجعل لكل شيء بداية تتحقق بها السراية لهذا الوضع، فهذا الإنسان من ذرية آدم حصل وجوده في الأرض بفعل أبيه عليه السلام، فلا يقال إن هذا من وراثة الإثم كما تقول النصرانية، فإن الأمر القدري غير الأمر الشرعي في هذا الباب، وإذا وقع أمرٌ شرعي على جهة الوراثة كما سأبيّن بعد قليل فهذا لمعنى خاص في هذه السراية، فنزول الإنسان إلى الأرض وإن كان عاقبة لمعصية الأب إلا أن الإثم لم يلحق الابن وإن لحقه القضاء القَدَري، كما يلحق القضاء القَدَري بفعل الأب من الأمراض إلى الأبناء، فإن التشوّهات الخلقية التي تصل إلى ما يقال له الجينات تسري في الأبناء، والله ﷻ ينوع البلاء والخلق في الوجود إظهارًا لقدرته وابتلاءً للخلق، ويكفر بذلك من لم يعرف معنى حكمة البلاء في الوجود.

فالأقدار لها بدايات، وللبدايات أصحابها،وهؤلاء الأصحاب تقع منهم على جهة فطرتهم في السلوك، وهذه الفطرة كما تكون فيهم تكون في الأبناء كذلك، فآدم قال الله عنه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وقد سرت خصلة النسيان في أبناءه كما قال النبي ﷺ: ((فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ)) وهذا لإتحاد الفطرة في الأب والأبناء، وليس لسراية الإثم، فإن الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ تتحدث عن الإثم، ومن راجع شرح العلماء لحديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام علم هذا المعنى.

فالوضع القَدَريُّ في الوجود وإن كان أزليًا في العلم قديمًا في الكتابة والخلق إلا أن له بداياتٌ تقع على ما تقدم شرحه، وللسابق في الشرع فضل أو سوء، فإن كان ما بدأ به خيرًا في الشرع فله فضل السبق، وإن كان ما بدأبه شر في الشرع كان عليه إثم اللاحق كما قال رسول الله ﷺ: ((لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَ)) وهذا لفتحه باب التعريف بهذا الشر إلا أن يتوب، فآدم عليه السلام تاب الله عليه لَمّا أقرّ واعترف واستغفر فتابَ الله عليه فلم يلحقه ذنوب ذريته، بخلاف ابنه القاتل، فلحقه ذنوب المقتدين به.

فالطعام وإن كان له سُنّةٌ في الوجود إلا أن خنزه كان له بداية، وهو حبس بني اسرائيل له، وهم أول من فعل ذلك، فحصل لهم السبق في هذه الجناية الشنيعة، فالسراية لها بداية، ولا تتحقق إلا بوجود الوضع الإلهي فيها كما

هو شأن ابن آدم في فطرة الله تعالى له في خلق أبيه، وهو نفس معنى قوله ﷺ: ((لَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا))، والخيانة هنا غير المتبادر منها، إذ المقصود غير ذلك، وهو قوله ﷺ: ((خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ)).

ومثل هذا قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فإن المعترض على الحديث بما قال من قواعد سيعترض على الآية كذلك، إذ سيقال: ما بال أبنائهم وليسوا أصحاب ذنب؟ فالجواب: أن هؤلاء القوم هذه فطرتهم، ولو حكم الله تعالى عليهم بفطرتهم لكان لهم حجة يوم القيامة بالسؤال: أين الدليل؟ كما سيسأل الإنسان لو لم يقع ما وقع لأبيه آدم عليه السلام في السماء، والله عز وجل يحب العذر، فلما وقع من آبائهم هذا الفعل، واضطرد سلوكهم فيهكان حجة للعقاب، وذلك لاضطراد نفس السلوك في الأبناء، وهذا الإضطراد ليس لوضع قدري فيهم، بل هو على قاعدة الحديث النبوي: ((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) فهذه خصال يتواصون بها، ويلقن الجد الابن، والابن الحفيد، حتى اضطردت في مجتمعاتهم واستقرت فيها على ما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، والخصال تسري في الأبناء بالتلقين والتربية والمصاحبة وهذا ما وقع لبني إسرائيل كما هو مشاهد، فإن ما قاله القرآن عن السابقين هو ما كان منهم زمن رسول الله ﷺ، وهو ما يقع منهم اليوم كذلك، فهي سراية الأخلاق والقيم بالتربية والتلقين والمصاحبة وهي التي توجب سريان الحكم.

فهذا الوزغ الذي سماه رسول الله ﷺ: ((الْفُوَيْسِقُ))، وقع منه ما وقع مع إبراهيم عليه السلام لخصلة الفسق القَدَرية فيه، كخصلة الفسق في الفأر كما قال رسول الله ﷺ عنها، وعلل ذلك فعلها في الإيذاء، والوزغ إنما فعل ما فعل مع إبراهيم عليه السلام لخصلته القَدَرية فيه، وهي في أصل الوضع الإلهي في كل وزغ، قبل النافخ على إبراهيم عليه السلام وبعده، وإن كان بداية ظهور هذا الخلق وجودًا في حادثة النار، فأمر المسلم بقتله دفعًا لضرره وفسقه كما يقتل الفأر دفعًا لضرره وفسقه.

هذا وللبدايات في الشرع اعتبار، فإن أعمال الحج في الإسلام لها بدايات محبوبة عند الله كالسعي بين الصفا والمروة فإن أصل فعل هاجر في نشدها الماء للرضيع إسماعيل عليه السلام، فإن إقامة الشرع على معنى البدايات يعطيها مراد الله فيها، إذ لو خلت من هذه البدايات ومعانيها لَما فهم الإنسان وجهها ولَما وقع فيها التفكّر المفضي للاعتبار والاقتداء. فقول الله تعالى بعد ذكر قصة ابني آدم وقتل قابيل هابيل قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى

بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن الناظر في السبب يدرك أن قتل واحد هو قتل للناس جميعًا، فإن البشرية كلها من آدم ثم من أبنائه، وكان قتل أحد أبنائه قتل لذريته لو عاش ولم يقتل، وبهذا تعلم فضل البدايات المحبوبة عند الله وقبح بدايات المعاصي، ولم التشدد فيها أكثر من مقلديها من بعد.

ومن تأمّل سياق سورة المائدة، وذكر خبر ابني آدم عليه السلام بعد قوله تعالى عن بني إسرائيل عقوبة لهم من ترك دخول الأرض المقدسة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وتفكّر كيف كان هذا التيه عقوبة سرت في الأبناء مع آبائهم، وفي الذرية بعد آبائهم فهملم القرن بينهما، فإن العقوبات القَدَرية تسري في الأبناء لزومًا كما تقدم سريان الأمراض في النسل بجرائم الآباء. أمّا العقوبات الشرعية فإنها تلحق إن وجد الفعل في الأبناء، وحين يعلق الله عقوبة شرعية على ذرية بسبب معاصي الآباء فإن هذا دليل على سريان هذا الفعل في الأبناء بالتربية والتلقين والمصاحبة.

وأمّا قوله ﷺ في حديث الإسراء لما عرض عليه اللبن والخمر: ((فَأَخَذْت اللَّبَن قَالَ هَذِهِ الْفِطْرَة أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتك)) أو: ((هُدِيتَ الفِطْرَةَ، أَوْ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ)) فهذا لأمرين، أولاهما أن النبي قائد ورائد أمته، واختيار الرائد اختيار من بعده، فكان اختيار رسول الله ﷺ اللبن هو اختيار تابعيه من بعده لاختياره، والثاني: أن الأمم لها خصال تنشأ فيها بالقيم، والقيم تحصل فيهم بقادتهم وكبرائهم، كما يحصل بعضها بالبيئة والظرف الوجودي، وكل نبيٍّ من أُمّته ومن قومه، وكان اختيار النبي ﷺ للبن لمعنى في خلقة أُمّته والذي هو فيها، فاختياره هو اختيار خصال وقيم في هذه الأمة، فالأمر الأول مدحٌ للنبي ﷺ سرى في أُمّته، وفي الأمر الثاني مدحٌ للأُمَّة التي اختار الله منها سيد الخلق وخاتم الرسل، والحمد لله رب العالمين.

فالخاتمة أن يقال: إن في الخلق فطرًا يكون لها بدايات ظهور، ولهذا الظهور رواد، ويكون في ظهورها معنى يحقق العبرة للفعل في المقتدي، فأمر الرسول ﷺ بقتل الوزغ كان لفسقه كما يقتل الفأر لفسقه والحية لأذاها، ولما كانت البداية لهذا الفسق فيها عبرة للمؤمن وهو أنها نفخت على نار الخليل عليه السلام حرض على قتلها بذلك كما يحرض الإنسان على معصية الشيطان بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ وكقوله تعالى عنه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[30]

نبيُّ الله تعالى لوط عليه السلام في أغلب مواطن خبره في القرآن إنما يذكر مع إبراهيم عليه السلام، وقد يذكر استقلالاً كخبره المفصل في الأعراف والشعراء والنمل والصافات والقمر، وأمّا في هود والحجر والعنكبوت والذاريات فإنه ذكر مع إبراهيم عليه السلام، وفي العنكبوت جاء التصريح أنه آمن مع إبراهيم عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾، وهاهنا في الأنبياء جاء الخبر أنه هاجر معه، وأهل التاريخ يقولون أنه ابن أخيه، والنبي ﷺ يقول: ((الأَنْبِياءُ أَوْلادُ عَلَّاتٍ؛ أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ واحِدٌ))، فالأنبياء لهم نسب واحد من جهة الأب وإن اختلفت أمهاتهم.

وهذا يدل على أن القوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام ليسوا قومه الذين هم قوم إبراهيم عليه السلام، فإن كان كذلك فكيف يقول الله ﷻ في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، فالجواب: في ذلك احتمالات؛ منها أن يحمل على الحقيقة، ذلك لقوله ﷺ: ((ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ)) فقد يكون أرسل إلى قوم أمه، فهو أخوهم من جهتها، وقد سمى رسول الله ﷺ الحسن والحسن ابنيه.

ومنها أنه اتخذ زوجة منهم فصار له أهل منهم، فصار أخوهم، وهذا حال إسماعيل عليه السلام فإنه يعد جد العرب، و إنما صار كذلك لاتخاذه زوجة من قبيلة جرهم العربية كما في الصحيح، فصار منهم بالمصاهرة والنبي ﷺ قال لأصحاب له من أسلم ينتضلون: ((ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا))، هذا وليعلم أن العرب ليس كلهم من ولد إسماعيل عليه السلام وتفصيل ذلك في كتب الأنساب. والحرمة تنتشر بالنسب والمصاهرة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ فالأخوّة تكون بالنسب كما تكون بالمصاهرة.

وهناك احتمالاتٌ عقلية في تفسير هذه النسبة إن لم تكن على الحقيقة لا مجال لذكرها.

وقوم لوط عليه السلام كانوا يهددونه بالإخراج دومًا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، وقال هو لما راوده عن ضيفه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ولم يقولوا له ما قال قوم شعيب له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ مما يدل أنه لم يكن له من يحميه فيهم، ولا من ينتصر له إن أخرج.

---

[30] الأنبياء: ٧٤-٧٥

وها هنا لا بُدَّ من الإشارة إلى إطلاق لفظ الأخوّة في القرآن على أقوام الأنبياء الكفرة، فإن القرآن لا ينفي أخوّة النسب ولا أخوّة القبيلة والقوم والعشيرة حين يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فهذا نسب وهذا نسب، فنسبة القرابة غير نسبة الدين والإيمان، وحين تكون النسبة عند الإطلاق موهمةٌ للباطل فإن القرآن لا يذكرها، ففي سورة الشعراء ذكر الله تعالى نوح عليه السلام وقال عن قومه: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ وذكر هود عليه السلام وقال عن عاد: ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ وذكر لوط عليه السلام وقال عن قومه: ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾، لكن لما ذكر قوم شعيب قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يذكر في هذا الموطن أخوّة، مع أنه أخوهم كما قال سبحانه في العنكبوت: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وأصحاب الأيكة – وهو الشجر الكثيف الملتف – هم أهل مدين، لكن كما قال ابن كثير رحمه الله: "لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة" قطع نسب الأخوّة بينهم، وذلك للمعنى الذي نسبوا إليه، فالقرآن يثبت الأخوة لمعنى وينفيها لمعنى، فمن احتج بالقرآن على قوله فليفعله على طريقة القرآن وليتركه كذلك على طريقته.

فأن يقول أحدٌ عن عشيرته وقومه: هؤلاء إخوتي لنسبه منهم، فهذا لا يرده أحد، ولا يعترضه معترض، لأنه الحقيقة، لكن إذا قال: النصارى إخواني، واليهود إخوتي، والملاحدة إخوتي، فأيُّ نسبٍ بينهم حين ينسبون إلى هذه الأديان؟ فمثل هذا لم يتأدّب بأدب القرآن، ولم يعرف متى يثبت ومتى ينفي كما هي طريقة القرآن، ولكن أمثال هؤلاء يأخذون من القرآن ما يفهمون على جهة التشهي لا الاقتداء، بل إن بعضهم يعتقد الاعتقاد ويفعل الفعل ثم يحمل القرآن على اعتقاده وفعله.

وقوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ عند بعض أهل التفسير أنه فصل القضاء في الخصومات، والقرآن يطلق الحكم في مواطن تحتاج إلى إبانة منها قوله عن يحيى عليه السلام: ﴿وآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ فإن أهل التفسير يقولون إن الحكم هنا هو الفهم لكتاب الله، وعن بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ والحكم هنا عندهم بمعنى الملك والسلطان، والحكم في اللغة لا يقع إلا على معنى القوة، كما فيه معنى الظهور، فقصر معنى الحكم في آية مريم عن عيسى عليه السلام: ﴿وآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ أنه الفهم، فيه سلبٌ لخصوصية لفظ الحكم، وعيسى عليه السلام كان له سلطانٌ في صباه بل وهو في المهد حين تكلم فيه، فأسر سامعيه وشدّهم إليه، وهذا سلطانٌ وقوة، كما أنه قد كِيدَ له ليقتل من أعدائه من بني إسرائيل فمنع منهم بموانع، كانت هي القوة التي أوتيها. وأمّا تفسير الحكم الذي آتاه الله للوط عليه السلام بالقضاء في الخصومات فلا أدري وجهه الذي أخذ منه هذا المعنى، فلا أعلم في الكتاب والسنة والأخبار ما يشهد له، ولوط عليه السلام لَمّا نزل العذاب على قومه لم ينج إلا هو وأهله إلا امرأته، وقد

شكى أنه لا وجود لقوة له في قومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فالله أعلم ما معناها هنا، وهي لما شغلتني كثيرا عند قراءتي للقرآن فلم أهتد إلى شيء يطمئن له القلب.

واعلَم أن القرآن لا يعدل عن لفظٍ إلى لفظ إلا لمعنى في الأمر، فإنه كتاب الله وكلامه الذي لا يخلق من كثرة الرد.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، ومعلوم ما هي الخبائث، وقد ذكرت في تفسير سورة العنكبوت[٣١] ما هي الأوصاف القرآنية لهذه الفعلة الشنيعة، بل لا يوجد في القرآن عمل قذر وصف بهذه الأوصاف كما وصف عمل هذه القرية. والله يعدد منّه على لوط بأمرين؛ أمر علمي وعملي، فقد آتاه الله علما وحكما، ومنّ عليه بالخروج من قرية السوء والخبث، وهجران ديار السوء عمل الأنبياء، وقد حضّت عليه الشريعة، وهذه القرية قد دمرها الله بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، فكان لهم عقوبتان الخسف والرجم، وهذا القلب يعادل ما وقع منهم من قلب فطرة الله تعالى في فعلتهم الخبيثة، وأما الرجم فهو عقوبة الله على إتيان المحرم، فهو فعل زائد عن الزنا، فحصل له عقوبة الزنا وزيادة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾، فهذان وصفان لهم السوء والفسق، والسوء صفة الفعل في مضادته للفطرة، والفسق حكم الشرع في مخالفته للحكم الإلهي، فهو قبح من جهتين. ووراث قوم لوط وفعلتهم الشنيعة قد كثروا هذه الأيام، وقد شرّع فيما بينهم كما شرّعه قوم لوط وجعلوه حقًا لهم، بل وزادوا إجرامًا كما فعل أسلافهم بأن سبوا وعاقبوا من قبحه وسبه، وهكذا تبدأ المعاصي مستترة، ثم يستفزهم الشيطان لإعلانها ثم يجعلوها حسنةً في دينهم، وهذا هو سبيل كل المعاصي.

وهذه الآية تبيّن أن لوط عليه السلام صار له هجرتان؛ هجرةٌ مع إبراهيم عليه السلام وهجرةٌ من قرية السوء، وذلك لتعلم أن عمل الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله تعالى هو عمل الحياة الذي لا ينقطع، وأن المؤمن لا يخرج من أرض ظلم فيها إلى أرض يسكت عن معاصي أهلها كما يفعل بعض المهاجرين، فإنه إن استقبله قومٌ بعد ظلم أهله له شعر أن لهم منّةٌ عليه فسكت وداهن، وصار يبرر لهم ما لم يكن يبرر لقومه الذين كان فيهم، وهذا من فقدان

---

[٣١] تفسير سورة العنكبوت، عُمَر بن محمود: تفسير سورة العنكبوت

معنى الهجرة الشرعية، فإن المهاجر لن يحقق أمر الله في كل مكان يحلّ فيه، وليس منّة الناس عليه بمانعة له من إبلاغ الشرع وتحقيق حكم الله تعالى.

وهجرة لوط الأولى كانت لسببٍ اعتقادي، وهو شرك قومه وكفره، لكن الهجرة الثانية كانت لمعصيةٍ خلقية، إذ لم يذكر في القرآن قط كما ذكر في موطن آخر أن لوط عليه السلام دعا قومه للتوحيد كما دعاهم كل الأنبياء، وكأن قومه كانوا عليه إلا أنهم على هذه المعصية الخبيثة، فكانت النبوة فيه والرسالة له أن يدعوهم لهجر هذه المعصية الخلقية الخبيثة، فانظر اليوم إلى المعاصي المستقرة بين المسلمين، وقد شرّعت هذه المعاصي كما شرّع قوم لوط فعلتهم، فهذا الربا وشرب الخمر، وأعظم من ذلك كله وأمثالهما هو التشريع على خلاف الكتاب والسُنّة وهو ناقض للتوحيد من أصله كما هو حكم القرآن وإجماع أهل الملة، وهي أفعال كانت في الأُمم السابقة يرسل من أجلها الرسل، فإن موسى عليه السلام وأخاه هارون كانت رسالتهم لإخراج بني إسرائيل من حكم الطاغية فرعون، وهو أمر لا يختلف كثيرًا عن واقع المسلمين اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، طلب دخول الرحمة سؤال الأنبياء عليهم السلام لربهم كما قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ والله يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فالرحمة الإلهية بهذه الآية على وجهين؛ رحمةٌ شاملةٌ لكل الخلق، ومن ذلك ما جعله الله في قلوب الخلق من رحمة فيما بينهم كرحمة الأم على ولدها، ورحمة العفو على الجاني، ورحمة المعطي على المحتاج، ورحمة الإنسان على الدواب، ومنها ما أقامه الله من أمور للخلق رحمة بهم كتيسيره للخلق دفع الضرر ودفع الحر والجوع والعطش، فهذه رحمات لعموم الخلق، وهناك رحمة خاصة لمن أتى بشرطها كما ورد في هذه الاية من سورة الأعراف، ومن هذه الرحمة قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة طَيِّبَة﴾ وأعظم ما يؤتى هؤلاء من رحمة هو رضى الله تعالى ودخول الجنان.

ولوط عليه السلام أدخله الله تعالى في الرحمة الخاصة بأن حقق له الهداية مع إبراهيم عليه السلام، ورحمه مع أهله إلا امرأته بأن نجاه من القرية لما نزل العذاب، وعلل هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وفي الآيات السابقة رأيت خصالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣٢]

وهذا عرضٌ آخر لنبيٍّ نصره الله تعالى كما نصر إبراهيم عليه السلام ولوط، والقرآن هنا في ذكر لوط ونوح عليهما السلام إنما يريد بيان سُنّة الله تعالى في نصر الأنبياء في خاتمة ما يقع بينهم وبين أعدائهم، فهو ليس عرضًا لجانب آخر من جوانب الشخصية النبوية المهتدية، بل بيان تأكيد لما وقع مع إبراهيم عليه السلام من النصر الإلهي، وهذه طريقة قرآنية يسميها البعض بالاستطراد، ولذلك لاتجد هنا عرضا موسعًا لشخصية النبي ولا لأقواله ولا لسيرته مع قومه، بل هو عرضٌ لحالةٍ واحدة وهي ذكر العاقبة التي أخبر الله وقوعها لهؤلاء الأنبياء، ولكن في هذا العرض تنوع واقع النصر لهؤلاء الأنبياء، فإبراهيم عليه السلام نجاه الله من بين قومه على الصورة التي تقدم ذكرها من آية النجاة من النار، ولم يذكر القرآن في أي موطن آخر ما حلَّ بقومه من بعده، فكان نصره نجاته من بين أيديهم، وأمّا لوط عليه السلام فكان خروجه من القرية التي دُمِّرَت من بعده على نحوٍ لم يبقَ فيها أحد وباستئصالٍ شاملٍ لهم، وأمّا نوح عليه السلام فبالسفينة التي بناها بأمر الله تعالى.

ومع نوح عليه السلام ذكر الله دعاءه على قومه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾، وقد ذكر هذا النداء في قوله تعالى في سورة القمر: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي سورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ وفي المؤمنون قال الله على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

والقرآن مع نوح عليه السلام يذكر أموراً قبل الإهلاك تحتاج إلى ترتيب، ففي هود قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فهي تفيد أن الله تعالى قد أعلمه بالختم على قلوبهم فلن يؤمن معه آخر غير من آمن.

وفي سورة نوح قال تعالى على لسانه: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ فكان معنى ما تَقَدَّم في سورة هود وهو قول نوح عليه السلام هنا بأنه لن يؤمن منهم أحد، وفيها زيادة وهو أن لا يكون مؤمن كذلك من ذريتهم. وما تَقَدَّم من

[٣٢] الأنبياء: ٧٦-٧٧

دعائه عليهم وقول الله تعالى هنا في الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، فهل الإهلاك كان للدعاء كما تفيد هذه الآية، أم لَمّا أخبره الله تعالى كما في سورة هود من عدم إيمان آخر منهم؟

فأمّا قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ فهو لما رأى مع طول حياته بينهم تتابع هذا الأمر فحكم عليهم بالاستقراء، فكان مع نوح خبر الله بعدم إيمان أحدٍ من قومه، وكان معه الاستقراء في الحكم على الذرية. وأمّا هل حصل الإهلاك بالدعاء أم لعدم إيمان مرجو منهم؟ فالجواب أن واقع نوح عليه السلام وصبره المدة التي قال الله فيها: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ تدل على أنه لم يدع عليهم إلا بعد أن أخبره الله بانتهاء الرجاء منهم، وكان في دعائهأمر زائد هو ما ذكر في هذه الآية وفي سورة الشعراء بقوله: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن قيل ما فائدة الدعاء وقد علم أن الفعل سيقع؟ فالجواب: هذه سيرة الأنبياء مع ربهم، فإن مُحَمَّداً ﷺ وعده الله بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ومع هذا فقد قام بالدعاء والإستغاثة في العريش يوم بدر، ولم يكن الوعد مانعًا من الدعاء، فإن الوعد الإلهي لا يُسقط أسبابه، بل المؤمن المهتدي هو الذي وإن علم الوعد سارعَ إلى تحقيق أسبابه، ومن أسباب تحقق الوعد الدعاء، وقد شرح هذا بأطول في موطن آخر، فإن الله يعد على شرط، فيخاف المؤمن أن يتخلف الوعد بتخلف شرطه كما وقع مع نوح عليه السلام من عدم نجاة ابنه مع وعد الله تعالى بنجاة أهله معه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. والقصد أن إخبار الله تعالى نوحًا عليه السلام بإهلاك قومه ونجاة المؤمنين معه لا يمنع من الدعاء، لأن الدعاء هو شرطٌ من شروط الوعد، ومن الجهل القول: إن الدعاء هو للمعنى التعبّدي ولا دخلَ له في السبب، فإن قائل هذا جاهلٌ بمعنى الدعاء، وأنه سببٌ شرعيّ وقَدَريّ لتحقيق الفعل.

وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ وقد علمت أن ابنه ليس من أهل، وهذه تستطيع إلحاقها بما تقدم من شرح معنى الأخوّة التي تثبت على وجه وتُنفى من وجه، فهذا ابنه النسبي لم يكن من أهله لما حصلت النجاة، لأن النجاة شرطها الإيمان، فانتفى معنى الأهل هنا، ولو سئل نوح عليه السلام عن هذا الهالك لقال: هو ابني، فهذا نفي من وجه وإثبات من غيره كما تقدم لك سابقًا. والقرآن لم يستثنِ زوجة نوح عليه السلام من النجاة وهو التي قال عنها: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾، وهذا له وجهٌ واحد، وهو أن زوجته هذه لم تحضر الطوفان، بل ربما هلكت قبله فكانت له أخرى مؤمنة نجت معه.

وقوله تعالى: ﴿الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ هو الطوفان، كما قال تعالى في الشعراء: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ وكما في هود: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وهذه الآية هي التي فات نوح عليه السلام النظر إلى الاستثناء فيها بقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.

وتسمية القرآن الطوفان والغرق بـ«الكَرب العظيم» دليل على الهول الذي لحق بالغارقين، فقد وصف الله الماء بقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ ومشهد هذا مرعب قبل الغرق والوفاة. وكانت نجاته بالسفينة التي صنعت من الخشب والمسامير كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، والطوفان حصل بماء من السماء وبماء منفجر من الأرض كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. وصناعة السفينة التي تمّت بأمر الله تعالى في قوله: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ يدلُّ على مشروعية اتقاء أقدار الله تعالى ودفعها بالمشروع من العمل، فإن الطوفان وهو أمرٌ قَدَري قد اتقاه نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين بصناعة السفينة، وهذا الانتصار هو الذي وقع لرسول الله ﷺ حين دفع إيذاء قريش بالهجرة، وكانت الهجرة بالخفاء وأخذ السُنَن القَدَرية الدافعة لكيد قريش.

فهذه نماذج للنجاة والنصر، فقد نجا إبراهيم عليه السلام بأمرٍ معجز وهو قلب إحراق النار وحرارتها برداً وسلاماً عليه، وكانت نجاة لوط عليه السلام بأمره بالخروج من القرية قبل حلول العذاب عليها، وأمّا نوح عليه السلام فقد نجا بصناعة السفينة والركوب فيها، ومن تأمل المعجزات مع الأنبياء ومع نبينا مُحَمَّد ﷺ جميعًا علم أنها لم تكن تقع إلا على وجه الحاجة والاضطرار فلو وسع إبراهيم عليه السلام الهروب من النار لكان هذا الواجب عليه، فلما كان النار اضطرارًا وقعت المعجزة، وهذا ما وقع للوط عليه السلام إذ كان بوسعه الخروج من القرية فخرج، فالمعجزات والكرامات تقع على هذا المعنى وليس على معنى النافلة وحالة الوسع.

وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ووصف القرآن لهم بالسوء لكفرهم ولقولهم لنوح عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، وما كان يقع منهم من المكر كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾. والقرآن يصف نجاته وهلاك قومه بالطوفان نصرًا كما في قوله هنا: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ﴾ مما يدلُّ على أنهم أرادوا به الكيد العظيم وهو رجمه بالحجارة فلم يقع لهم.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ۝ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۝ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[٣٣]

هذان نموذجان للشخصية النبوية المحبوبة عند الله، والتي يتحقق بها الأسوة والاقتداء في الوجود الإنساني للمهتدين، وفي هاتين الشخصيتين غنى باذخ في الجمع بين سلطان الحكم وإمامة الدين، كما فيها إرشاد إلى تفاوت الفقه والفهم، وتعليم بأن القضاء والحكم إجراء إنساني يمكن للمرءِ فيه أن يصيب أو يخطئ بخلاف الحكم الشرعي وثباته وأنه مرتبة واحدة، وهو حق كله، وهاتان الشخصيتان النبويتان العظيمتان تعرضان من الداخل، فلا وجود للآخر معهما في هذا الموطن بخلاف ما تقدم من النموذج الإبراهيمي الرشيد وعدم وجود الآخر هنا ليس لغيابه من حياة هذين النبيين عليهما السلام، فقد كان بداية ظهور داود عليه السلام هوقتله جالوت كما قصّت بذلك سورة البقرة، وقد ذكر سليمان عليه السلام مجاهداً في سورة النمل، لكن هذا الموطن مقصوده هو عرض جانبٍ إنسانيٍّ بشري كما تَقَدَّمت بذلك السورة، وحضور نبيين في زمنٍ واحد كان لأسبابٍ متعددة، كان أوضحها هو حاجة النبي للمُعين كما في اجتماع موسى وهارون عليهما السلام، وهو إرشاد إلى ثقل هذا الحمل، وعظمة هذه المهمة، وها هنا يعرض القرآن حاجة النبي الملك وهو داوُد عليه السلام إلى تنبيه ابنه سليمان عليه السلام إلى جانب الحق الذي فاته.

وهذا العرض يبين أن النبي في إجرائه مهمة القضاء والفصل هو إنسان رشيد موفق، وهو مع هذا فإنه إنسان يعرض له ما يعرض للإنسان من النسيان كما قال النبي ﷺ: ((أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ))، وأنت تعلم أن أعظم ما ضمنه الله لرسوله ﷺ في القرآن أمران أولهما قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، ومع ذلك كان يعرض لرسول الله ﷺ النسيان في الصلاة وهو يقرأ القرآن وفي الحديث أن النبي ﷺ سمع

[٣٣] الأنبياء: ٧٨-٨٢

رجلًا يقرأ في المسجد فقال: ((يَرْحَمُهُ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا)) وفي رواية: ((كُنْتُ أُنْسِيتُهَا))، وقد حضّ الصحابيَّ الجليل أُبيّ بن كعب أن يفتح عليه وقال: أنسيت آية كذا، وهذا كله بيان لإنسانية وبشرية الرسول وأنه يعرض له ما يعرض للبشر، وأما الأمر الثاني فهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد سُمَّ من اليهودية، وما زال يجد أثر السم في جسمه حتى مات، وعلة ذلك هو ما تقدم لك، فالوعد الإلهي للأنبياء عليهم السلام وللمهتدين لا يعني خروجهم من عالم السُنَن التي أودعها الله في البشر.

وفي بيان بشرية الرسول ﷺ في القضاء وأنه يعرض له وهو الرشيد الموفق ما يعرض للبشر قوله ﷺ: ((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))، وكفى بهذه القصة القرآنية دليلًا هاديًا، ولذلك القول بعصمة أحدٍ من البشر من النسيان أو الخطأ قول غير صحيح، وبهذا تعلم معنى تطبيق الشريعة في الحكم، فإن القاضي والحاكم لا يقضي ويحكم إلا بكتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ، وهذان معصومان، وقد يعرض الخطأ على القاضي والحاكم من جهة إجراء الحكم، فإن أخطأ فخطؤه لا يعود على الكتاب والسُنّة ولكن يعود على نظره وفهمه وإجراءاته، فالقاتل عليه القصاص، لكن قد يفلت القاتل لضعف الحجة والدليل، وقد يعجز المدعي عن إثبات حقه فيفوته، ولذلك أجمعَ أهل العلم للحديث السابق: ((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ)) أن حكم القاضي لا ينفذ إلا في الظاهر ولا ينفذ في الباطن، فإن حكمه لا يُحِلُّ حرامًا، ولا يُحَرِّمُ حلالًا.

ومن علم هذا تَيَقّن دجل زنادقة هذا العصر من اتهامهم الدعاة إلى الله تعالى الساعين لإقامة حكم الله في الأرض أنهم بهذه الدعوة إن وصلوا إلى الحكم جعلوا لأنفسهم العصمة ومنعوا الرد عليهم، وجعلوا الرادين على أقضيتهم وأحكامهم واختياراتهم ردًا على الله وعلى رسوله ﷺ؛ أي الكفر بالله تعالى، وواقع الأمر أن الحكم الجاهلي هو الذي يفعل هذا في بلاد المسلمين، فإن الرادَّ على هؤلاء الطواغيت مصيره القتل أو السجن، بل وسب هؤلاء الطواغيت أشد جرمًا في أحكامهم من ساب الله ورسوله، وأمّا في دين الله تعالى فإن أساس الحكم في مقالة الصديق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة فقال: "أيها الناس إنما أنا متبع وليس بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني" فهكذا كان وكان من بعده من الخلفاء الراشدين ومن اقتدى بهم، ولم يقل أحد إن الراد على القاضي أو الحاكم إن أخطئا أنه راد على الله وعلى رسوله فهو كافر، لكن هؤلاء الزنادقة من العَلمانيين يكذبون ويرمون غيرهم بما يفعله طواغيتهم وأسيادهم.

وقوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾، هذان النبيان من أنبياء بني إسرائيل، وقد كان أول أمر داوُد الأب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا يدلُّ على افتراق الملك عن النبوة في بني اسرائيل في هذا الزمن، ثم كان ما كان من تأمير طالوت رضي الله عنه، وفي وسط المعركة قتل داود جالوت كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾، وداوُد قد وصفه رسول الله ﷺ بالشجاعة، إذ لم يفر من أمام خصم له قط كما قال رسول الله ﷺ عنه: ((وَلَا يَفِرُّ إِذَا لاقَى))، ثم حصل له بعد ذلك الملك والنبوة، فاجتمعت فيه بعد افتراق كما قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، وها أنت ترى أن مبعث النبوة لداوُد عليه السلام هو ميدان الجهاد، وهو الملائم لحال بني إسرائيل في ذلك الوقت، إذ الآيات هذه في سورة البقرة تدلُّ على أن بني إسرائيل سرى عليهم الظلم، وقد استضعفوا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ فكان ما يحتاجه بنو اسرائيل في هذا الزمن هو الإمام المجاهد، وقد كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كما جاء في الحديث، ومن تأمّل حال المسلمين علم أن الحال هو الحال، وأن ما تحتاجه الأُمَّة اليوم هو ما طلبه بنو إسرائيل يومها ومع ذلك تجد في الأُمَّة من يمنع هذا باسم الدين ومصلحة الشرع، وأجهلهم من يزعم أن هذا مخالف لهدي النبي ﷺ.

وقد ذكر خبر داود عليه السلام في سور أخرى غير هذين الموطنين؛ البقرة والأنبياء، فقد جاء خبره في سورة ص، وفي سورة سبأ، وقد مدح رسول الله ﷺ عبادته وصومه، وجعلَ صيامه خير الصيام، وتقسيمه الليل خير القيام وذلك في قوله ﷺ: ((أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ)). وهذا مع ملكه وفصله بين الناس في القضاء كما جاء هنا وفي سورة ص، ثم مع جهاده في سبيل الله تعالى، ولذلك فعرض مشهده تعليم للنبي ﷺ لحال سيعيشه بعد، وسيكون فيها حاكمًا وإمام مجاهدين.

وأمّا سليمان عليه السلام فهو ابنه، وقد ورث الملك عن أبيه داوُد كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ وهذا في الملك، فإن النبوة لا تورث. فإن قيل كيف ورثه والنبي ﷺ يقول: ((لا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ)) فالجواب أن الملك منصب، وهو الذي ورثه لاستحقاقه له في قوله الذي تقدم عن خبر الإرث بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمّا ما كان لداوُد عليه السلام من ملك خاص فهذا لا يورث كما في الحديث وإنما هو صدقةٌ من بعده، ولفظ الإرث هنا ليس هو الإرث بمعناه الاصطلاحي في الفقه، فقد ورد الإرث بمعنى الاستخلاف كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وكقوله تعالى عما تركه فرعون وقومه: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

ومعرفة حالهما في سورةٍ أخرى أغنت عن بيانها هنا إذ أن قوله تعالى هنا في الأنبياء: ﴿يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾ لا يفهم إلا بمعرفة ما كان عليه من الملك، وسليمان عليه السلام أوتي العلم والفضل في حياة أبيه داوُد عليه السلام كما تدل هذه السورة ومن قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾ دليل أنهما كان يجلسان مجلس القضاء معا، وهذا دليلٌ على القاضي أن يستعين بغيره في القضاء والاستماع وإحقاق الحق، وأن النوازل العظيمة يستحب لها ذلك. وخبر الحرث هذا جاء تفصيله في كتب التفسير فليرجع إليه، إذ المقصود هنا ليس نفس الخبر وإنما بيان ما تَقَدَّم من ذكره من تفاضل العطاء الإلهي في الفهم مع اجتماع الحكم والعلم، وهذا دليل على حديث النبي ﷺ: ((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)) وقوله ﷺ: ((نَضّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنّا شَيْئاً فَبَلّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ فَرُبّ مُبَلّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ)).

وداوُد عليه السلام من أهل العلم والفهم، والحكمة والفقه، فهو النبيُّ العظيم، ولكن أراد الله تعالى بيان أمر العبادة، وهو أن العظيم في علمه وفقهه وفهمه قد يفوته أمرٌ يدركه من هو أدنى منه، وقد يذهب عنه ما يدركه الصغير، وها هو ابن عُمَر رضي الله عنهما، وليس هو بمرتبة أبي بكر وعُمَر رضي الله عنهما يدرك ما لَمْ يدركوه، فقد قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، وَلَا، وَلَا، وَلَا، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هِيَ النَّخْلَةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك لأن داوُد عليه السلام كان فيه خصلتان قلما تجتمعان؛ وهما السرعة والإتقان، فأمّا السرعة فقد خفف عليه الزبور، فقد قال رسول الله ﷺ: خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام الْقُرْآنُ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ؛ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّه. وأمّا الإتقان فقد قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري: لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ.

فالله ﷻ ذكر هنا ترجيع الجبال والطير تسبيح داوُد عليه السلام، وهذا دليل على أن داوُد عليه السلام كان يفهم لغة الطير والجبال، وقد سبق ابنه في هذا، والآية في سورة النمل تدل على هذا في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾. وهذا التخصيص بذكر عبادة هذا النبي الملك يعلم أهل القرآن صورة الحاكم المحبوب عند الله تعالى، وهو أن له شأنًا في القضاء والحكم، وله شأنٌ في العبادة والإخبات، فإن الفصل النكر بينهما ليس سبيل المهتدين، حين يحتج الحاكم والقاضي والمجاهد بانشغاله عن العبادة والنُسك، أو حين يعتزل الناسك العابد الحياة وواجباتها بحجة التفرّغ للعبادة، فهذا خلاف صورة الهداية الحقيقية المحبوبة عند الله تعالى، وهي التي تعرض من خلال هذا النموذج النبوي العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾، في هذه الآية ذكر خصلتين لداوُد عليه السلام؛ أولاهما هو صناعة آلة الجهاد، وهي تفيد أنه مع ملكه وسلطانه إلا أنه كان يأكل من كسب يده كما جاء في الحديث، وقد جاء في سورة سبأ بيان إتقانه هذ الصنعة العظيمة وذلك في قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ والتقدير في السرد هو أن يجعل في السابغات؛ وهي الدروع فتحة المسامير على قدرها بإتقان، وثانيهما: الجهاد، فإن الملك الذي يصنع هذا لا يفعله إلا لنفسه وجنوده، فأفاد نسبة الصفة له وهو الملك أنه كان مجاهدًا، وهو كذلك عليه السلام، فهو الذي قتل جالوت في شبابه كما في سورة البقرة، وهذا الذي يسميه الأصوليون «دلالة الإشارة».

وقوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ إذ نسب البأس إليهم فيه دلالة أن جهاد الدعوة كان دين وشريعة داوُد عليه السلام، وقصة سليمان مع ملكة سبأ كما في سورة النمل دليل على ذلك، وهي ترد على الجاهلين من المعاصرين الذين نفوا جهاد الدعوة عن دين الله تعالى، ففقه هذا الجهاد قديم، بل هو من زمن موسى عليه السلام كما في سورة المائدة في قوله تعالى عنه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ وهذا جهاد دعوة وفتح، لا جهاد دفع، والأنصار رضي الله عنهم في غزوة بدر كان هذا جهادهم ولذلك قالوا لرسول الله ﷺ: "والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن: اذهب أَنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون"، فإن حالهم في هذا الجهاد هو حال بني اسرائيل فيه، وهو أنه جهاد دعوة.

وأنت تعلم بهذه الصفة الداوُديّة المحكمة أن أعداءهم كانوا أولي بأسٍ شديد، فأن يذهب داوُد (عليه السلام) ليعمل فكره وقدرته لصناعة السابغات، وأن يجعل فيها الحلق، لا أن تكون ملساء حتى تعلق بها آلة الضارب يدلك على أن هذه حاجة له ولجنوده، وهي لا تكون كذلك إلا من بأس أعدائه وشدتهم في القتال، والقرآن لا يقلل شأن اعداء المسلمين في القتال كما يظن البعض، بل قد وصف المرتدين وقتالهم بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، فوصفهم بالبأس الشديد، أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فهذا حال آخر، وهو الذي يقع عند دخوله مكة مع جموع الفاتحين، وكان شأن قريش في ذلة وهوان، وقد كان بعض قتال ثم حصل ما حصل من وصف له القرآن له بتولية الدبر، فلا يجوز حمل هذه الآية على كل أحوال الجهاد كما يفعل البعض، فأن يصل أهل الإسلام إلى حال ما وصل إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) عند فتح مكة ويكون واقع هذه الآية لا بُدَّ من واقع الفريقين كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ دليلٌ على ما تَقَدَّم من أن هذه الصنعة حققت منفعة صد ضرر أعداءهم، وكل النعم لا بُدَّ من شكرها، وهكذا تحققت لك صورة بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهو نبيٌّ يوحى إليه، ويجري عليه ما يجري على البشر، وهو في سلوكه يحقق حب الله تعالى ورضاه فهو:

- حاكم ملك يجلس لرعيته من أجل فض الخصومات فيما بينهم، فلا يعتزل عنهم زاعمًا أن شؤون حرثهم وغنمهم أصغر من همومه، وأقل من أن ينظر فيها، بل يأخذ كل أمر من أمورهم على محمل الجد، ويستعين بالحكيم الفقيه على هذا الشأن العظيم، حرصا على إقامة العدل، ورفع الظلم، ورعاية المصالح، وأن يقرن الله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ وهما النبيان العظيمان علمًا وسلطانًا، وجهادًا وعبادةً في أمر حرث نفشت فيه غنم قوم ليدلك على قيمة العدل في كل شؤون الناس، فما كان صغيرًا عند أحد، هو للآخر كل حياته ومكسبه، والحاكم العادل هو الذي يرعى شؤون الصغير والكبير، وحاجة الناس صغيرها وكبيرها، والله يقول لداوُد: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

- وهذا النبي الملك العظيم يصغي لكلمة ابنه وقد فتح عليه ما لم يدركه، فإن تحقيق العدل مراده، فيتواضع تواضع الصالحين الذي يحقق له الرفعة والمنزلة عند الله وعند الخلق.

- وهو مع مُلكه وسلطانه وقيامه بشؤون رعيته، صغيرها وكبيرها، عابدٌ، ذاكرٌ، مُسَبّحٌ، يقرأ الزبور ودواب الجهاد تسرج له، استغلالًا لكل لحظة، وقنصًا لكل اختلاء بلا مهمة، فيجود القراءة تحبيرًا لها، ويمضي فيها حتى يدخل في عمل آخر من الطاعات.

- وهو نموذجٌ للنبي المجاهد الذي يرعى شؤون الجهاد وأدواته، فيعمل فكره لتقليل ضرر الأعداء عليه وعلى جنوده. ولأن القرآن يُقَدّم للأمور العظيمة مقدماتٍ تليقُ بها لتدرَك، فإن مفاجأة الناس بالعظيم تذهلهم، فقد قَدَّم القرآن قبل ولادة عيسى بلا أب بولادة يحي عليه السلام لزكريا بعد أن أصابه وزوجه الكبر، فهاهو قدم لما أعطي لسليمان عليه السلام من الآيات والفضل والنعم بمقدمة تسخير الجبال والطير يسبحن مع داوُد عليه السلام، وقد أدرك الناس هذا مع داوُد عليه السلام، وليس هو أمر خاص له دون إبصار الناس له، ففي سورة ص قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ فقد كان الناس يرون كيف كانت الطير تأوي إليه وتحبس نفسها للاستماع وترديد تسبيحه.

إضاءة: وقبل أن نفارق هذا الموطن من الحديث عن قضاء الأنبياء، وما تَقَدَّم أن القضاء له شقان، شقٌّ فيه العلم بحكم الكتاب والسُنّة، وشقٌّ يتعلق بفهم الواقعة، وهو بهذا يشابه الفتوى، ثم يزيد عن الفتوى بالإلزام، فالقاضي لا يكون كذلك حتى يكون له قوة إلزام الخصم أو المتخاصمين بالحكم، وهذا ليس من الفتوى ولا من صفتها، فإن المفتي ليس له قوة إلزام المستفتي بما أفتاه. وقد تَقَدَّم أن النبي إذا كان قاضيًا قد يُعرَض له ما يُعرَض لغيره في الشق الذي يتعلق بفهم الواقعة للحديث: ((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ))، وقد وجد من وسع هذه الدائرة، وهي ما إذا كان النبي حاكمًا أو قائدًا، فحكم بحكم، فهل حكمه هذا يُحمَل على أنه تبليغٌ لحكم الله تعالى، فهو وحي، أم يُحمَل على أنه عملٌ من أعمال الحاكم والقاضي، أي قاله على جهة المصلحة والنظر وليس وحيًا من الله. وهذه المسألة لم تكن عند الأوائل، ولا قالوها، ولكن الإمام المالكي القرافي قعّد هذه المسألة في جزءٍ له، وأشهر ما يمثل لهذه المسألة مسألتيّ سلب القتيل وإحياء الموات. فأمّا مسألة سلب القتيل، فقد قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ)) وأمّا إحياء الموات فقوله ﷺ: ((مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ)).

فيرى جمهور العلماء أن هذا حكمٌ تشريعي ليس لأهل الإسلام إلا العمل به سواء أَذِنَ بذلك الحاكم أَم لم يأذن، بل لا يلزم أي حاكم العمل بهما. وأمّا مالك وأبو حنيفة رحمهما الله فيقولون في مسألة السلب: إن القاتل ليس له سلب القتيل إلا بإذن الإمام، ولا يخمس، لأنه خارج قسمة الغنائم، إلا رواية عن مالك أنه أجاز للحاكم

إمّا التخميس أو يعطيه كله، ولا يجوز منعه كله. وأمّا مسألة الموات: فقد اشترط أبو حنيفة إذن الإمام، وأمّا مالك فلم يشترط إذنه كالجمهور إلا ما كان قريبًا من الناس لحاجة الناس إليه. وتقعيد وتكييف القرافي رحمه الله، وهو الفقيه الأصولي لهذه المسألة على هذا الوجه ليس هو المعنى الذي أوجد الخلاف، فمن نظر إلى طريقتهم في اشتراط الحاكم لم يجد أبدًا هذا القول الذي قاله القرافي إلا بعد أن وجد المخالف لهذه النصوص، فالتأويل فرع التعارض، وهم حين حملوا قوله ﷺ: ((مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ)) على الحض على الجهاد والإقدام لأنهم؛ أي الأحناف والمالكية قد رأوا مواقع أخرى لم يعمل فيها رسول الله ﷺ هذا الحكم، وذلك أنه كان يخمس كل ما غنموا إلا الطعام ، والتخميس يعني دخولها في القسمة عملًا بالآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾، وهي عامة لا يستثنى منها سلب القتيل، ومعلوم أن الحنفية يرون التخصيص المنفصل نسخًا، والسُنّة الآحاد سوى المتواتر المشهور عندهم لا يقوى على نسخ القرآن، ولهذا ردوا هذا الحديث على طريقتهم، ولَمّا كان الرد كان التأويل.

ومن تأمّل خلاف العلماء غير الحنفية والمالكية في هذه المسألة رأوا أنهم قد استثنوا أمورا من هذا الحديث؛ أي حديث أنس: ((مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ)) فقد استثنى أحمد الدابّة، وقصر الشافعي هذا الحديث على آلة الحرب في يد المقتول دون سواها. فالقرافي رحمه الله قلب هذه المسألة كما ترى، حيث جعل التأويل أصلًا عند الحنفية والمالكية، وكأنه لا تعارض أصلًا، بل ذهبوا الى اعتبارها أمر أمير وليس حكمًا شرعيًا، وهذا خطأ عليهم سواء أصابوا هم أَم أصاب الجمهور بعدم اشتراط الأمير.

ومثلها مسألة إحياء الموات، فإن الحنفية لهم رواية عن أبي بكر رضي الله عنه أنه أخذ أرضًا ممن أحياها ثم تركها بعد أن أنذره، فكان هذا الاحتمال، وهو سلطان الحاكم في مدة الإحياء، وأن إحياءها لمرة لا تجعل له حق الملك الدائم، وهو احتمالٌ أعادوه على الأصل، فإن كان للسلطان حق أخذها، فهو صاحب الإذن بالتمليك مع شرط الإحياء، فلما كان هذا عندهم قالوا إن رسول الله ﷺ قاله على وجه التشجيع لإحياء الموات. والقصد أن هذه قاعدة ليست أصلية عند الفقهاء والمجتهدين، وإنما يفسر بها العلماء نصوصًا أشكل عليهم حين رأوها على خلاف الأصل.

ومثل هاتين المسألتين مسألة نفي الزاني البكر، فإن بعض أهل العلم جعلها على معنى التعزير، وذلك على المعنى الذي تقدم لك، وهو الخلاف في النصوص وعمل النبي ﷺ وعمل الصحابة من بعده، إذ قد وجد المعارض

فاضطروا للتأويل ونماذج التأويل عند التعارض لها صور كثيرة، إذ أنهم يفسرون الخاص على معنى ينقدح في أنفسهم حين لا يعتبرون حكمه، وحين يعجزون يقولون: حادثة عين.

ومن الأمثلة غير ما تَقَدَّم لكنها تدخل في هذا المعنى رد الأحناف جلسة الاستراحة بعد الركعة الثالثة وقبل القيام، فإنهم لم يجعلوها من سُنَن الصلاة وقالوا: فعلها النبي للحاجة لما أسن وضعف، وردهم جلسة التورك في تشهد الصلاة الرباعية وفسروها على المعنى المتقدم، فالتفسير أو التأويل ليس أصلًا يصار إليه إلا عند العجز عن الجمع مع وجود التعارض الظاهر، فوضع تأويل قالوه قاعدة للتفريق بين أفعال النبي ﷺ وجعلها قاعدة عملٍ غير علمي وليس هو منهج أهل الفقه المعتبرين لا الأحناف ولا المالكية ولا غيرهم.

والقرافي صاحب الفروق وضع هذا الجزء على معنى كتابه الفروق؛ أي في التفريق بين حكم وحكم مع تشابه الظاهر لخلاف في المعنى، وقد يكون خفيا، وهذا كثير، واكتشاف القاعدة لا يجعلها دليلا، والذين كتبوا في القواعد الفقهية من أهل العلم نبهوا أن هذه القواعد ليست دليلا للإستنباط، لكنها تضبط الاستنباط، أي يجب مراعاتها عند الاجتهاد، لا أنها أصل في إنشاء الحكم. لكن لَمّا جاء المتأخرون، وقد كثرت فيهم الأهواء، ومالت نفوسهم إلى رد أحكام تحت ضغط المشركين والزنادقة عليهم فيها، فتحوا هذه الكوة ليدخلوا فيها أحكامًا قد أجمع عليها السابقون إجماعاً يقينياً يكفر فيها المخالف، مثل مسألة قتل المرتد إذا كان ذكرًا، لأنهم اختلفوا في الأنثى، فقالوا إن هذا من نوع السياسة لا التشريع، بل إن زعيم هذا الأمر الذي فتح أمره لأول مرة زعم أن أبا بكر رضي الله عنه قاتل المرتدين على وفق السياسة لخروجهم عن نظام الدولة لا لخروجهم عن الإسلام، وما هذا إلا لنفيه حكم الردة، فلمّا لم يستقم له عمل الصديق رضي الله عنه ذهب واتهمه بهذه التهمة التي هي دين الروافض كما ذكر ذلك الحلي في كتابه [منهاج الكرامة] والذي ردَّ عليه ابن تيمية رحمه الله في [منهاج السُنّة]، وسمى كتاب الحلي [منهاج الندامة].

وهذا التأويل يقدح في دين أبي بكر الصديق رضي الله عنه ودين كل الصحابة الذين جاهدوا معه، فإنه جعل كل جهاد الصحابة ضد المرتدين من أجل إخضاعهم لسلطانه وحكمه، لا لخروجهم عن دين الله تعالى، وهكذا صار التأويل سباً للصحابة.

وبهذا تعلم أن هذا التفريق ليس أصلاً فقهياً يصار إليه، فإن المعنى الذي أرادوه، والوجه الذي سلكوه يفتح باب رد الشريعة كلها، إذ لا ضابط عندهم لهذا التفريق. فإنهم حين أدخلوه لرد الإجماع اليقيني قد سلكوا أضلّ المعاني

فيه فلو سلكوا طرق الفقه الصحيحة من عرض الأدلة الشرعية في المسألة، ثم خلصوا بالدليل إلى الحكم فاعترضهم قول أو عمل يخالفه فردوه بالقواعد العلمية كرد الأحناف التخصيص المنفصل إلا إن كان بقوة العام لكان لهم وجه يرد عنهم تهمة الهوى والتشهي، ولكن القوم ليسوا كذلك فالتهمة ثابتة فيهم، ومما يقرب لك طريقة التشهي المتبعة عندهم أخذهم بقول الأئمة الأحناف – رحمهم الله تعالى – في قتل المسلم بالكافر، مع أنهم لا يقولون بأصولهم الموصلة لهذا الحكم، بل هو الزعم أن أبا حنيفة رحمه الله أقرب إلى القواعد الإنسانية في احترام الإنسان من غيره، وأشهد الله أن أبا حنيفة رحمه الله لم يخطر بباله هذا الخاطر، بل مجمل الأمر أن له أصولًا يعملها، وأهل العلم بأصوله ممن يسميهم أهل الأصول بأهل الرأي يقولون أن العام عند الأحناف أقوى من الخاص، فدلالة العام على أفراده أقوى من دلالة الخاص، ويقولون إن التخصيص المنفصل نسخ، ومن شروط النسخ عندهم أن يكون الناسخ بقوة المنسوخ دلالةً وثبوتًا، فالقرآن لم يفرق بين الكافر والمسلم فهو عام، وحديث علي رضي الله عنه: ((وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِم بِكَافِرٍ)) خاص، وهو عندهم حديث آحاد، فلا يخصص به القرآن، فيبقى حكم القصاص على عمومه في القرآن، فالذين يأخذون بقول أبي حنيفة رحمه الله في هذه المسألة لا يستقيم لهم المتابعة لقوله إلا بأخذ أصوله، وإلا كان أخذهم بقوله تلعبًا بدين الله وردًا للحديث بالهوى، ومن أخذ بهذه الأصول يجب عليه تمشيتها في كل المسائل، والقوم اليوم ليسوا كذلك، فهم لا يأخذون بقولهم في تقسيم الحديث إلى متواتر ومشهور وآحاد على ما يفعله الأحناف والمشهور عند الأحناف له تفسيرٌ خاص ويعدونه قطعي الثبوت خلافًا للآخرين، ويأخذون بالخاص حتى لو كان آحادًا في مسائل كثيرة، ولتلعبهم هذا صاروا أهل تلفيق تحت مسمياتٍ كثيرة ليست من مناهج العلماء في شيء والعجب أن يقع في هذا الباب من يزعم الفقه وأصوله، وأنه يعمل قواعدهما في الفتوى والاجتهاد.

ومن علم كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وطريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين من أهل الفقه والفتوى علم أن كل ما أخبر به رسول الله ﷺ إنما هو وحيٌّ من الله تعالى، ولكن قد يعرض للفقيه اعتراض فيعمل فيه اجتهاده في إصابة الحق، وأمّا من ذهب يردُّ حكمًا بعد ثبوته بالنص مع عدم وجود المعارض،أو ردَّ حكمًا مجمعًا عليه بحجة أنه حكم سياسة لا حكمًا شرعيًا فهو ضال قائل على الله بغير علم، وقد ذهب مذهبًا محدثًا ليس من هدي الأوائل في فقه الكتاب والسُنّة.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۝ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[٣٤]

لَمّا وقع لسليمان عليه السلام ما قاله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ كما في سورة ص، وتفاصيلها لا عنه شيئا، وقد قيل في تفصيل هذه الآية كلام كثير ليس إلا منقولا عن أهل الكتاب، وفيه جهالات لا تليق بالأنبياء، والقرآن حين يسكت عن أمر ولا يفصله لا هو ولا سُنّة الرسول ﷺ، فإن من العلم عدم البحث عنه لكمال الدين بدونه، وهذا من هذا النوع، فلا فائدة من الخوض فيه: فلما وقع لسليمان عليه السلام الابتلاء قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّك أَنْتَ الْوَهَّاب﴾ كما قال تعالى، فكان أن أجاب الله دعائه فقال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ أي حيث ملكه، وهذه الآية من سورة الأنبياء تبيّن مكان ملكه وهو قوله تعالى: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وهذا دليل أن حركة الريح خاضعة له في مكان مخصوص وليس كل الوجود كما فهم بعض أهل العلم، ومن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ تعلم أنه لم يملك كل الأرض، فهذه اليمن لم يكن يعلم عنها شيئا حتى أخبره الهدهد وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، ولكن الناس يحبون التكثير شأنهم في حب الغرائب، أمّا تفسيرهم: ﴿حَيْثُ أَصَاب﴾؛ أي حيث أراد فغير مستقيم، والأولى أن يفسر القرآن بعضه بعضا، فإن: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ فسرت بهذه الآية: ﴿الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي بيت المقدس وما حولها وهي الشام.

وهناك فرقٌ بين آية الأنبياء هنا وآية سورة ص، وهي أن الريح هنا وصفت: ﴿عَاصِفَةً﴾، وفي سورة ص وصفت: ﴿رُخَاءً﴾، وذلك لبيان تسخيرها على الوجه الذي يريد، فإن شاءها عاصفةً قويةً كانت كذلك، وإن أرادها رخاءً كانت كذلك.

وكان من الملك الخاص له تسخير الجن له، مؤمنهم وكافرهم، فالشيطان هو كافر الجن، والله يقول في سورة النمل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. وكان عمل الشياطين ما ذكر هنا وهو الغوص في البحار، ثم لهم عمل هو دون الغوص وهو ما ذكر في سورة ص: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾، أي يبنون له، وقد جاء في سورة سبأ ما هو بنياهم فقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ

[٣٤] الأنبياء: ٨١-٨٢.

الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾، فهم يبنون المحاريب وهي أماكن العبادة، والتماثيل، وليس المقصود الأصنام، بل هي كل بنيان له شكل مصور، وقد وصف بعضها في سورة النمل كما قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أن للطعام كحياض الماء، وقدور عظيمة مستقرة على أثافيها لثقلها للطبخ. فقد ذكر في هذه الآية ما تبنيه، فهي أبنية للعبادة وللسكن وللطعام، وهي حاجة الناس في كل وقت. كما ذكر في سورة ص أن هناك من الجن من هو محبوس مقيد وذلك في قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

وها هنا مسألة وهي أن هذا الملك الذي حصل لسليمان عليه السلام من تسخير الريح وخضوع الجن هو خلاف الأصل في الوجود، والتدافع السُنَني بين الحق والباطل أدوات التدافع فيه غير هذه الجنود من الجن والطير والريح، فهل يعني أن الحق لا ينتصر إلا بأدوات: «المعجزة» و«الكرامة» الخاصّة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين هذا من موطن الإشارة إلى بشرية الرسل وخضوعهم لسُنَن الإنسان في الوجود؟

والجواب: لقد علمت أن الملك الذي أعطيه سليمان عليه السلام إنما ورثه من أبيه داوُد عليه السلام، وقد علمت أن داوُد صار له الملك بعمل بشري شجاع وهو دخوله في جند طالوت وقتل عدوهم جالوت، فكان الملك الذي حصل لداوُد عن طريق سُنَني لا دور للجن ولا للريح ولا للطير فيه، وما ذكر من أمر تسبيح الجبال والطير مع داوُد عليه السلام فهو أمر لا دخلَ له في تحصيل الملك ولا هو من أدوات الملك والسلطان في الدعوة إلى الله والانتصار على الخصم، بل هو أمر خاص له في أمر تعبده النُسكي بينه وبين ربه، وهكذا استقر الملك لآل داوُد عليه السلام، وصار الملك بعد ذلك لسليمان، وما حصل أن أكرمه الله في ملكه وقد استقر لآل داوُد عليه كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾؛ أي داوُد بأن صارت الريح والجن له خدمًا، ولم يذكر في الكتاب أمر عملهم في شأن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله تعالى، بل عملهم على ما ذكر لك من الغوص لتحصيل المنافع، والبنيان لما تَقَدَّم ذكره، والقصة الوحيدة في القرآن في أمر سليمان عليه السلام وجهاده هي مع ملكة سبأ، والذي ذكر فيها أن الذي أخبر سليمان عليه السلام بالأمر هو الهدهد وليس الجن، وكأن الأمر ليس من اختصاصهم، كما تقدم لك أنه قد خضع له الشياطين وهم كفار الجن، فهل هؤلاء عدة جهاد وجنود دعوة؟!

ولو تأمّلت ما ذكره الله تعالى من صناعة داوُد عليه السلام، وهي صناعة أدوات الجهاد وتطويرها، وما ذكر عن صناعة الجن لسليمان عليه السلام لرأيت أن الأمر مختلف، فحين يكون الأمر أمر جهاد وقتال في سبيل الله يعرض القرآن صورة النبي الذي يصنع أدواتهما بنفسه، وأمّا أبنية الجن فهي أبنية ملك وسلطان، وحاجة له ولشعبه، وذلك ليعلم أن الجن والريح لم تكن أدوات جهاد لسليمان عليه السلام، فإن تحقق له نصر على أعدائه فهو بجهاده وجهاد المؤمنين معه، ويشهد لهذا حديث الاستثناء وفيه أن رسول الله ﷺ قال: ((قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ))، فعدة الجهاد هم الرجال عنده وليس الجن أو غيرهم، وهذا الحديث فيه فوائد منها بيان جهاد سليمان عليه السلام، ووجود الجهاد يعني وجود المخالف، وهذا دليل لما تقدم ذكره أن سلطان سليمان عليه السلام لم يبلغ كل الأرض كما يقول البعض، كذلك فيه أن الوعد الإلهي مشروط، وحين يغفل صاحب الوعد عن الشرط يفوته الوعد كما قدم لك سابقًا، فإن سليمان عليه السلام لا يقول هذا القول من عند نفسه، بل هو من إخبار الله له وهو قوله: "لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"، وكان هذا وعدًا بشرط، فلما فات الشرط وهو الاستثناء؛ أي قوله: إن شاء الله، فلما فات الشرط فات الوعد، وهذا يفسر لك دعاء النبي ﷺ يوم بدر مع وجود الوعد، ودعاء نوح عليه السلام على قومه مع وجود الوعد وهكذا.

فإن قيل: فما وجه قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾؟ فالجواب: هي جنوده ولا شك، ولكن الكلام عن عدة الجهاد وأدواته، فهذه الهدهد تحمل الخبر إليه، وتحمل رسالة إلى ملكة سبأ لكن الكلام عن آلة الجهاد، وهي المقصود. وذكر هذه الأخبار لرسول الله ﷺ ولأُمّته من أجل تعليمهم قدرة الله تعالى وعطاءه، كما ذكر رسول الله ﷺ أمر الفيل وما حصل له ولأصحابه، والله يقول: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، ويقول: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، فالله يعلم عباده قدرته بما أعطاه للخلق، وبما يفعل للمؤمنين من إكرام وما يفعل للكافرين من عذاب، وهو يحب سبحانه أن يمدح وأن يذكر فعله جلَّ في علاه.

ومع ما أُعطي سليمان عليه السلام من الملك، وما أعطيه والده كذلك إلا أنه جرت عليهما سُنَن الخلق في الموت والحياة، وقد ذكر في سبأ كيف كانت وفاة سليمان عليه السلام، وهذا لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقد نجح هذان

النبيان في هذا الامتحان فقد قال الله عن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾[٣٥]

وهذه شخصيةٌ بشرية، ونبيٌّ من الأنبياء، تعرض قصته لتحقق مقصدًا عظيمًا، وهو الدخول في رحمة الله وحبه من باب الصبر والاستغاثة، فهو نبي يجري عليه ما يجري على البشر من آلام المرض، ويقع منه الصبر المحبوب الذي لا جزع فيه، ولكن فيه الشكوى إلى الله تعالى والاستغاثة به فيحصل له مقصوده وزيادة عليه.

وأيوب عليه السلام يُضرَب به مثل الصبر للألم الشديد وطول الزمن فيه، وفي هذا الموطن يعرض القرآن دعاءه، ويجعل هذا الأمر وهو الدعاء سببًا للذكر ورفع الشأن، ثم العجب أن يجعل بعض أهل التفسير طلب زوجته منه أن يدعو ربه لصرف البلاء سببًا في غضبه عليها وحلفه أن يضربها كما في سورة: ص، فهذا غلط في الفهم إذ الدعاء مطلب شرعي يحبه الله، ولا يخالف الصبر الجميل، فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فلم يكن الدعاء مانعًا من تحقيق الصبر الجميل، وهو الصبر بلا جزع.

وقد قيلَ الكثير عن مرض أيوب عليه السلام، وكما تقدم فإن عدم ذكر القرآن والسُنّة لأمر من أخبار السابقين يغنينا عن تقفره في تفسير كتاب الله تعالى، ويلاحظ أن انشغال بعض أهل التفسير بالإسرائيليات والأخبار الغريبة يمنعهم من النظر إلى مقصود السياق والخبر المذكور في القرآن؛ فالمقصود من ذكر أيوب عليه السلام هنا هو ما تحقق له من نجاة بالدعاء والشكوى إلى الله، مع بيان ما يصيب الأنبياء من عوارض ما يصاب به البشر من غيرهم، بل هم في المرض والابتلاء أشدُّ من غيرهم كما قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي قال له فيه ابن مسعود رضي الله عنه: "إنك لتوعك وعكًا شديدًا، فقال رسول الله ﷺ: أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ. وقالت عائشة رضي الله عنها: "ما رأيت أحدًا أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ."

[٣٥] الأنبياء: ٨٣-٨٤

وقوله عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ من أدبه في الدعاء، فإنه لم ينسب الضر إلى الله، بل في سورة ص، قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وأنت ترى لما نسب الأمر إلى الشيطان فإنه فصل وأكثر فقال: ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ولَمّا لَم يُنسب اقتصر على قوله: ﴿الضُّرُّ﴾، وأدب الأنبياء والصالحين في القرآن كثير، ومن هذا النوع في ترك نسبةالضر إلى الله ما ورد في سورة الكهف، فإن الخضر عليه السلام لما ذكر السفينة وخرقها قال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فنسب الفعل لنفسه، وكذلك لما قتل الغلام قال: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ۝ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ فلما كان القتل نسبه لنفسه، ولما كان الاستبدال نسبه لله، ولما ذكر إصلاح الجدار فلم ينسبه لنفسه كخرق السفينة وقتل الغلام بل قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مع أن جميع ما فعل هو من أمر الله تعالى لقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ وأدب الأنبياء والصالحين في القرآن كثير يمكن أن يجمع فيه مصنف كامل، ولو تأملت قول أيوب عليه السلام هنا وهو يشكو لربه في قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ مع أنه برّح به ثم ختمه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ترى الأدب في الخطاب كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ وهذا وعده جلَّ في علاه للداعين لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقد يسأل سائل: لقد قيل عن زمن مكث أيوب عليه السلام في المرض، وأنه طالَ عليه، فهل أخّر أيوب عليه السلام الدعاء، أَم إن الإجابة طالت زمن المرض؟ والجواب: إن شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين أن يسارعو في الدعاء، لأنه خير عبادة المرء في السعة والضيق، والمرء يكثر منه في الضيق لشدة الحاجة فإنه باب قضائها، ولكن لا يقع الجواب إلا على قدره الذي قدّره الله تعالى في سابق علمه، والمستعجل هو الذي يظن أنه لم يستجب له فيترك الدعاء كما قال رسول الله ﷺ، وأنت تعلم قصة يعقوب عليه السلام مع بلاء فقد ابنه الحبيب يوسف الصديق عليه السلام، وقد شكى ودعا حتى كف بصره كما أخبر القرآن بذلك، فلم يترك الدعاء، ولم يقع في اليأس بل قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، فتأخير الإجابة ليس لضعف الداعي، وقد يكون هذا احدى الأسباب عند بعضهم، لكن ليس هذا لازم التأخير، فقد يكون التأخير فيه خير الداعي بكثرة العبادة والدعاء والصدقة، وقد يكون أمر الإجابة خيرًا مما طلب، كما وقع ليوسف عليه السلام، فإنه عاد إلى أبيه يعقوب عليه السلام خيرًا مما رجا وأمل، وقد يكون لبلوغه القدري الملائم له، فإن الفعل يتشكل كما يتشكّل الجنين في بطن أمه، ولا يخرج إن أراد الله حياته إلا على قدر يلائمه من الزمن والحال، وإلا كان سقطا، ولو تأملت تأخير الله تعالى الثلاثة المخلفين في غزوة تبوك، مع توبتهم في أول الأمر لعلمت بعض حكم تأخير الإجابة، فإن الاستغفار دعاء، وبعض من يقرأ الآيات يتجاوز عنصر الزمن، ولا يراعيه، فالله يقول عن نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، وأنت تعلم أنه بعد أن علم بأنهم لن

يؤمنوا، فدعا ربه هلاكهم فإن الله أمره ببناء السفينة، فانظر كم كان بين دعاءه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ﴾. وانظر كذلك بين دعاء الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ وبين تحقق هذا الدعاء ببعثة سيد الخلق مُحَمَّد ﷺ، فمراعاة الزمن في فهم الوقائع، وكذلك مراعاة وجودها السُنَني تعينك على فهم الوعود الإلهية والأخبار القرآنية، فإنك إن دخلت هذا السلك، وهو سلك الدعاة إلى الله تعالى وسلك العاملين لدينه والمجاهدين في سبيله فإن أكثر ما يقع البلاء فيه هو فهم أقدار الله تعالى، أمّا الابتلاء بإدراك الأحكام الشرعية فقليل، إذ المسلم مسلم للشرع، لكن الأقدار وما فيها من وقائع وخاصة وقت الابتلاء والمحن والملمات هي ما تعرض لهؤلاء، ومن لم يفقه حركة الأنبياء عليهم السلام في القرآن على وجهها السُنَني وقع في التردد والتساؤل، ومن ذلك مسألة إجابة الدعاء في صرف البلاء وتحقيق الفرج، وكذلك فهم العمل الإيماني حين تغيب معا لم أثره في لحظته الراهنة ولا يبقى منه إلا البلاء، فيحكم عليه البعض بهذه اللحظة ولا ينظر إلى حكمة الله تعالى فيه، وأنت ترى الناس اليوم لا يردون أصل الجهاد، وأقصد أهل العلم والفتوى، لكنهم يردون أغلب آحاده وصوره المعاصرة، بل إن بعضهم مع إيمانه بالجهاد إلا أنه لا يرى جهادًا في هذا الزمن، وسبب هذاجهلهم بقدر الجهاد، فإن علمهم به فقها لم يغنهم في دفع حقيقته وواقعه، والسبب أنهم يتصورون الجهاد تصورًا خاصًا، ويظنون للجهاد أقدارًا مصنوعة من داخلهم لا من الإدراك السُنَني له، وقد تشغلهم حين النظر إلى تاريخه عند السابقين صورة جميلة عن حقيقته، فلما يقع في عصرهم وهو وقوعٌ سُنَني كان في كل جهاد في الوجود حتى مع الأنبياء عليهم السلام فإنه يضيق علمه إلا من رؤية ما يؤلمه، فيذم ويقدح، ومثل هؤلاء حال الشعراء الذين يأسرهم اللفظ عن الحقيقة الكونية، فالشاعر حين يصف الزرع وقطف المزارع له، فإنه لا يرى فيه الألم ولا التعب ولا مشقّة الزرع ولا الرعاية ولا الحرث، بل هي عنده في لفظه على معنى الراحة من كل وجه، ولو قدر لهذا الشاعر أن يعمل مزارعًا لعلم أن سُنَن الأشياء غير ألفاظها.

والمخرج من هذا هي قصص القرآن وفهمها على وجهها السُنَني، أمّا الداعي إلى الله الذي قام خطيبا لمرة في قومه فعلمهم فاستهزؤوا به وأعرضوا عنه فذهب يدعو دعاء نوح عليه السلام الذي دعاه بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم جعل ينظر إجابة دعائه فهذا جاهلٌ بسُنَن الدعوة، وهو إن فهم وجهها الشرعي لكنه جهل قَدَرها الكوني، والعبودية لا تستقيم إلا بالتسليم للشرع وللقدر، ولا يتحقق التسليم للقدر إلا بفهم وعلم سُنّة الله فيما أنت قائم به، وأعظم سُنَن الوجود هي ما تعلقت بالدعوة والجهاد، فهي ما اعتنى به القرآن وفصله.

فأيوب عليه السلام قد أصابه النصب والعذاب والضرر، وهذه لا تقال لمن وقع يوما في المرض، بل هوحال من طال عليه المرض، فدعا ودعا، وقد تمت الإجابة منذ أول الدعاء، ولكنه الدعاء كالدواء لا يتحقق فعله إلا بوجود الكفاية منه، وبسلوك الدواء مسلكه السُنَني بوجود عامل الزمن لتحقيق الأثر، وهذا الذي هنا يقال كذلك عن محنة يونس عليه السلام كما ستأتي.

قوله عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ليس فيه طلب الشفاء باللفظ، إنما هو عرض الحال على معنى السؤال، وهذا على معنى قول الشاعر:

أَأذكرُ حاجَتي أمْ قد كفاني ... حياؤك إنَّ شيَمتَكَ الحياءُ

فعرض الحال سؤال كما قال الأعرابي للخليفة: "بيتنا يشكو قلة الفئران"، وهذا من أيوب منتهى التذلل مع تفويض الأمر لربه.

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ جاء تفصيله في سورة: ص في قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فقد ضرب برجله الأرض فخرج له الماء، فكان شفاءً وشرابًا، والبرد في لغتهم يقرن بالبراءة من العيب كقولهم: «برد اليقين» و«برد العافية»، وأمره بأن يركض برجله ليحصل له الماء الذي فيه الشفاء، كأمره لمريم – عليها السلام – بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، وهذا كله مراعاةً للسُنَن القَدَرية، فإن الله قادرٌ أن يحصل لأيوب الشفاء بلا ماء يستشفى به، والركض بالرجل لا يخرج الماء، كما إن امرأة نفساء لا تقدر هز جذع النخلة المثمرة، ولكنها السُنَن القدرية التي يجب على العبد مراعاة ما قدر منها، فإنه إن فاته شيء قدر على آخر، والميسور لا يسقط بالمعسور، والنبي ﷺ يقول: ((اسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ)).

وأنت ترى هنا أن استجابة الدعاء كانت هداية لسبب يحقق المطلوب، إذ لم يكشف الضر بزواله بغير سبب، بل هداه الله لسبب يحقق فيه سؤاله، فالمؤمن يرى أن ما به من نعمة إنما تحقق بهداية الله تعالى له و إدراك سببه، والأعمى يقف ناظرًا إلى السبب معلقًا عليه ما حصل له كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ فلو هدي لحمد الله على نعمة العلم، وهو السبب الذي حصل به المال، فالأسباب عند الجاهلين حجاب عن رؤية المنعم، وهي عند الصالحين سبيلًا لرؤية يده وعطائه.

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، يعيب الجاهلون على الأنبياء زواجهم ونكاحهم، وبعض يخص القدح رسولنا مُحَمَّد ﷺ ويقولون في ذلك الأقاويل، والله يقول يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾، وبعض الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كان لهم مئات الأزواج كما تقدم في حديث الاستثناء مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: "إِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً" أي رسول الله ﷺ، ورسولنا ﷺ يقول: ((حُبِّبَ إليَّ مِن دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ والطِّيبُ))، فهذه فطرة الله تعالى في الخلق، والله يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

وأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كان له زوجة أغضبته في مرضه فحلف أن يجلدها فبرّ الله يمينه بقوله في سورة ص: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وفي هذه الآية ذكر الله تعالى منه عليه برد أهله عليه زوجة وبنينًا، وكان فوق ذلك زيادة أهل آخرين من الأزواج والذرية. وبعض أهل العلم جعل هذا وعدًا في الآخرة، والسياق يأباه، بل ومن علم ما يعطى النبي في الآخرة علم أنه فوق هذا الوعد بل من هو أقل من النبي وهو الشهيد له أهل أضعاف هذا.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ تنبيهًا للناس أن البلاء والمرض ليس نقمةً إلهيةً على العبد، ولا هو من نوع العقوبة، وإن كان بعضه كذلك، حيث يكفر الله به الخطايا، أو يعجل بعض العقوبة للعصاة مع ادخارها لهم أعظم في الآخرة، لكن وقوع البلاء والمرض على الصالحين، إنما له معنى آخر، فهو سبيل عبادة عند هؤلاء بصبرهم وتركهم الجزع والشكوى إلا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فالعابد يرى المرض والصحة مطيتين لعمل الصالحات والقربى إلى الله تعالى، بل هو يرى البلاء أقرب إليه في العمل لتحقيق مغفرة الذنوب وتحصيل الدرجات وكثرة الدعاء.

وهذا العرض الإلهي لهذا النبي العظيم في صبره على الضر والنصب والعذاب هو دعوة للدخول في هذا النموذج، وليعلم أهل العلم والعبادة أن هذه الدنيا ليست بشيء عند الله تعالى، فإنها لو كانت شيئًا لَمّا حرم منها أحبُّ الخلق إليه، وهم الأنبياء، والعجب من إنتكاس أحكام الناس اليوم حين يعدون البلاء في المرء خطأ الطريق والمنهج، ويرون أن خلو المرء من البلاء وانغماسه في النعم دليل رضا الله وحبه له، وهذه انتكاسة في التقييم والمفاهيم، والمؤمن وإن أحب العافية، لكنها ليست سبيل الدرجات العليا في الجنة، ومن جمع بين هذه الصور من حياة الأنبياء كحياة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم نظر إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة

طَيِّبَة﴾ علم معنى الحياة الطيبة في هذه الدنيا، وهو أن يسلم دينه وعرضه كما قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن الحياة الشقية أن يبيع المرء دينه من أجل الدنيا، أو أن يهرب من بلاء الطواغيت داخلًا في غضب الله متنعمًا بين أهله وماله، وهو يظن أنه ذكي البصر، حكيم التصرف، ولم يدرِ هذا المسكين أنه دخل في الحياة الشقية ولم يدخل الحياة الطيبة، فالحياة الطيبة أن تحقق أمر الله فيك بالصبر على الإيمان وواجباته، وأن تطلب سبل الجنة من الشهادة وقول الحق ومدافعة الظلم والخبث في الوجود، ثم أن تصبر على ما يصيبك في ذلك، ولا تشكو لمثلك من الخلق، بل تشكو في خلوتك، وسرك وعلنك لمولاك، فهو أرحم من نفسك على نفسك.

إضاءة: في كتب التفسير بالآثار أخبار كثيرة عن أيوب، وقصص طويلة كلها مأخوذة من التوراة، ولو قارنت بين هذه الأخبار والتوراة التي بين يديّ الناس اليوم وما فيها من سفر أيوب تجد المطابقة التامة بينهما، ولا يوجد خبر منها إلا وفيه كذبٌ صريحٌ على الأنبياء، وخاصةً ما ورد في تفسير الطبري والثعلبي في عرائس المجالس والبغوي، وبعض ما نقله ابن كثير، فلو ترك لكان خيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣٦]

كما كان ذكر لوط ونوح عليهما السلام بعد ذكر إبراهيم عليه السلام في سياق بيان النصر الإلهي للأنبياء، فها هنا يذكر هؤلاء الأنبياء في سياق الصبر النبوي على البلاء، مع تنوعه.

أمّا إسماعيل عليه السلام فقد علمت قصته في أمر الله تعالى لأبيه الخليل عليه السلام بوضعه مع أمه هاجر في مكة؛ الوادي القاحل الذي لا زرع فيه، وما كان في قصته من البلاء له ولأمه. ثم صبره عليه السلام على حكم الله تعالى بذبحه لما عرض له أبوه ذلك فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. ثم صبره مع أبيه على بناء االبيت الحرام، وهو عمل عظيم قدّت حجارته من الجبال، ولم يكن معهم في ذلك أحد.

وأمّا إدريس عليه السلام فليس له خبرٌ في الكتاب أو السنّة، لكن كونه نبيًا يعني أنه داخل في قوله ﷺ: ((أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ))، وكذلك ذكره هنا دليل على وجود بلاء خاص أصابه، الله أعلم به.

[٣٦] الأنبياء: ٨٥-٨٦

وأمّا ذو الكفل فذكره هنا في هذا السياق يدلُّ على نبوته، وقد اختُلِفَ في ذلك، والمقصود هو دخوله في زمرة الصابرين والصالحين، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾، دليلٌ على حصول كشف البلاء عنهم بعد الصبر وجعل الله علة إجابة الدعاء هو الصلاح، وسيأتي في خبر زكريا عليه السلام بعض أعمال الصلاح، مع أن الدعاء هو من خير أعمال الصالحين زمن الصبر.

وهذا كله بيانٌ لمسالك العبودية، ونموذج العابدين، والشخصية القرآنية، إذ أن عمادها الصبر على البلاء، سواء كان في بدنها أم أهلها، إذ الصبر قسيم الشكر، فهذا للنعم والأول للبلاء، ولا تصحُّ عبودية المرء ولا دخوله في الصالحين إلا مع هذه الخصلة المحبوبة عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقد تَقَدَّمَ لك أن الصبر قسمان؛ صبر على أداء الفعل، كصبر المجاهدين في جهادهم، وصبر المتقنين لتحسين عملهم، وصبر التسليم، وذلك حين فراغ الوسع من قوته، وفراغ اليد من آلتها، وهما لا يشبهان صبر البهائم بالرضا على الهوان مع إمكانية دفع الضرر بالجهاد والعمل، وهو الصبر الذي يدعو إليه البعض اليوم أمام إجرام أعدائهم، الذي ينظر إلى عرضه ودينه ينتهك، وينزوي إلى مأمنه زاعمًا العمل بخصلة الصبر هو كاذب، بل هو الجبن والخور، وهؤلاء يزعمون الصبر هروبًا من البلاء المحبوب عند الله تعالى، وهو البلاء الذي يصيب الدعاة والمجاهدين والعلماء، إذ يقع عليهم لقيامهم بدفع المنكر والنهي عنه فيصيبهم البلاء، وأمّا هؤلاء فيسكتون على المنكر زاعمين الصبر عليه، وهم من الصبر المحمود عند الله فروا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فجعل الصبر هو مظلة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق، أما ترك الحق بزعم الصبر فهو طريق الضالين.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٧]

وهذه شخصيةٌ نبويةٌ أخرى، ونموذج بشري مهتدي يرفعه القرآن للدخول فيه، إذ فيه إحدى عمد الشخصية القرآنية المحبوبة عند الله تعالى وهي صفة التائب المنيب إلى ربه، فإن الله سبحانه وتعالى قدر الذنب على ابن آدم لا محالة كما

[٣٧] الأنبياء: ٨٧-٨٨

قال رسول الله ﷺ: ((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))، وقال ﷺ: ((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ))، وهذا من وراثة الابن عن أبيه، فإن الله خلق آدم من ضعف، وكذلك أولاده من بعده، ولقد كان عدم فهم الذنب على الوجه الذي علمه الله لأنبيائه سببًا لنشوء أديان باطلة ومذاهب شركيّة، فإن بعض الأديان ترى الإنسان وسخ، قذر، لا يصلح للطاعة، وجعلت سبيل الحياة كلها هو معاقبة الإنسان لنفسه، فأرهقته على وجه الخروج عن الإنسانية كما تفعل أديان النسك الشركي، وورثت النصرانية هذا الدين عن غيرها، فصار العابد منهم، والمقدم فيهم هو من شدد في إيذاء بدنه للخروج من قذارته ووسخه كما يسمون الفطرة الإنسانية، والنبي ﷺ قد رأى واقفًا في الشمس فسأل عنه فأخبر أنه نذر أن يقوم صائما في الشمس، فأمره أن يتم صومه، لأنه طاعة، كما أمره أن يستظل، وفي الحديث لمثل هذا قوله: ((إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لغَنِيٌّ))، وقال ﷺ لمن استقلّ عبادته، وأنه يصوم ويفطر، وينام ويقوم: ((مَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)).

فاعتقاد قذارة الإنسان ووسخه ونجاسة روحه وقلبه هو اعتقاد أهل الضلالة والشرك، ووقوع الإنسان في الذنب لا يعني إلا شيئًا واحدًا أنه إنسان، ولا خروج لهذا الإنسان عن بشريته وفطرته التي فطره الله عليها، ولذلك كان من رحمة الله أن فتح باب التوبة للعبد، وجعل دخول هذا المذنب هذا الباب من محبوبات الله، والسالك فيه بالغ الرضى الإلهي.

فالشخصية النبوية بشرية القوام، ويعرض لها ما يعرض للبشر، ومن أحب أعمالهاعند الله تعالى استغفارها على معاني كثيرة قدمت في موطن آخر، ولذلك قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ والنبيُّ ﷺ يقول: ((إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً))، وقال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم وَتُوبُوا إِلَيْهِ ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ))، فهذا الذكر المحبوب إلى الله هو ما تلهج به ألسنة العباد الذين الذين يحبهم الله تعالى، وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، فالقنوط من رحمة الله كفر بالله وبصفاته، فإن القانط كافر بالغفور الرحيم.

ففي قصة يونس عليه السلام: ﴿ذَا النُّونِ﴾ أمران؛ بيان اقتران الشخصية القرآنية بالتوبة والاستغفار، كما أن فيها بيان عظم الذنب في تغيير مسار الدعوة عن طريقها الذي يحبه الله لها. فإن يونس عليه السلام ترك قومه غضبًا لعدم

إسلامهم، والنبي وإن كان له مشاعر خاصّة تطرأ على نفسه وهو قائمٌ بالدعوة إلا أن اختياراته لا تكون تبعًا لهذه المشاعر، ولا يجوز أن تحكم هذه المعاني الشخصية اختياراته، بل يجب سلوك سُنَن الدعوة كما هي في شرع الله تعالى، فالله تعالى يقول لرسول الله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ويقول: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ويقول له: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، ويقول لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ويقول: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، فقدر الدعوة لا يخضع لما يحب الداعي ويشتهي، حتى لو كان ما يحبه هو ما يظنه مصلحة للدين، فإن فعل المصطفى ﷺ - بأبي هو وأمي - مع الأعمى رضي الله عنه لم يكن عن هوى، وحاشاه ﷺ، بل هو النظر في مصلحة الدين كما يراها. فالدعوة وطريقها أمر عظيم عند الله تعالى، والداعي لا يجوز له إلا أن يسلك السبيل الذي شرعه الله له، فلا يغير ولا يبدل بل كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وتأمّل هذه الآية وسورة يونس، وهي تجمع بين الاتباع والصبر وانتظار القضاء الإلهي في الفصل بين الأنبياء وأعدائهم، لتعلم أن النصر لا يتحقق إلا بالصبر على طريق الدعوة كما شرعه الله، وهو بين في القرآن، ومن ذلك نهيه عن المداهنة كما قال سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ونهيه عن المساومة عن بعض الدين كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وقوله تعالى له: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ وآياتٍ كثيرة كلها ترسم طريق الدعوة، وتُفصّله، ثم يأتي الجاهلون ليقولوا إن القرآن كتاب عمومات في مسالك الدعوة، ليجعلوا لأهوائهم مكانًا في أعظم عملٍ في الوجود، وهو عمل الأنبياء، ولو قال قائل: إن أعظم أمرٍ قد فصّله الله في كتابه هو عمل الدعوة وأقدارها ومسالكها لَمَا أخطأ، فإن القصص القرآني لَم يوضع إلا لهذا، وما تنوّع القصة الواحدة في القرآن إلا لنكشف للداعي عمله في كل نازلةٍ تقع له في هذا الطريق العظيم.

فهذا يونس عليه السلام نهى الله رسوله مُحَمَّد ﷺ أن يفعل فعله فقال له: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وفعله قد ذكره الله تعالى في سورة الصافات فقال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فهذا دليل خروجه من قومه بلا إذن، وهو الإباق، وفي هذه السورة؛ أي الأنبياء وصف الله سبب خروجه فقال: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾ فهو خروج النبيِّ الغاضب، وكون هذا العمل يتعلق بأعظم عمل في الوجود وهو الدعوة إلى الله فإن الذنب الذي يقع فيه ليس كغيره، والمذنب فيه ليس كغيره من المذنبين، ولذلك كانت هذه العقوبة الربانية العظيمة كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وهكذا من يترك أمر الله تعالى في هذا الباب يعيش حائرًا تائهًا لا يصل إلى هدفه، لأنه بعيدٌ عن الطريق الموصل إليه، وفي وادي ليس هو المسلك الذي يحبه الله فيوفقه لمبتغاه، ومن تأمّل مسالك الناس اليوم في هذا الباب رأى اضطرابهم وتخبطهم، فإن طرقهم لَم توصل إلى النصر الذي يريدونه، بل هم مطايا غيرهم، مع أنهم يصابون في كل موقعةٍ بالبلاء لكنه بلاء ترك الهدى، لا بلاء طريق الهدى، فإن بلاء ترك الهدى يوصل إلى لا شيء، وبلاء طريق الهدى يوصل إلى هدف الأنبياء والصالحين وتحقيق النصر.

وقوله: ﴿مُغَاضِباً﴾ فيه أقوال لأهل التفسير، هل خرج مغاضبًا لقومه أَم لربه، وليس من العلم الدخول في مضايق الخلاف بين الناس فيما لا طائل تحته، وفي ما لا خبر فيه عن الله ورسوله ﷺ، مع أن كل ما قالوه يوصل إلى علمٍ واحد وهو أن يونس عليه السلام خرج من قومه خروجًا لا يحبه الله تعالى، ولم يَرضه منه، فعاقبه بما أخبر به سبحانه وتعالى، والطبري وقد رجّح أنه خرج مغاضبًا لربه شعر أنه بحاجةٍ لدفع التهمة عن نفسه في هذا الاختيار إذ فيه نوع شناعة على يونس عليه السلام فقال: "وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبيّ الله يونس صلوات الله عليه شيء إلا وهو دون ما وصفه الذين قالوا: ذهب مغاضبًا لقومه، لأن ذهابه عن قومه مغاضبًا لهم، وقد أمره الله بالمقام بين أظهرهم، ليبلغهم رسالته ويحذرهم بأسه وعقوبته على تركهم الإيمان به والعمل بطاعته لا شكَّ أن فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان عليه السلام أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه، ويصفه بالصفة التي وصفه بها فيقول لنبيه: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ويقول: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾" انتهى كلامه رحمه الله.

أمّا وقد ذكر الأمر فإني سأدلك على موطن الاضطراب في كلام الطبري رحمه الله تعالى، مع أن الكل عالةٌ عليه، فإنه رحمه الله ذكر في تفسير سورة يونس أن سبب رفع العذاب عن قوم يونس هو توبتهم وإيمانهم، ولَمّا اختار هنا سبب مغاضبة يونس لربه سبحانه وتعالى جعل السبب أن يونس عليه السلام لَمّا أخبرهم بالعذاب فانتظروه فلمّا رأوا علاماته تابوا وآمنوا فرفع عنهم، فغضب يونس عليه السلام أنه كذب بهذا الرفع، وهذا لا يُعقَل، فإنه لن يقول هو ولا قومه ولا أحد يعقل أنه كذب وقد جاءت علامات ودلائل العذاب، وهي التي جعلت قومه يصدقونه فآمنوا وتابوا، فإن القوم صدقوه فكيف يقول: كُذِّبت برفع العذاب؟ أمّا قول الطبري رحمه الله إن قول القائلين خرج مغاضبًا لقومه ليس أدنى في التهمة من قوله: إنه خرج مغاضبًا لربه فغير صحيح، فإن خروجه مغاضبًا لربه اعتراضٌ صريحٌ على فعل الرب وتدبيره، وأمّا خروجه عن قومه فقد وقع، فقد يخرج ناسيًا الأمر بالمقام لشدّة غضبه عليهم، وقد يظن أن إخبار الله تعالى له بالعذاب يؤذن له الخروج، فأين هذه من تلك؟ بل إن قول القائل: "خرج مغاضبًا لربه" فيه تهمةٌ زائدةٌ عن ذلك كله، وهو غضبه لإيمان قومه الذي بسببه صرف العذاب عنهم، وهذا غير مُتخَيّل من نبيٍّ همّه وجهده إيمانهم.

ولذلك يُحمَد لابن كثير رحمه الله تعالى أنه لم يذكر في تفسيره إلا قول الضحّاك: "مغاضبًا لقومه"، فإنه من البيِّن لمن خبر طريق ابن كثير في تفسيره أنه كان يتجنب مضايق الخلاف التي ولجها الأقدمون، فإن الأقدمين كانوا يضعون كتبهم لأمثالهم من أهل العلم، وأمّا المتأخرون فكان علمهم بأهل زمانهم مؤذنًا بعزل ما يضيق به نظر أهل زمانهم، وهو من حكمة العلم وسياسته، مع أن الكثير من المتأخرين شغلوا بفضول العلم عن أصوله، وكثر فيهم ذكر الغرائب والضعيف، وتشوّقت نفوسهم إلى تقويتها بأدنى السبل مما لم يكن مرضيًا عند الأوائل. والقصد أن البعض يظن أن إطراح بعض أهل العلم لأمور هو من قبيل العجز عن معالجتها، وهذا خطأٌ في فهم مناهجهم في التصنيف، بل ظن بعض المتأخرين، وهم كثير، أن ما أدركه المتأخر لم يكن عند المتقدم، فتبجح أنه قوّى ما ضعفه أساطين العلم من أهل الفن، وهذا لعمر الحق من الجهل بعلم الاوائل، كما أنه من الجهل المركب في طرق تصنيفهم، وأكثر من ذلك جهل بطرق أحكامهم على المسائل.

واعلم أن هذا الكلام يقوله كاتبه لنفسه لا لغيره، لأنه عاشه لما كان على سُنَن بعض المعاصرين، وقد رآه في الناس كما كان فيه، فاللهم غفرانك.

تنبيه: روى ابن جرير والبغوي وذكر ابن الجوزي عن سعيد أبي الحسن قال: بلغني أن يونس لما أصاب الذنب، انطلق مغاضبا لربه، واستزله الشيطان، وقال ابن جرير في تفسيره عن يونس عليه السلام: "وكان رجلاً في خلقه ضيق."

وروى هذه اللفظة عن الحسن البصري، فلم يطعن أحد في دين هؤلاء، لا القائلين ولا الناقلين، لم يقل فيهم بدعوى التقوى: إن هذا سبٌّ للأنبياء، نعوذ بالله من هذه التهمة أن تُلصَق بعالِمٍ من علماء الأُمَّة، ولكن في زمن التقوى الباردة، وبسبب ميزان الظلم لا الاعتدال الذي يحمله نُقّاد الرجال هذه الأيام يتهمون سيّد قُطب بسب موسى عليه السلام ويكفرونه مُخلّدينَ إياه في جهنم لأنه وصف خلق موسى عليه السلام بخلقٍ هو من فطرة البشر التي تكون في أسويائهم، بل تكون في خيارهم وهي الغضب، وليت القوم ينتصرون لدين الله الذي بدّله الطواغيت، ولدماء المسلمين التي تسيلُ على يد أولياء أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي ظن أنه لن يعاقب على هذه الفعلة بالتضييق عليه، فقوله سبحانه: ﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي نضيّق عليه واستدلَّ ابن جرير على هذا بقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾، وهذا الظن وقع في نفسه، وقد يقع في مثله لأسباب منها: شدة الغضب، أو ظنه أنه ليس معصية، أو اتكالًا على وعدٍ لم يدرك شرطه، وتأويل هذا ليونس عليه السلام هو الأليق بالأنبياء عليهم السلام ، وأنت تعلم أن الله عز وجل غفر للنبي مُحَمَّد ﷺ ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأخّر، ومع ذلك انظر بكاءه ﷺ مع صاحبه الصديق أبي بكر رضي الله عنه لَمّا نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ وقوله ﷺ للفاروق: ((أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ. لَقَدْ عُرِضَ عَلَيّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىَ مِنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ))، والأمر أنهم أخذوا الفداء قبل حلّه لهم من الله، وقبل الإذن فقال تعالى: ﴿لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا مع أنها أُحلّت لهم بعد ذلك، لكن كره الله لهم أن يقدموا على فعل لم يؤذن لهم فيه، وهذا الأمر يقرب لك فهم فعلة يونس عليه السلام وسبب ما وقع له من التقام الحوت.

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، جاء في آيات أخرى ما الذي جرى معه فقال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ فهذه وقائع الحدث:

- خرج فركب سفينته وقد عرت براكبيها وما فيها، فهو فلك مشحون، وما بعده يدل على أن القوم استثقلوا الشحن لأمر من أمور البحر أصابهم فقرروا طرح بعض ما فيها...

- فاستهموا، فخرج على قوم كان منهم، فطرح في الماء...

- فالتقمه الحوت فكان في جوفه...

- فكان في ظلمة البطن واليم، واليم ليس ظلمة واحدة بل ظلمات فوق بعض...

فكان دعاؤه هو تسبيحه كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ﴾ وهو هذا الدعاء والاستغفار والتسبيح: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقد ذكرت سابقًا في تفسير سورة الإسراء وجه الجمع بين التسبيح والاستغفار، فإن الذنب ظلمٌ للنفس، وظلمٌ لحقِّ الله تعالى، فالتسبيح ردٌّ لظلم حق الله، فإن الذنب يؤذي الرب ويغضبه، وتسبيحُ الله تنزيهه بأن الذنب لا يليق به، والاستغفار رفع لظلم النفس، فاقترن التسبيح بالاستغفار كما قال أصحاب الجنة كما في سورة نون: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وأمّا توحيده هنا بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ فإن الذنب خدشٌ لمقام التوحيد، فإن العبودية التامّة التي تفيدها هذه الكلمة تقتضي عدم الذنب، ولَمّا يكون فهو خروج عن العبودية بحسب الذنب، فتوحيد المرء لربه استغفارٌ من هذا الخدش والخروج، ولذلك كانت كلمة التوحيد عند إسلام المرء مكفرةً لذنوبه التي أتاها قبل، فإن فعلت ذلك في ذنب الكفر ولواحقه، فهي أدعى لأن تمحو ذنب المسلم حين يقترفه بعد إسلامه، ولذلك قال يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ ليقرّ بأن ما فعله خروج عنها بنوع ما، فها هو يتوب بعودة العقد وتجريده كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد وقال المنذري: "إسناده حسن": جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يا رَسُولَ الله، وكيفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَى﴾ أي أن قوله دعاء واستغاثة، وفي سورة الصافات سماه تسبيحاً لقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ﴾، فجمع عليه السلام هاتين الفضيلتين.

وأنت لو تأمّلت هذه الكلمة اليونسية العظيمة لرأيت فيها نفسًا ممدودًا في حروفها تناسب النداء، وتناسب حال هذا العبد الماكث في ظلمة حوت طائف به في لجة البحار.

وقد قدّمت لك حتى لا تسأل: هل هذه العقوبة تناسب الفعل؟ فإن الله سبحانه القائل: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وهو النبي الذي اختاره الله لأعظم المهمات، والله لا يختار لها إلا المصطفين الأخيار، ويونس عليه السلام منهم، لكن هذا لتعلم عقوبة التقدمة على أمر الله، وذنب القول عليه، وجريمة العامل في هذا السبيل غير ما شرّعه الله وأذن فيه، فهذه عقوبة، والله يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ فقارن بين هذا الشيء القليل وعقوبته، وبين ما يفعله البعضمن الدخول معهم في دينهم، فماذا هي عقوبته إذًا؟

ولعلك لم تنسَ أن يونس عليه السلام لم يقل هذه الكلمة مرة ثم حصل له النجاة، ولا أنه قالها الآن فلفظه الحوت إلى البر، بل تأمل قوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ وهذا وصفٌ لا يحصل عليه المرء إلا بأن يصبح له سجيته، وأمّا من قال من أهل العلم إن هذا وصف له قبل الفعل فصدقوا، هو كذلك عليه السلام من المسبحين قبل الذنب، لكن ليس هذا مراد الآية، فإن القرآن يفسّر بعضه بعضًا، والتسبيح المذكور في سورة الصافّات هو ذكره هذا كما في سورة الأنبياء. والقصد أنه جعل يذكر ربه بهذا الذكر، ويلهج به لسانه مناديًا ربه حتى تحقق له النجاة على موعد رباني وقدر إلهي كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

واعلم أن الكلمات في البلاء تنشأ من المعاني الحقيقية في القلب، فإن المرء في البلاء الشديد لا اختيار له إلا ما كان في قلبه على الحقيقة، فهناك تظهر مكنونات حقائق النفوس وما فيها من المعاني، وهذا بخلاف السعة، فإن للمرء فيها اختيارًا، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عند مواجهة بنيان الجحيم: حسبنا الله ونعم الوكيل، وهنا يقول يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فقد ذهب الغضب على الآخرين، ولم يبقَ إلا النظر إلى نفسه وعمل يده، ولذلك قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ فصلى الله عليه من نبي عظيم هو على سيرة إخوانه من الأنبياء كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ويونس عليه السلام هنا حقًا وصدقًا أواهٌ منيب.

وها أنت ترى كيف غضب الرب جلَّ في علاه، وكيف أطفأ العبد الصالح غضب الرب بمدحه، فوحده وسبحه ونسب الذنب والظلم لنفسه ففرح الرب ورضي عنه وقال: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وعلمك هذا بربك هو من خير علوم الوجود، بل هو أصل العلوم، فإن أول ما علمه آدم عليه السلام من نفس ربه ومولاه، هو قبول التوبة، وأن العبد يعود بعد التوبة أحبُّ إلى الله وأقرب.

ولعلك تلاحظ فارقًا بين نداء أيوب ونداء يونس عليهما السلام، فأيوب عليه السلام قدَّم حاجته قبل مدح الله تعالى، فعرض ما فيه من الضر ثم قال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وأمّا يونس عليه السلام فقد ذكر ربه بالتوحيد والتسبيح ثم ذكر حاله وقال: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ والسبب هو اختلاف الحالين، فأيوب عليه السلام كان حاله البلاء، وذكر المرءِ البلاء الذي هو فيه سبب لبعث الرحمة في نفس الرحيم الرؤوف، ثمّ ذكرت صفته سبحانه بأنه أرحم الراحمين، أمّا المذنب فلا يقدِّم في خطابه ذنبه، فذكره مهيج للغضب، فالستر له أولى في أول الخطاب، وإنما يبتدئ بمدح الغفور وتعظيمه على وجه التكثير، فوحد الله وسبحه، ثم اعتذر عن نفسه بقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

والقرآن يعرض حالة أيوب وحالة يونس عليهما السلام ليعلم أهله أن البلاء في النفس والبدن والمال له أسباب في نفس الرب جلَّ في علاه، وكلها خير للمؤمن، فإنها ترفع الدرجات وتحط الخطيئات وتعرف مقام العبد وتدخله في مقامات الصبر التي يحبها الله لعباده.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ هذا العهد بالله تعالى، وهي صفته جلَّ في علاه، فإنه سميع الدعاء كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعِ الدُّعَاءِ﴾ فقد أخرجه الله من الظلمات وقال كما في سورة الصافات: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

وفي سورة نون، حصل له أكثر من هذا وهو قوله تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ثم كان أن أرسله الله رسولًا فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقد اختلفوا هل أرسل إلى قومه السابقين أم إلى غيرهم.

والغم في هذه الآية ليس المقصود قصرًا هو ما فيه من البلاء وأنه في بطن الحوت، بل أعظم منه غم الذنب كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ فإن كلمة يونس عليه السلام تدلُّ أن همّه أن يغفر الله له، وهذا من علمه بأن الذنب سبب ما هو فيه، فانشغاله بالذنب ليغفر موصل لغيره برفع البلاء.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ مؤيدٌ لهذا المعنى، فإن الإيمان المطلق والذي يحصل بالاستغفار والخروج من الذنب يحقق النجاة، فهذه نجاة بالإيمان من الذنب وعواقبه، وأمّا قوله سبحانه في سورة يونس: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ۝ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذه نجاة الأنبياء وأتباعهم حين نزول العذاب على أقوامهم. وهذه الآية دعوةٌ ربانيةٌ بالدخول في الإيمان للخروج من كل غم، وما كان في معناه وهو قوله ﷺ: ((إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)).

وهي دليل أن الاستغفار سببٌ لرفع البلاء كما قال ﷺ لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وذلك لما وقع بهم البلاء فاطيروا به وبمن آمن معه.

ونوح عليه السلام يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[38] فهذا إيمان خاص يحصل به النجاة من الغم وظروفه. والاستغفار موقفٌ عملي كما هو معنى قلبي ولفظ لساني، فالمستغفر يقول لفظه بلسانه، ويندم في قلبه، وأمّا العمل فهو الخروج من الذنب وتركه. ولا يقع الخروج منه إلا بإتيان الحسنة التي تقابله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ والحسنة التي يدخل منها لتمحى بها السيئة هي ما كانت على الضد من معناها، فإن تارك الصلاة يؤمر بعد توبته وإقامته الصلاة بالإكثار من النوافل، وكذلك الصيام، ومن تابَ من غيبة أحد عليه الاستغفار له والإحسان له والدعاء له، وكذلك حين تقع الأُمَّة في معصية ترك الجهاد، فيحل بها غضب الله من تسليط الأعداء عليها فإن توبتها أن تعود إلى الجهاد والإعداد له لترتفع آثار ترك الجهاد، وهكذا، أمّا الظن أنه بمجرد القول اللفظي يحصل رفع الإثم أو أثره فهو ظن غير صحيح، وقد علم أن المرتد لا يعود إلى الإسلام إلا من الباب الذي خرج منه، فكذلك بقية المعاصي هي على هذا المعنى والقياس.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه قاعدةٌ قرآنية، وهي تفيد في هذا الموطن أن كل بلاء وقع منه المرء بسبب ذنبه فاستغفر فإن الله منجيه منه بإيمانه، وإيمانه هو توبته كما تقدم، ولذلك قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد ذكر هناالإيمان لأنه موطن اتخاذ بني اسرائيل العجل إلهًا لهم، وهذه معصية توبتها بالإيمان، وأما قوله سبحانه في سورة النحل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهي عامّة، وإصلاح بني إسرائيل بعد اتخاذهم العجل إلهًا هو الإيمان فخص به في موطن.

[38] نوح: ١٠-١٢

وبهذا تعرض هذه الشخصية النبوية العظيمة التي قال عنها رسول الله ﷺ: ((لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى أَخِي يُونُسَ))، وهي كلمةٌ قالها ﷺ منعًا من أن يقع في قلب المهتدي بالقرآن شيئا يغمط حقَّ النبي يونس عليه السلام ومقامه وهو يقرأ ما وقع منه وله، فإن الله اجتباه وجعله من الصالحين، وجعله رسولًا مرة أخرى كما تقدم، وذكر مقام التوبة في القرآن تمثلًا بنبيٍّ عظيمٍ يدلك على حبِّ الله تعالى لهذا المقام، وحبه كذلك للداخلين فيه، والأنبياء هم أعظم الناس، وهم أولى من غيرهم في مقام التوبة والاستغفار.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٣٩]

وهذا نموذجٌ آخر، نبيٌّ عظيمٌ، أُظهرت صورة عرضه أجلى ما يحمله الإنسان من فطرة، ذلك بأنهم اختلفوا: هل معلم الرجل الأول في حاجتة للمرأة أم حاجته للولد، فإن الإنسان وهو من الإنس عنوان إنسانيته أن يكون له زوج وأن يكون له ولد، لأنها مظهر حاجته وضعفه، والله سبحانه وتعالى لأنه القائم على كل نفس بما كسبت، وهو الغني قال عن نفسه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ فالربوبية عنوانها الغنى المطلق، والإنسانية عنوانها الضعف والاحتياج، وأبرز خصال هذا الإنسان في ضعفه واحتياجه أن وجوده لا يتم ولا يتواصل إلا بالزوج والولد، فهما عنوان إنسانيته.

وزكريا عليه السلام بشرٌ يوحى إليه، بين أضلاعه شوق الإنسان وضعفه وحاجته، عاش حتى كبر وقال عن نفسه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ وقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ وقد كان أن كفل مريم – عليها السلام – فكان يدخل عليها وكان: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وزكريا عليه السلام يعلم أن الله على كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا أنفذه، لكن رؤية القدرة وآثارها أمر يثير في النفس معاني الإطمئنان، وهو أمر زائد عن الإيمان كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٤٠] فلمّا

[٣٩] الأنبياء: ٨٩-٩٠
[٤٠] البقرة: ٢٦٠

رأى هذا دعا ربه كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؛ فاستجاب له دعاءه كما في هذه السورة وعلى الوجه الذي قاله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. وفي سورة آل عمران كما في سورة مريم تساءل زكريا عليه السلام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾[41] هذا مع أنه السائل، فكيف تعجب؟

والجواب: أن لوقائع الأحداث على القلب لمة غير لمة العلم، كما أن لطلعة الأحداث حين تقع الفجأة معاني لا تكون لغيرها، فها هو موسى عليه السلام يخبره الله بما أحدث قومه من بعده من عبادة العجل، فلما رأى ذلك بأم عينيه قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾. فزكريا عليه السلام وإن سأل الولد لما عاين آثار القدرة بالكرامة الواقعة لمريم عليها السلام وكان من أدبه أن طلبه على معنى معين، وليس لمجرد الولد، مع أن طلب الولد أمر فطري كما تقدم، إلا أنه قال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقدم مقدمات لهذا الطلب هي على معنى التعليل له، وتعليل الطلب هو من القربى إلى الله، فإن الله يعلمها لكن يحب أن يسمعها من العبد كقول الرسول ﷺ: ((اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ))، وكقول عيسى عليه السلام حين طلب المائدة: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ومن أدب عيسى عليه السلام مع ربه أنه غير ترتيب طلب الحواريين، فإنهم قالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[42] فغير ألفاظهم لتناسب أدب الخطاب مع ربه، وهو باب عظيم الشأن في القرآن، فإنهم قدموا الأكل، وهو آخره، وجعلوها آية صدقه، فأسقط كل لفظهم واستبدلها خيرا فقال: ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ وجعل أعظم أسباب الطلب: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ والعيد أمره في دين الله تعالى يقوم على الذكرى لعوده كل عام، فيذكروا الله فيه، ويحمدوه على نعمه.

والقصد أن تعليل الطلب ينبئ عن الأدب، كما أنه يحصل القرب من المسؤول فقال الله عن زكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾

[41] آل عمران: ٤٠

[42] المائدة: ١١٣

وكلمات زكريا عليه السلام هذه قد أحاطت الحال كله، كما بلغت منتهى التقرب والتذلل عند السؤال، فإن السؤال للعظيم لا يكون إلا مع الثناء. وهنا في سورة الأنبياء قال: ﴿لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

والقصد من عرض هذا النموذج النبويّ العظيم هو ما تقدم لك، فإن أنبياء الله بشر يحبون ويشتهون، وتجري عليهم سُنَن الخلق في الحياة الإنسانية، فزكريا عليه السلام أراد ولدًا، لأن الإنسان من غير ولد بلا مستقبل، يموت كله حين تنتهي حياته، وأما بالولد فإنه يحيا الحياة كلها، والابن للإنسان خير من نفسه، فإنه يموت من أجله، ويدفع روحه ثمنا لبقائه، ولذلك قدم الله في آية المباهلة الولد والزوجة قبل النفس فقال: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤٣] وفي هذه الآية يطلب الولد لحياته قبل الوفاة، وأمّا في سورة مريم فطلبه لوراثته، وهذا الطلب هنا من الثقة بربه، فأن يلد له الولد ليرثه أمر عظيم، ويكون أعظم أن يلد له الولد ليكبر الولد في حياة أبيه فلا يجعله فردًا، ولذلك طلب غلاماً، فليس ذكرًا فقط، بل أن يبلغ معه وفي حياته مبلغ الغلام.

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ من الأدب النبوي في القرآن، فإنه كقول أيوب عليه السلام لما أمطرت الدنيا جرادًا من ذهب فجعل أيوب عليه السلام يحثو في ثوبه فناداه ربه عز وجل: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَىٰ؟ فقال عليه السلام: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ. فإن قول زكريا عليه السلام هنا كأنه اعتذار إن قيل: ألست وارثًا لك؟ فكان الجواب قبل ذلك: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، إنه أدب العاملين بربهم، والذين يراعون نظره سبحانه وتعالى، فما أسعد من عبد ربه في السرّاء والضراء على نورٍ منه جلّ في علاه، وما أشقى من جهل ربه فانتكس في السرّاء والضراء.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾؛ فهذا عهد السائلين له أن يستجيب لهم، فهم البشر الفقراء، وهو الربُّ الغني الذي يبسط يده ليجيب سؤالهم، ولعلك الآن قد أدركت من مراد عرض بشرية الرسل، وأنهم خلقوا محتاجين، يأكلون الطعام، ولهم أجلٌ محدود ثم الممات، وأن مقصد هذا العرض أن قدر الضعيف يرفع ويحمد حين يسأل الغني ، فبسؤاله للغني اعترافٌ بالضعف، وجبرله كذلك، فهب أن هذا النبي المرسل للبشر كان ملكًا لا يأكل ولا يشرب، ولا يمرض، ولا يتزوج ولا يتوالد، ولا يعرض له عوارض الألم والشوق، ولا عوارض معاناة الداعي الإنساني مع قومه، فلا يتعب تعب الإنسان، ولا يغضب غضبه، ولا يذنب ذنبه، فهل سيلتجيء إلى ربّه في التجاء المنادي المستغيث الذي يرقب قضاء حاجته على لهفة وشوق ؟ وهذا المَلَك الرسول إن لم يكن كذلك باطنًا وظاهرًا

[٤٣] آل عمران: ٦١

فكيف تتحقق به الأسوة لأُمّته؟ ثم لو كان هذا الرسول بقدرة المَلَك الذي لا يقدر قومه على حرقه، كيف ستقع آيات الله بنُّصرة الإنسان الذي ينجيه الله من الحرق؟

إنها البشرية التي تحقق الحب الإلهي في ضعفها وألمها وحاجتها وكذلك في ذنوبها، وهي التي تحقق نصر الله على قوى الآخر بضعفها وغربتها، كل ذلك من خلال سبيلٍ واحد هو سبيل هذه الكلمة العظيمة التي ترنو إليها قلوب العابدين، فهي أغلى عليهم من أرواحهم، يعيشون من أجلها، وفي كنفها مع كل خطوب الحياة وملماتها، وكل منعرجاتها وأحوالها إنها: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾؛ تبكي لها عيونهم إن تحققت عند الذنب، وتبتسم لها وجوههم إن تحققت عند البلاء، ويزداد يقين قلوبهم إن تحققت عند اشتداد الخطوب ومكر الخصوم، ويحمدون العطاء إن نظروا في كتاب الله أو في سُنّة رسوله ﷺ فيفتح لهم باب فهم، ذلك لأنهم لا يسألون سواه، ولا يخافون إلا إياه، ولا يرقبون إلا باب عطائه، فكل شيءٍ بيده، فهي الفارق في داخل هذه الشخصية المهتدية بين موقفين، فهم أشجع الخلق أمام الخطوب والخصوم، وهم الضعفاء أمام ربهم فيسألونه ليتحقق لهم واقع هذه الكلمة: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ وهم أغنى الناس عن الخلق، لكنم الفقراء أمام ربهم. فبها تتحقق قدرتهم، وبها يتحقق غناهم، فهي مدخلهم إلى النصر ومدخلهم إلى الاستغناء عن الآخرين.

إن هذه الكلمة العظيمة هي سرُّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ ذلك بأنهم صدقوه فصدقهم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾، لقد أعطاه الله ابنا، وأعطاه اسمًا، لم يُسم به أحد قبله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فهي هديةٌ خاصة لها سماتها التي تحمل حب الله لعبده كما حمل الدعاء حب العبد لربه.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ فقد شكى أنها عاقر لم تلد من قبل، فكان أمره بأن أصلح ما فيها فصارت ولودًا، فهو سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾[٤٤] فهو المانع وهو الرزاق سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

[٤٤] الشورى: ٥٠

إنها شروط إجابة الدعاء، وتحصيل المراد من بين يدي الرحمن الرحيم، فهم أهل الطاعات، يأتوها على جهة الغربة بلا تردد، وبسبب دون إبطاء وسبب ذلك ما قاله الله في سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٤٥] فهي الآخرة الحاضرة في قلوبهم، فيدعون ربهم رغبًا بجنته ورهبًا من ناره، وهم في ذلك كله أهل خضوع وتذلل لربهم سبحانه وتعالى.

فهذا عمل واجب الوقت بمسارعة: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

وهذا دعاء التوفيق ليحقق الله المقاصد عند أداء هذا الواجب: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾.

وهذا عمل القلب المصاحب لذلك كله، فلا منّ بالعمل: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ ولا غرور به فإن الضعف محيط بكل عمل الإنسان: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ حتى مع نصرهم كما دخل إمام المرسلين مكة على حال هذه الآية: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

لم تكن هذه صفة السائل زكريا عليه السلام فقط، بل صفة هذه العائلة المباركة، زوجاً وزوجةً وابناً.

فإن أردت استجابة الدعاء فقدم بين يدي دعائك عملًا صالحًا من الصلاة والصدقة والبر والإحسان، وأكثر من ذلك فإن هذا يفرح الله، ثم قم بين يديه سائلًا وأنت موقن بالإجابة، فادعه أن يحصّل لك الخير كله، ويصرف عنك الشر كله، فإن قضيت دعاءك، فابقَ على حال من التذلل والتواضع، وإياك والمن والغرور والإطمئنان بأنك صالح، بل ليصاحبك الوجل والخوف والخشوع، فإن الله وصف عباده بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فلم يوقعهم هذا العمل في الاطمئنان بل استغفروا ربهم بعد ذلك فقال سبحانه: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ[٤٦]﴾

في كل المواطن التي ذكرت فيها مريم – عليها السلام – في القرآن كان يسبقها ذكر زكريا عليه السلام، فإن آيته مقدمة لآيتها، فإنه بعدرق عظمه وشاب شعره وكبر عمره، وكانت امرأته عاقراً، وهي مثله في الكبر جاءه يحيى عليه السلام، وهذه لا يمكن أن يقع فيها الإتهام، لا له ولا لزوجه، ثم كانت آية مريم – عليها السلام –، وقد جعل الله

[٤٥] المؤمنون: ٦٠-٦١
[٤٦] الأنبياء: ٩١

على هذه الآية دلالات وليس مجرد الدعوى منها، فقد أقام الله آية كلامه معهم وهو في المهد، وعلم التوراة من غير معلم، فكان هذا كافيًا للمؤمن بأن يعلم أن دعوى مريم – عليها السلام – دعوى صدق، وأن الله جعله آية لهم،لكن أكثر بني اسرائيل أبوا إلا أن يقولوا فيها ذكرًا كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

وفي هذه السورة يقيم الله للمؤمنين هذا المثال العظيم في هذه المرأة الصديقة، وجعل أعظَم عملٍ لها هو: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

والمرأة في القرآن والسُنّة ليست هي التي في أديان الباطل، فإن عامة الأديان الباطلة والمحرفة تتهمها بالرجس والخبث، والتوراة ترى أنها سبب إغواء آدم، والقرآن ينفي هذا صراحة، بل يعلق ذنب الأكل من الشجرة على آدم عليه السلام كما في سورة طه فإن الله يقول: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فكانت الوسوسة إلى آدم مباشرة دون الواسطة التي تزعمها التوراة، وأمّا قوله سبحانه وتعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ حيث قدّمها في الذكر على الرجل، فليس هذا لأنها سبب الإغواء في هذه الجريمة، فإن تاريخ هذه الجريمة الكبرى، أي الزنا، لا تدل أن المرأة سببها، بل الرجل هو صاحب إثمها، وإنما قدمت المرأة في الذكر لعظم جرمها، فإن عار الزنا على المرأة أشد، إذ يلحق أهلها أصولًا وفروعًا، فهي أعظم في الجرم، ولكون هذا الجرم أعظم في المرأة، فإن ضده؛ وهو إحصان الفرج هو أعظم أعمالها عند الله تعالى، ووصفها – عليها السلام – بهذا الوصف لأن هذه الجريمة قد كثرت في بني إسرائيل، فإن النبي ﷺ ذكر أن أول فتنة بني إسرائيل في النساء، وفي حديث فيه مقال أن سبب انتشار هذه المعصية هو حلق رجالهم لحاهم فزنت نساؤهم، ومن أسباب انتشاره تغييرهم حد الزنا، فإنهم تركوا الرجم وجعلوا التحميم بدلًا منه.

وقوله: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ دليلٌ على أن دفع المرأة هذه الجريمة الكبرى، وهي محلها، هو عملها الواجب عليها، فإن ما تقدم ذكره من أعمال الأنبياء السابقين كان فعل، وها هنا ترك، وهو في حقيقته دفع منها للخبيث الطامع، فكان دفع المحل منعًا له من اقتراف معصيته، فإن الدعوة فعل في الآخر، والذكر والدعاء استجابة فعل لأمر، والوجود الإنساني ليس كله كذلك، بل قد يقع أن يكون المجتمع محلًا للفعل، فالطاعة حينئذ دفع هذا الفعل كما تدفع المحصن الرزان عن نفسها حيالة الخبيث، وهذا هو الواجب وبه يتحقق العطاء الإلهي لهذا المجتمع.

وهذا الجزء من الوجود الإنساني، وهو المرأة هو من أخطر الأبواب، ولذلك أمر الله بصيانته ودفع كل ما يفسده، فمنع النظر والخضوع بالقول والخلوة والسفر لها بلا مَحرم، ولا يوجد في الوجود ما يمنع النظر إليه سوى العورات، ويمنع النظر إلى المرأة كليًّا، وهو من باب الحياطة على أمر عظيم، فإن الشيء لا يزاد الحياطة عليه إلا لأهميته، وطروء الفساد على هذا الباب يعني فساد المجتمع كله، لأن المرأة هي الأم التي ترعى أبناءها وهي الزوجة والأخت والجدة، ففسادها فساد أبنائها وأحفادها، ولذلك فلا عجب أن يكون همّ الشيطان وجنده في كل زمان فتح الباب بل وكسره حتى تدمر قيم المجتمعات وأديانها، فيسهل قيادتها والتسلط عليها.

وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ إنما كان عن طريق الملك كما في سورة مريم، والنسبة هنا في: ﴿رُّوحِنَا﴾ نسبة ملك، ولكن تكون النسبة للتشريف، وأمّا عيسى عليه السلام فكما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهي آيةٌ على عظمة الله وقدرته، وآية فارقة بين المؤمن والكافر، والله سماها لمريم بشرى كما في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهي بشرى لم تقع إلا بالألم والابتلاء قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾.

وضرب المثال بمريم – عليها السلام –، وليست هي من الأنبياء فإن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ لأنها تحقق المراد الإلهي في هذا السياق، وهو أن آيات الله بالنصر والتأييد وبالحب تقع على معاني في البشر، وهي معاني لا تتحقق في الملائكة كما تَقَدَّم، ولأن في رفع مثال هذه الصديقة يحقق الأسوة لمثيلاتها من المؤمنات في هذه الطاعة العظيمة، والمرأة المؤمنة في إحصان زوجها وستر بدنها هي آية عظيمة في زمن الفساد، فإنها أقوى سلاح الإيمان ضد الشياطين وأعوانهم، فإن هؤلاء لا يغيظهم ويقتل قلوبهم وأرواحهم إلا حصانة المرأة المسلمة، وإنها لأشدّ عليهم من آلاف الرجال، وإن واقع المسلمين اليوم ليشهد على هذا، فإن النساء المؤمنات هن حلبة المعركة، وهن عدتها، كما أنها أنكى عليهم بما هي عليه من السلاح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[٤٧]﴾

---

[٤٧] الأنبياء: ٩٢

بهذه الخاتمة العطرة من ذكر أم عيسى عليهما السلام تكون قد تشكّلت معالم الجماعة المؤمنة، وقوام أعمالها ودينها وخلقها، وعمد صفاتها ومهماتها، ليصبح الإنسان بعد ذلك خارج إطار الانتماء القبلي والمكاني، فيدخل في سلك لحمة الإيمان وحب الله ورضاه، فهذه هي النسبة التي يرفع الله سلاسلها العظيمة، فتتخلل التاريخ آباء دين وإيمان وخلق وشجاعة وتوبةودعاء وتسبيح وعمل خيرات وخشوع وصبر، وبابها مفتوح يدعو رب العزة إليه وهو يخاطب أصحاب رسول الله ﷺ بقوله: ﴿هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾، فهي النّسب، وهم الآباء والأجداد، فإذا كان الوجود البشري لا يتم إلا بالجماعة والأُمَّة، فإن هذا القرآن يُشَكّل الأُمم على قيم الأنبياء وأعمالهم، لا على نسبة الدم والأرض، فالأبوّة والأخوّة والنبوّة هذا أُسّها وقوامها. فالله يقول لهم إن أردتم نسبة الحياة، فهذه هي النسبة، وإن أردتم نسبة من في السماء: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

لقد سارت هذه الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة بعيدًا عن حطام أقوامهم، معتزلين قيم الجاهلية، منتسبين لقيم الإيمان، فحصلت لهم الفرادة كخط الذهب الغريب بين ركام التراب ولا يبصره إلا أهله العالمين بجودته وقيمته، فقد مضى زمنٌ طويل، ودبّت على الأرض أرجل بشر لا يحصيهم إلا ربهم، لكن كانت أخية الإيمان تنصب في كل مرحلة وهي تعاني ألم الغربة، وبلاء المرحلة، فتبصر وتدعو وتثبت وتواجه، وكلما ازدادت عليهم ظلمة الابتلاء زادت فيهم إرادات الصبر وإرادات اليقين، فحصل لهم الحب الإلهي إذ ينظمهم سلكًا واحدًا؛ أنتم أهل طاعتي وأهل حُبي، وأنتم أهل رضاي وأهل جنتي.

هذه الفرجة الإيمانية التي ترسلها هذه الآية للصحابي المهتدي فيأنس حين يهجره الناس، ويعاديه الأهل، وتطبق عليه الغمرات والخطوب، فيبصر فيها أمته التي سبقته على هذا السبيل، فليس هو أبتر لا نسب له، بل يرى أمامه الخليل ولوط ونوح وداوُد وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ويونس وزكريا ويحي ومريم عليهم السلام، فما يصيبه قد أصابهم، وما هو فيه قد عانوه من قبل، ومن باب ما عانوه ووقع هو فيه كان مدخل الالتقاء على نسب الصادقين والصابرين وتحقيق حب الله ودخول الجنان.

إن أنسابهم هم قد قطعت، وإن آباءهم قد حل بهم الخزي والهوان، فقد بدؤوا وهم يرون الضعفاء والمساكين على سبيل غرور وكبر وتبجح، ونسوا أن الله يمكر بهم، فسار آباؤهم إلى قليب كقليب بدر يتلومون ويعذبون، وسارت ركائب آباء هذه الأُمَّة آيات تتلى في كلام الله لتشعل للسائرين نور الطريق، وقوده الإيمان بالله والصبر والدعاء وفعل الصالحات.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ هذا هو نسبكم إن كنتم مؤمنين، وهذه أعمال سلفكم في هذا النسب، وهي ما يجب أن تكون أعمالكم، فالأمر الأول الذي نجا به السابقون، هو الأمر الذي ينجيكم، فإن الدين واحد، وسبيل النجاة واحد، فلا حجة لتغير الزمن، ولا لتغير الوجوه، لأن عمل الإيمانوشرط النجاة في كل الأزمان واحد، فإنكم إن عملتم بالدعوة إلى الله فرشد إبراهيم عليه السلام سبيلكم، وإن أصبتم السلطان والملك ففهم سليمان عليه السلام نشدتكم، وإن وقع بكم البلاء في أبدانكم وأموالكم وأهليكم فصبر أيوب عليه السلام مقامكم، وإن أذنبتم جهلًا ونسيانًا فتوبة يونس أسوتكم، وإن أردتم العطاء الذي تحتاجه إنسانيتكم فدعاء زكريا عليه السلام سُنّتكم، فهذه شريعةٌ لا تتغيّر ولا تتبدّل، لأنكم أُمَّة واحدة.

وها أنت ترى أن قوام هذه الأُمَّة أعمال صبغت شخصياتها، فصارت عناوين الأُمَّة ممثلةً بهم، وصارت شخوصهم صورة المثال لهذه الحقائق من القيم الإيمانية العظيمة، فهذا رشد إبراهيم وهذه حكمة سليمان وهذا صبر أيوب وهذه توبة يونس، فكل وجود الإنسان لا بُدَّ أن يجد له ملاذًا في هذه العناوين الإيمانية العظيمة، وكلما دخل واحد فيها صار عضوًا من أهلها.

وهي أُمَّةٌ واحدة، إذ كل ما يجعله البشر حواجز تمنع تحقيق لحمة الإيمان هي حواجز جواهلية، فإن الرب واحد وسبيل الإيمان واحد، وهذه بحكم الله في كل مراحل التاريخ هي قاعدة تكوين الأُمَّة وتحقيق وجودها.

وحين يتساءل الناس عن الهوية، وما الذي يجمع الناس ويفرقهم يأتي الجواب القرآني: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، فإن هذه الأُمَّة التي تستحق قيادة الناس هي أُمَّةُ القيم، فلا استعلاء قولي، ولا غرور عرقي، بل الإيمان بالله وعبوديته هي القيم التي تستحق أن يجمع الناس حولها، وهي دون غيرها من تحقق الخيرية لهذه الأُمَّة من أجل قيادة العا لم.

بهذا يجتمع للأُمَّة القرآنية مصدر نسبها ومصدر قيمها، وتتحقق معانيها القلبية وأعمالها السلوكية، لأن الأُمَّة القرآنية هي أُمَّة الجهاد، وهي أُمَّة النصر الإلهي والوعد الإلهي، وهي بهذا المعنى تقابل الأُمم الجاهلية الأخرى، أُمم عبادة الطاغوت، وصناعة الأصنام، ونشر الوهم والخداع، وإفساد الأخلاق والقيم.

هي أُمَّة الفتيان الخارجين عن قيم آبائهم وأجدادهم ممن استمرؤوا الخوف وعبادة الأصنام، فهم فتيان اقتحام النيران بلا وجلولا خوف، وفتيان تكسير الأصنام والأوهام التي يصنعها شياطين الإنس لتذل لهم عقول وقلوب وجيوب البهائم البشر. وهي أُمَّة الفتيان الحكماء الذين وإن ورثوا العلم من السابقين، إلا أنهم يعلمون أن العطاء الإلهي ليس قاصرا على عمن مضى من حملة العلم، فهم يعرِّضون عقولهم وقلوبهم إلى نفحات الفهم الإلهي، فإنها لا تنقضي حتى مع انقضاء الرسالة وهي أُمَّة الصابرين والتائبين والواعدين و المسبحين والسابقين بالخيرات.

هذه حقيقة الأُمَّة القرآنية، وهي في سموها وربانيتها إلا أنها بشرية الحركة، إنسانية القانون، يصيبها ما يصيب كل البشر، فليسوا ملائكة، لكنهم إن صوّبوا آبوا، وإن أخطأوا تابوا: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

والقرآن حين يعرض مقومات الأُمَّة لا يعرضها قانونًا بلا مثال، ولا كلمات بلا حقائق، بل يُقَدِّم هذه المقومات بسلسلة النور التاريخية التي حملها رجال فيهم آمال وآلام الإنسان، فالنبوّة في القرآن ليست حالة فوق مستوى البشر، بل هي الإنسانية التي تتحمّل أعباءً وآلامًا أكثر من غيرهم من البشر، فليس لغيرهم العذر أنهم ليسوا أنبياء، بل الحقيقة أن الأنبياء يصبرون فوق صبرهم، ويلاقون أشدَّ مما يلاقونه، فالقول الصحيح أن يقولوا إننا أولى بالحمل والصبر لأن ما نعانيه أقل، وأن البلاء الذي فينا أدنى، فليس من شيءٍ يقع على أتباع الأنبياء إلا وقد وقع أشدَّ منه وأقسى على الأنبياء، ومع ذلك حققوا رضا الله، فلم يضعفوا ولم يدهنوا.

بهذه النماذج القرآنية يتم الإجابة التفصيلية على كل أسئلة الأُمم والأفراد، فإن الأُمم التي تستعبد بالآلهة الباطلة حلها رشد إبراهيم عليه السلام، وهو دكُّ هذه الأصنام والبراءة من عُبّادها، وهجرتهم، فإن المرء أكرم من يستعبد من آخر، وعبوديته لله تعالى تمنعه من عبادة غيره، وليس له من عذر أن يخضع لذلِّ الطاغوت وعبادته أنه وحيدٌ مستضعف، فليخط الخطوة الأولى ولا يلتفت وراءه، وسيرى بعد ذلك كيف تتحقق به الإمامة عاجلًا أو آجلًا، فهل بعد هذا يأتي جاهل ليزعم أن الإسلام دين خضوع واستسلام للظلم والفساد أو يأتي جاهل رعديد ليقول: إن القرآن لا يجيب على أسئلة الحياة؟

هكذا تفهم القصة القرآنية، وهكذا تقع بها العبرة، ويقع في رجالها الأسوة التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة، وإن كل خروج عن صفات هذه الأُمَّة هو كذب على الله وعلى دينه وعلى أنبيائه، وكل حكمة غير حكمتهم وكل اختيار غير رشدهم هو ضلالة وهوى وإن زعم صاحبه غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[٤٨]

فهذه الأُمَّة مع وضوح أمرها، واتفاقها على حقيقةٍ واحدة لكن الخلف لهم قد اختلفوا وتفرقوا، فصاروا التوحيد شركًا، والاتباع ابتداعًا، والهدى ضلالًا، وما كان هذا الاختلاف إلا خروجًا عن الحق وتغييرًا له، فإن الحق سبيل واحد، والباطل سبل، والخروج عن الحق لا يصنع حالة واحدة، ولا أُمَّة مؤتلفة، بل هو الافتراق بعد الأهواء، والتنازع عند كل سبيل ومنعرج، فالذي يحقق وحدة الأمة هو اتباعها للحق الواحد الذي حققه الأنبياء جميعًا.

ومع هذا التقطع والاختلاف فإن الجميع راجع إلى ربه ومحاسب.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ[٤٩]﴾

بهذه الآية يبقى باب الدخول في الأُمَّة مفتوحًا، فإنه وإن انقضت النبوة وانتهت إلا أن أعمالها لم تنتهِ بل كتابها مفتوح، وسلسلة النور ما زالت موصولةً يدخل فيها من حقق الشرط: ﴿يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. وشرط قبول العمل هو الإيمان بالله تعالى كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فكل من أتى بعمل حسن في نفسه، محبوب لغيره فإنه غير مقبول إن لم يكن صاحبه مؤمنًا، ولم يرد به وجه الله تعالى، ولذلك فشرط الانتساب لهذه الأُمَّة ودخول صحائفها لا يكون لغير المسلم، فإن غير المسلم غير مؤمن، لأنه كافرٌ بالله وبرسوله ﷺ، فالمسلمون أُمَّةٌ واحدة من دون الناس منذ أن بعث رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة، ولا يصح أن يدخل أحد في مسماها إلا بشرط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٥٠]

هذا عود على أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ فإن كل العرض الإلهي لقصص الأنبياء عليهم السلام وأهوالهم مع الواقع الإنساني في داخلهم وخارجهم كان تفصيلاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ إذ

---

[٤٨] الأنبياء: ٩٣

[٤٩] الأنبياء: ٩٤

[٥٠] الأنبياء: ٩٥

رأيت كيف تحقق لهم إجابة الدعاء، وكيف حصلت لهم النجاة مما كرهوه وآذاهم، وأمّا هذه الآية فهي لشرح حال القرى عند نزول العذاب وبعده، فإن الله ﷻ حين تقع إرادته في إهلاك قرية وتدميرها فإن إرادته لا ترد، ولا يرجع عنها العذاب، وهي تفصيل كذلك لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فإن القرية المهلكة لا تعود، وإنما تُستبدَل، وقوله سبحانه: ﴿حَرَامٌ﴾ بمعناها القَدَري لا الشرعي، فإنها تفيد جريان قدره الموجب الذي لا يرده راد.

وهذه الآية وما في معناها تفيد منع الفراغ في الوجود، فإن القرى المهلكة هي القرى العظيمة التي هي أم القرى في زمانها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، وهذه سُنّة البعث الإلهي للرسل، والذي يقع هو هلاك هذه «الأمم»، ويكون الاستبدال برفع أُمَّة أخرى، وقرية غير المهلَكة، وهذا هو الاستبدال الإلهي للقوة والمقدرة والسيادة، وقد تَقَدَّم لك في هذه السورة أن أعداء هذه الأُمَّة لا استئصال لهم، فهم هم، وإنما هي المدافعة والتبادل بين أهل الإسلام وبينهم، وليس استبدالًا لهم بأُمَّةٍ أخرى، فالقرى الأولى قد أهلكت، ولم تسكن بعدهم إلا قليلًا كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[٥١] ولتعلم أن هذه الأُمَّة هي آخر الأُمم، وأن أعداءها هم هم فإن الله ﷻ ذكر الأُمم السابقة في القرآن على ما علمت ثم جاءت هذه الآية التي تبيّن علامة الساعة الكبرى وهي:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[٥٢]

فالأُمم السابقة كان موعدها عذاب الاستئصال، وأمّا أعداء الأُمَّة المحمدية فموعدهم القيامة كما تبين هذه الآيات، فلا ذهاب لهم إلا بذهاب الدنيا وانتهاء الوجود، فهم قدرها تغلبهم ويغلبونها وفي كل موقعة يقع ما قاله الله تعالى في هذه السورة: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فإن كل موقعة بين الأُمَّة المسلمة وبينهم سببًا لعودة الدين، وانتشار الحق، ذلك بأن أعظم مُحرّضٍ على الحق هو الأعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ فإن الحق ينتفع بوجود الباطل، إذ لولاه لَمَا حصل نصر، ولَمَا حصل تمايز في المعاني والقيم، فمواقع التدافع تعيد الحق إلى نفوس الناس، وهذه الأُمَّة

[٥١] القصص: ٥٨
[٥٢] الأنبياء: 96-97

لا تبيد إلى قيام الساعة، وحين يكون الأمر كذلك فإن الانتصار مؤذن بالتراجع ليأتي الآخر ويشغل المكان لقانون الاستبدال، وإن الهزيمة مؤذنة بالانتصار، إذ الوجود ساحةٌ واحدةٌ بين المسلمين وأعدائهم، ولا يقع التداول إلا بينهما، وهذه الغربة الثانية مؤذنةٌ بالزوال، ولقد كانت العزائم ومواقع البلاء سببًا لعودة الدين في نفوس الناس، ولقد عاشت الأُمَّة في دعة زمنا طويلًا، قبل هجمة الأعداء فقامت الأُمَّة، وكان في نومها عفونة الكسل والسكون، فدبَّ فيها مفاسد العلم والعمل، ولم تنهض الأُمَّة، وتبدأ إزالة هذه العفونة العلمية والعملية إلا بسبب هجمة أعدائها عليها ومنذ اللحظة التي حصلت فيها الهزيمة كانت بداية الصعود للأُمَّة، وهي على هذا المنوال، وسيرى الناس آية زوال هذه الغربة من خلال المعيار القَدَري الذي وصفه الله فيها، وهي الأرض المباركة كما شرح في سورة الإسراء بحمد الله تعالى، وإن كل ما يقع في هذه الحياة هي مقدمات تحقيق الوعد، وإن طال عمر البعض فسيرى هذا جليًا إن شاء الله تعالى، وسيحمد عندها صبر الصابرين وجهاد المجاهدين ودعوة أهل العلم للحق والدين، فهي سوقٌ إيمانيةٌ عظيمةٌ تُفتح فيها صفقات العمل مع الله تعالى ليدخل فيها رجال غرباء لينتظم سلكهم في سلسلة النور والهدى التي يحبها الله ﷻ.

إذًا فموعد أعداء مُحَمَّد ﷺ وما بعث به هو يوم القيامة، وأعظم بلاء سيصيب هذه الأُمَّة هم من ذكروا في هذه الآية: ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، وهم من ذرية آدم كما في حديث بعث النار، وما جاء في وصفهم في السُنّة بدل أنهم هؤلاء الذين يقال لهم: العرق الأصفر من أهل الصين، وقد ذكر عن بعض أهل التاريخ المعاصر أنه حقق وجود هذا الاسم في قبائل منهم – وهو الدكتور عُمَر حليمة، مترجم كتاب [فن الحرب] لسَن تزو – ومقدمات ما نراه تشهد لهذا بكثرتهم التي لا تقارن في أُمم أخرى، وبخلوهم من كل قيم الحلال والحرام التي تُعرَفُ في الأديان.

وفي سورة الكهف جاء ذكر السد الذي جعل الله هدمه بالكلية علامة خروجهم فقال سبحانه على لسان ذي القرنين: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ والسور اليوم لا يمنعهم كما منعهم في زمن ذي القرنين رضي الله عنه، إنما هو التوقيت، فإن بداية خراب السور قد بدأ زمن رسول الله ﷺ، ففي الحديث أن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: إن النبيَّ ﷺ دخلَ عليها فزعاً يقول: لا إلَهَ إلَّآ اللهُ، وَيلٌ للعَربِ مِن شَرٍّ قَد اقتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ مِثل هذِه، وحَلّق بإصبعَيْه الإبهامِ والتي تلِيْها، قيلَ: يا رسولَ اللهِ أَنَهلِكُ وفِينا الصّالحونَ؟ قالَ: نَعَم، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ.

فسيكون خروجهم عند انهيار السد بالكلية كما قال تعالى: ﴿دَكَّاءَ﴾ وقد يكون هذا بعوامل التعرية، وقد يكون بآية كونية كالزلزال يصيبه فيهدمه، وقد يسأل سائل: أين السد هذا؟ فالجواب هو كما جاء في سورة الكهف بين جبلين، فليس هو بالأمر الكبير في طوله، ووصفه في سورة الكهف يدلُّ على مكانه، فإن ذي القرنين ﷺ بناه من زبر الحديد، مما يدل أن المكان الذي بني فيه يكثر فيه هذا المعدن، والذي يعرف أن أكثر منطقة في العالم يوجد فيها هذا المعدن هي المنطقة الواقعة بين منغوليا والصين، ثم تمتد إلى شرق الصين، حيث تكون سلسلة جبال إلى البحر عند الحدود الشمالية لكوريا الشمالية، والتقديرات أن ربع الحديد في الوجود واقع في هذه المنطقة، وبعضهم يقول إنّه أكثر من ذلك إذا أُضيفَ إليه المخزون مع منغوليا. ويقال إن أول حدادٍ في التاريخ كان منها، فالسدُّ هناك، لكن لماذا لا يراه الناس؟ فالجواب: لو بحثوا لوجدوه، فإن وجوده بين جبلين الدال على صغره وعدم طوله يجعله عرضة للستر، فإن الرمال وما في معناها يمكن أن تغطيه بسهولة، ثم يقال الحمد لله على ستر هذا السد، فإننا لا ندري ماذا يقع لو كشف.

ويأجوج ومأجوج يخرجون بعد الدجال، وبعد نزول عيسى عليه السلام وقتله له، ثم يأتون كما قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ وهناك يقول الله لعيسى عليه السلام: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ[٥٣]، هذا مع أن أهل الإسلام يقاتلون المسيح الدجال وجنوده كما يقول النبي ﷺ: ((حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ))، فالعجب أن يأتي الجاهلون ليمنعوا الجهاد قبل الوحي إلى عيسى عليه السلام، فإن الشرع لا ينسخ بمثل هذه التخرصات الجاهلة التي يقولها الجبناء، والمسلمون الذين يقاتلون الدجال وجنوده إنما يقاتلونه قبل المسيح عيسى عليه السلام، وإنما هو ينزل وهم مصطفون للقتال في أكناف بيت المقدس، فانتبه لهذا ولا تغرك شقشقات الجاهلين.

هذا مع أن أهل الإسلام ممن غابوا عن يأجوج ومأجوج لا تتوقف طاعتهم الواجبة عليهم ففي الحديث: ((لَيُحَجَّنَّ هَذَا الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ))، مما يدلُّ أنهم لا يصلون مكة حرسها الله وحماها، ولذلك يقض على يأجوج ومأجوج بعد دخولهم بلاد الشام، ويتم القضاء عليهم بمرض يصيب أعناقهم كما في الحديث: ((فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)).

[٥٣] رواه مسلم (٢٩٣٧)

إذًا بخروج يأجوج ومأجوج ينتهي التدافع بين الأُمَّة القرآنية وبين أعدائها، وبهذا يتحقق مقصد وجودها ويقضي فلا يبقى إلا الانتهاء فتقبض أرواح المؤمنين ومعهم عيسى عليه السلام كما قال ﷺ: ((فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ)).

وقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني الساعة، فإن خروج يأجوج ومأجوج من علاماتها، بل هي آخر العلامات وأعظمها، فلا يكون بعد خروجهما إلا الساعة، وفيها يقع ما قاله سبحانه: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولذلك لعظم هولها، واقتصر ذكر الشخوص على الكفرة لأن الساعة لا تقوم على المؤمنين، فإنها تقوم وليس على الأرض رجلٌ يقول الله.

فهذه النفخة الأولى التي يدمر فيها نظام الكون ويهلك فيها أهل الأرض. وأمّا شخوص أعين الناس عند نفخ الأرواح في الأجسام فهذه أخرى، وهي التي قال فيها: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ هذا مع خلاف أهل العلم في عدد النفخات، وأفضل من تكلم عليها الإمام القرطبي في التذكرة فانظره.

وقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هو كشأن كل أسلافهم حين نزول العذاب كما تقدم في أول السورة، وكما لم يقبل من أسلافهم فلا يقبل منهم كذلك، والله يقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

ويقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

ويقول سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فهذه ثلاث آيات في كتاب الله تعالى تُبيّن عدم قبول توبة الناس يوم القيامة، والمقصود هنا يوم القيامة هو بداية اختلال نظام العالم وذلك بخروج الشمس من مغربها كما في الحديث: ((مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ))، وهذا في مسلم من رواية عبد الله بن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأمّا في الترمذي ففي رواية زر بن حبيش: ((ذَكَرَ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا عَرْضُهُ، أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا، قَالَ سُفْيَانُ – أحد الرواة –: قِبَلَ الشَّامِ، خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مَفْتُوحًا، – يَعْنِي

لِلتَّوْبَةِ – لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ)). ففي هذه الآية يقول الكافرون: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[٥٤]

لقد تَقَدَّمَ في بداية السورة قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فتاريخ البشرية لا ينتهي هنا، بل له امتدادٌ لِمَا بعد دمار العالم وخرابه وقيام الساعة، وهذا الامتداد هو مقصود هذا الوجود، والقرآن يعرض مشاهد وحوادث تاريخ العالم بعد دماره في هذه الآيات، ويكشف فيها مصير الطواغيت المعبودين من دين الله، ونهاية أمثال أصنام وهياكل قوم إبراهيم عليه السلام، سواء كانوا من البشر أو الحجر أو التمر.

هذا المصير هو: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فإن كانت الحجارة لنار الأرض أثافي لا تحترق، فإنها لجهنم التي أعدّها الله للكافرين وقود كالخشب والبشر، وفي هذه الآية بيان طريقة دخول هؤلاء جهنم، وهي الحصب، أي الرمي، فإنهم يلقون بها رميا كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

والمعبودات التي تلقى في جهنم ما كانت من غير الصالحين، فعيسى عليه السلام وإن عبد من دون الله تعالى إلا أنه لبراءته من عبادتهم، ولدخوله في الصالحين، فإنه مستثنى من ذلك وقد ورد أن سبب نزول قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أنه تفسيرٌ لهذه الآية، فإن عيسى عليه السلام ليس واردًا في الآية لأن: ﴿مَا﴾ الواردة في هذه الآية من سورة الأنبياء لما لا يعقل، فعيسى عليه السلام ليس داخلًا فيها، كذلك هذه الآية وردت لقريش، وقريش لم تكن تعبد المسيح عليه السلام، فإيرادهم الاعتراض، أنه إن كانت آلهتهم داخلة جهنم فغيرها من المعبودات كعيسى داخلا فيها اعتراض باطل، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

[٥٤] الأنبياء: ٩٨-١٠٠

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ حجةٌ قرآنيةٌ في إبطال ألوهية الأصنام، كما كانت حجة إبراهيم عليه السلام بعدم نطقها، وقبل بعدم قدرتها بالدفاع عن نفسها على عدم ألوهيتها، فإنّ الذي لا يدفع عن نفسه لا يستحق أن يعبده ضعيف يحتاجه في الدفاع عن نفسه. وهذه مقابلةٌ بين الإله الحق الذي كانت أجَلُّ صفاته في هذه السورة نُصرةَ عباده والمستغيثين به ودفاعه عنهم حتى تحقق مرادهم مع ضعفهم أمام خصومهم، وما أَلَمَّ بهم من أحوالٍ وآلام، أمّا آلهتهم الباطلة فهي لا تدفع عن نفسها في الدنيا ولا في الآخرة. وهذه الآية تُبيّن خلود هؤلاء الطواغيت وعُبّادهم في جهنم، وقد ورد الخلود الأبدي لهم في ثلاث آياتٍ في القرآن:

– أولها في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

– وثانيهما في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

– وثالثهما في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فلا يُلتَفَتُ إلى قولٍ آخر لا دليلَ عليه، قاله مَن قاله من أهل العلم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، وهذا ضد صفة الإله الحق، فإن الإله الحق لا يضره غيره، ولا يشتكي شكاية الألم، وأمّا هؤلاء فلهم زفير التشكي والألم، وهم لِمَا فيه من العذاب لا يحسون أن غيرهم يصرخ ويستنجد، فإن الله تعالى قال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾، ومع ذلك فإنهم لا يسمعون إلا صوت أنفسهم لما هم فيه من الألم والعذاب.

فإن قيل قد ورد في القرآن حالات يكون فيها التخاطب مع أهل النار، ويكون فيها جوابهم كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

والجواب: أن هذا الخطاب كما هو ظاهر وفي آيات أخرى يكون أول الأمر، لما فيه من الاستنجاد أوالتبكيت ثم يختم عليهم فلا يسمعون، وهذا كقوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فيقع عليه عدم السماع بعد كل هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٥٥]

هذه الصورة المقابلة لِمَا سيقع في خاتمة الكتاب بعد دمار العالَم وقيام الساعة، وهي تعرض حياة المؤمنين وحالهم عند القيام من القبور، وهذا الكلام يعلم القارئ أن متكلمه إله عظيم، ولا إله سواه، فإنه خطاب الاستعلاء، فإنه حين يذكر عطاءه عليهم يوم القيامة إنما يذكر سبحانه أن الأمر كان في الأزل أمره، وأن الاجتباء كان منه جلَّ في علاه لهؤلاء المؤمنين، فإنه سبحانه هو الذي سبقت منه الحسنى لهم، فما فعلوه في حياتهم الدنيا إنما هو بما سبق في علمه وإرادته من تقدير عمل الصالحات لهم، فهو صاحب الأمر ابتداءً، وهو مجريه على عينه حين وقوعه، وهو المنعم به في خاتمة الأمر، فهو الإله الحق، وهو في هذا الخطاب لا يعرض حال المؤمنين فقط، بل يعرض فعل إلههم الحق كذلك، لأن الصورة السابقة هي عرضٌ للآلهة الباطلة وعابديها، وهؤلاء الذين سبقت لهم الحسنى هم أولئك الذين عرض الله أحوالهم من الأنبياء عليهم السلام، ومن هم على هديهم وطريقتهم.

والقرآن يعرض أن أعظم النعم عليهم هو بعدهم عن جهنم، وهذه لعمر الله أعظم النعم، فإن حق العباد على الله إن عبدوه أن لا يعذبهم، وأمّا الجنة فهي زيادةٌ على هذا الحق كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾، ولذلك لا يدخل أحد الجنة بعمله كما قال رسول الله ﷺ.

وقال بعض أهل العلم هذه الآية استثناء، ذلك بأن الله ذكر في الآية السابقة دخول الآلهة الباطلة جهنم، وقد عبد عيسى وعزير عليهما السلام وغيرهما، فاستثنوا هؤلاء بهذه الآية، وهو معنى صحيح يدخل في هذه الآية، وإن كانت أعم من ذلك كما ترى.

[٥٥] الأنبياء: 101-103

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ هو حالهم بعد دخول الجنة، وأمّا قبل ذلك فالله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ وهذا الذي فسّره ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ وذلك لبيان اتصال النعيم عليهم، فلا يقطع ولا يتحول.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي عند قيامهم من القبور بالنفخة الثانية، وذلك لما عاينوا من النعيم في القبر، فهم يعلمون أنهم صائرون إلى منازلهم في الجنة، ثم لقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فاستقبال الملائكة لهم بالبشرى تدفع عنهم الخوف، والله يقول: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٥٦]

يخبرنا الله تعالى عن نهاية هذا العالَم، وعما سيؤول إليه، وكيف هي سُنّته في هذا الانتهاء، فهذا خبر السماء يوم القيامة، فالله يطويها، وهذا دليل على أنها رقعة مبسوطة، وذلك خلاف الأرض التي يقبضها مما يدل على أنها مهمته، والمقصود بالسماء هنا هي طبقاتها السبعة، وهي معمورة بالملائكة، وقبل هذا الطي يحصل انشقاقها كما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، وقوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وهذا الانشقاق يزيد معنى ما تَقدَّم أن السماء رقعة منبسطة، والآية السابقة في سورة الرحمن وهي قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ هي كقوله تعالى في سورة المعارج: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ﴾. فالسماء إذا تنشق، ثم يطويها ربُّ العزّة سبحانه بيده، فحين ذلك يقبضها هي والأرض بيمينه كما في حديث ابن عُمَر رضي الله عنهما: ((يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ، أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟)). وعود السماء على هذه الشاكلة من القبض بعد الطي هو حالها عند ما خلقها الله تعالى، مما يدل على أنها كانت قطعة واحدة، وهذا الذي تقدم ذكره في السورة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

[٥٦] الأنبياء: 104

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ عامٌ في كُلِّ ما خلق، فإن الإنسان خُلِقَ من تراب ثم يعود كما كان ويبلى منه كل شيء إلا عجب الذنب، وكذلك ما ذكره الله من اتساع الكون بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٥٧] فإن هذا الاتساع يتوقف، ثم يعود كل شيء كما كان من قبل الاتساع، بل وقبل الفتق.

فإن قيل هذه السموات قد زالت، فأين الجنة؟ فالجواب: قال تعالى عن الجنة: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فهي فوق السماء السابعة، وهي مخلوقة الآن كما في أحاديث كثيرة، فهي أكبر من السموات كلها وما دونها، وسقفها عرش الرحمن.

وقوله تعالى: ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لقد تَقَدَّم ذكر فعل الرب في أمور كثيرة دالة على قدرته وذلك كقوله عن داوُد عليه السلام: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وتَقَدَّم إنجاز وعود الله تعالى للمؤمنين بالنصر وإهلاك أعدائهم، فأمر الآخرة هي من الوعد الإلهي الذي لا يتخلّف، وهي في وسع قدرته التي لا يعجزها شيء، والله عز وجل لا مخلف لوعده، ولا رادَّ لقضائه، فهو سبحانه صاحب الوعد الحق، وهو سبحانه القادر على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[٥٨]

فهذه كتابةٌ قَدَريّة، كانت وعدًا منه سبحانه وقد أنجزت، وهي ستنجز لمن حصل فيهم الشرط كأسلافهم وبعد أن كانت كتابةً قَدَريّة في اللوح المحفوظ، أعلمها الله للأنبياء ولأتباعهم في كتبهم، فقد أخبر بها سبحانه في الزبور لداوُد عليه السلام، وهو ما حصل في كتب الله كلها التي أنزلها على رسله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فإن الله كتب كل شيء قبل خلق السموات والأرض في اللوح المحفوظ.

والأرض هنا كل أرض فيها معنى الوعد، هذه الأرض، وأرض الجنة يوم القيامة، مع أن أولى المعاني هي هذه الارض، لأن هذه الآية إنما جاءت للتدليل على صدق وعد الله تعالى الذي وقع للصالحين في هذه الدنيا، وهو مؤذن بصدق الوعد عند دخول الجنان. ثم إن الأرض قد وطئت أول مرة بآدم عليه السلام، وهو نبيٌّ مُرسَل، فقد بدأت

[٥٧] الذاريات: ٤٧
[٥٨] الأنبياء: ١٠٥-١٠٦

بالإيمان وسيرتها الإيمان حتى يقبضهم الله تعالى بالريح الطيبة، والوراثة لا تكون إلا من سابق، وأرض الجنة لم يكن فيها قبل أهلها أحد ليرثها المؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هذا هو الوصف الجامع للشخصية القرآنية الوارثة: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ وهو لفظٌ جامع لقيم القرآن العلمية والعملية، وأول خصالها صلاح أحوالها وأعمالها وأقوالها مع الله تعالى. والوراثة استحقاق فهي ليست منحةٌ بلا معاناة، وليست عطاءً بلا مدافعة، بل هي صراعٌ ومغالبة، فلا تقع إلا بإزاحة الآخر، وسبيلها الجهاد في سبيل الله تعالى، ولذلك فأول وصف للصلاح في باب الوراثة هو وجود الاستحقاق لهذه الوراثة،وهي تحصيل القوة اللازمة لتحقيق النسب، وذكر الزبور هنا دون غيره لأنه كتاب نبي ملك، له سلطان وقوة، وقد علمت أن داوُد عليه السلام إنما حصل له الملك، واستحق الوراثة بقتله جالوت، فالإمامة في هذا الباب من الوراثة هذا سبيلها، ولا يتحقق وصف العبادة الوارثة إلا بالقوة اللازمة لها، وبالطريق السُنَني الذي جعله الله سبيلًا لهذا الهدف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ فإذا كانت العبادة سبيلًا لوراثة الأرض والخلافة، فإن علم هذا القرآن كذلك لا يكون إلا للعابدين كذلك، فالعبادة هي السبيل الصالح لتحصيل الخلافة والعلم. فإن معاني هذا القرآن، وعلومه، وحصول البلاغ في القلوب لا يكون إلا لأهل العبادة، والله يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا القرآن لا ينتفع به إلا أهله، وأمّا غيرهم فهم في عمى عنه.

وهذا المعنى، وهو سبيل الوراثة، هو أخفى علوم هذا القرآن، وما هذه القصص القرآنية لحياة الأنبياء وأتباعهم، والتي تفصل دقائق عمل الدعوة في كل جوانبها، وتفصل حياة النبي ﷺ مع قومه، في الدعوة والجهاد، إلا من أجل تحقيق البلاغ لهؤلاء المهتدين بالقرآن، فإن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله هي حياة هؤلاء العابدين، لا عمل لهم سواها، وحين تأتي الجوانب الفطرية لهؤلاء البشر من معايش وشؤون إنما تأتي على هوامش هذه الحياة، لا صلبها، وحين تذكر شؤون أعمالهم فلا ينوه ولا يبرز إلا ما كان عملًا مهم في هذا السبيل كما ذكر عن داوُد عليه السلام وعمله في تطوير وصناعة السابغات، ودقة صنعته في ذلك، فهذه حياة أهل القرآن، يسيرون في الأرض عبادًا لله، داعين إلى توحيده، وإلى التزام شريعته، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، وحين تقوم قائمة الشر وجودًا ماديًا ظاهرًا فإن رشد إبراهيم عليه السلام سبيلهم، وهم في هذا لا يهتدون إلا بالقرآن، فهو دليلهم، ونماذج الأنبياء صواهم التي يهتدون بها، فلا يقارعون إلا الطواغيت الكبار، مع علمهم أن أتباعهم هم فقراء الناس ومساكينهم، وفي كل خطواتهم

يأبون إلا التوحيد التام، والثبات على القيم التي يبدؤون بها، لأنهم يعلمون أنه كلما تقدمت خطواتهم نحو أهدافهم بالنصر والتمكين، زاد البلاء عذابًا وإغراءً كذلك، فإن حصل هذا فهو مؤذن بقرب الفرج.

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ فهذا كتاب عمل لا كتاب متعة واستطلاع، فهو كتاب العابدين، وهؤلاء ممن تقل كلماتهم وتكثر أعمالهم، ومن يراعون أمر الله لا أمر غيره، سيرتهم سيرة موسى عليه السلام حين طلب من ربه هارون معاونا له فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فألسنتهم رطبةٌ بذكر الله، ولياليهم مضيئةٌ بقراءة القرآن، فهم على وصف القرآن: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وحين يسيرون لا يخطون خطوة إلا بدعاء: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ و ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أمّا هؤلاء الذين يظنون أن العالم والدين والوجود مجرد كلماتٍ كبيرةٍ تتشدّق بها أفواههم، فألسنتهم أطول من حجم الأرض، فإن دعوا لصلاة جماعة زفروا متأففين، ولا يأتون القرآن إلا هجرًا، ولا يذكرون الله إلا قليلًا، لا تتحمّر وجوههم للمعاصي التي في بيوتهم وفي أموالهم وفي أبدانهم فهؤلاء ليسوا أهل القرآن، ولا هم رجال التغيير، ولا هم أصحاب وراثة الأرض ، فأبنية الإيمان لا يصنعها إلا من كان الإيمان وأعماله بناءً في حياتهم وألسنتهم وقلوبهم، وفي سرهم وعلانيتهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٥٩]

لقد مضى أمر الأنبياء على ما رأيت من أخبارهم، فلما جاء ذكر الحبيب ﷺ كان ذكره على هذا التعظيم والتكريم، فهو رحمةً للعالمين، رحمةٌ من كل بابٍ يعرفها الناس في أحوالهم، فهو الذي كان وجوده مانعًا من إنزال العذاب على الناس كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وهو رحمة بأبي هو وأمي ما أرحمه حين ادخر دعاءه إلى يوم القيامة، فإن كل نبيٍّ أُعطيَّ دعوةً مستجابةً قد مضت، وهو قد ادخرها ليوم القيامة، كما قال ﷺ، وهو الرحمة العظيمة التي حصل بها خروج الناس من الظلمات إلى النور، وهو الرحمة الذي أنزل عليه كتاب الله وكلامه ليكون هاديًا لهم، وهو الرحمة الذي بذل نفسه وماله ووقته صابرا على الناس حتى دخلوا في دين الله أفواجًا، وهو الرحمة الذي سيمتد الوجود باقيًا ما بقي دينه على الأرض، وهو الرحمة الذي لا يسأل ربه يوم القيامة

[٥٩] الأنبياء: ١٠٧

ما يسأله الناس من قولهم نفسي، نفسي؛ بل سيكون دعاؤه: أُمّتِي أُمّتي، وهو الرحمة الذي راجع ربه ﷻ حتى تكون الصلاة خمسًا في العمل، خمسينَ في الأجر شفقةً عليهم، وهو الرحمة الذي لو أتيتها من كل باب لوجدته مقيمًا هناك، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

فهذا هو أسوة المهتدين بالقرآن، يرقبون إرشاده وهديه، ويتقفرون قوله وعمله، لأنهم يعلمون أنه القرآن عملا كما قالت أمنا الصديقة رضي الله عنها : "كان خلقه القرآن"، فإن هداية القرآن لا تتحقق إلا بالدخول في هديه، وامتثال أسوته ونموذجه في كل عمله، فهو الأسوة الجامعة لهذه الكلمات المتقدمة: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ و ﴿عَابِدِينَ﴾، فلا صلاح ولا عبادة إلا ما كان منه ﷺ، ولا تحقيق لوراثة الأرض إلا بالسير على طريقه، فهو الصابر على أمر الله حتى تحقق له ما يريد، وكان أن دخل الناس في دين الله تعالى أفواجًا بلا مداهنة، ولا ركون، ولا تبديل، وكانت حياته التي وصفها بقوله: ((وَمَا أَنَا وَالدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)) هي نموذج الوارث الذي لا يريد فيها علوًا في الأرض ولا فسادًا.

إنه الأسوة الكاملة لتحقيق قوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْد﴾ حين يشد على أمر الله صابرًا، وحين يثبث على دعوته متيقنًا، فلا التفات إلى عروض الجاهلية، ولا ميل لكثرةٍ بلا هدى، ولا تجميعًا بلا دينٍ وتقوى، بل هي الصناعة الفريدة للقلة التي تقود التاريخ، وتنضوي تحت لواءها الجموع تابعة لا مسيرة، فلا مشاركة لجاهلية، لأن هداية هذا النبي في الوراثة والتمكين تعني أن الأُمَّة الوارثة هي أُمَّة الإيمان، وأن التمكين مراده تحقيق قيم الحق وعبادة الله وحكم شرعه سواه، فهذه رايتها دون رايات الجاهلية الأخرى التي ترفعها كل الدعوات الأخرى مقابل راية القرآن.

إنه رحمةً للعالمين لأن الخاتمة لهم إن اتبعوه هي جنة الرضوان، والنعيم الذي لا انقطاع له، والدخول في الرضا الإلهي، وهي رحمة الطبيب الذي يمنع، والأب الذي يعاقب، والصاحب الذي ينصح، فهي رحمة الهداية لا رحمة الجاهلية الذين يظنون أن الرحمة أن تجعل كل شيء مباحًا، وكل ما تشتهيه النفس حلالًا، وكل ما ترتاح له النفس مقدورًا عليه، فهذه رحمة تورث ذلًا وجهلًا وكسلًا ودمارًا، وهي رحمة أهل الضلالة ممن ينسبون له ما لَم يقله من تحليل الحرام، وترك الجهاد لمشقته، وتغيير الطريق لصعوبتها.

إنه رحمةً للعالمين لأنه يقف دافعًا ومحذرًا الفراش من السقوط في النار كما وصف نفسه، فإن الفراش جاهل غبي، يأتي النار على أنها حياته ونوره، وهي هلاكه وحتفه، فيدفعها الرحيم ﷺ، فيجهل الفراش عليه، ويقول فيه الأقاويل أنه قاس وشديد، ودينه دين الغلظة والعقوبة، فيتحايل كل التحايل لينفذ من موانعه، ثم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

إنه رحمةً للعالمين لأنه يبصر السراة الطريق الصحيح الموصل، فيجهل الجاهلون أنه طريق شاق، فيه ابتلاءٌ وآلام، فيذهبون ذات اليمين وذات الشمال، فلا يصلون، ثم يكون فوق ذلك كله آلام ودموع وعذاب.

إنه رحمةً للعالمين في كل بابٍ من أبواب الحياة. ورحمةً للعالمين؛ إنسهم وجنهم، وما في الأرض وما في السماء.

فصلى الله عليه صلاةً دائمةً لا تنتهي.

﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ هذا وصف الحليم الخبير، وإذ تختم سلسلة النور بهذه الرحمة فإنه لشرف لهذه الأُمَّة أن يجعلها الله وراثة الوعد الإلهي في الأرض، وأن يبقى أهل العلم فيها هم ورثة الأنبياء، فيهم خصالهم، وعليهم مهماتهم، وتجري على ألسنتهم كلماتهم، وأن يبقى أهل الشهادة فيها وراث السابقين من الحواريين والصالحين والشهداء، وأن تمتد صفة الحكماء والدعاة والتائبين بهم، فيكون في كل قرن، وفي كل مرحلة حملة لنور النبوة، وشهداء كلمةوموقف، وشجعان مواقف يبذلون أرواحهم مسابقة للحاق بالسابقين، فوالله لولا هؤلاء لصوحت الأرض، ولعادت قفرا لا يسمعفيها إلا أصوات الذئاب والبوم والغربان.

إنه رحمةً للعالمين حين وَرَّث هذا الدين إخوانه بعد أصحابه، وهم الذين تمنى أن يراهم، وهم في كل آن يتمنون أن رأوه، فلو سئل أحدهم أن يبذل روحه وأهله وماله من أجل أن يكون حصل له كرامة شهود مواقفه في حصار مكّة، أو في موقعة بدر أو عند فتح مكّة لبذلها هينة.

إنه رحمةً للعالمين حين علم أُمّته أن تصارع كبار الطواغيت حين يسكت الآخرون، وأن يقولوا كلمة الحق عندما يجبن من قولها كل البشر، ويصدموا أصنام الباطل وهي محمية بكل آلات الموت والقوة، فيلاقونها وعلى شفافهم بسمات الفرح باقتراب لقاء الله، وألسنتهم تلهج قائلة: وعجلت إليك ربي لترضى.

إنه رحمةً للعالمين لأن وارثيه دينهم وحدهم لهم شرف كسر شوكة طواغيت العصر، كل عصر، لأنهم يأبون الذلة إلالربهم، ويرفضون الخضوع إلا لخالقهم، وإن الذين يخافه الناس هم يطلبونه؛ إنها لشهادة في سبيل الله.

إنه رحمةً للعالمين حين يقضي آخر قافلة من أتباعه على المسيح الدجال، وهو الذي يسير في ركابه كل شياطين الإنس والجن.

فصلى الله عليه وسلم صلاةً دائمةً لا تنتهي، وصلى الله على آله الطيبين الطاهرين، وصلى الله على صحبه خيار الوجود بعد الأنبياء، وصلى الله على أتباعه السائرين على درب هدايته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٦٠]

هذا تذكيرٌ أن هذا النبي العظيم على سُنَن إخوانه الأنبياء كما تَقَدَّم في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فالدين عند الله واحد، ولا يكون الدين كذلك إلا ما كان وحيًا من الله تعالى، وهذا الرسول ﷺ متبع لما يوحى، وليس قائلًا لأمرٍ من جهة نفسه، بل كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، ولينظر في هذا الوعيد العظيم الذي يفتون، ويخبرون الناس حكم الله تعالى، فإن المفتي إنما يبلغ الناس ما يحب الله وما يكره، لا ما يحب هو وما يكره، فهل ينظر هؤلاء إلى ما يقولون: هل يحقق عبودية الله؟ وهل هو من توحيد الله وإخلاص الأمر له؟ هل يرضى الله تعالى أن يُشرَكَ به، وأن يجعل دينه واحدًا من كثير يؤخذ منه ويترك؟ هل توحيد الله يتحقق في جعل كتابه وسُنّة رسوله ﷺ يخلط مع غيره من أهواء البشر وزبالاتهم؟

أمّا أنتم أيها الدعاة، فليس لكم من الأمر شيء، فما عليكم إلا أن تبلغوا ما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ، رضيه الناس أَم أبغضوه، عاداكم الناس أَم قربوكم، استجابوا لكم أَم أعرضوا عنكم، عَلِّموا الناس أنكم عبيدُ لله، ولا تتحقق لكم السعادة في الدنيا والآخرة إلا أن تعبدوه وحده، تصلون وتزكون وتصومون وتحجون، وتكفرون بكل معبودٍ سواه، وتجعلون كل حياتكم له وحده، وتخضعون كل أموركم لأوامره وأحكامه.

[٦٠] الأنبياء: ١٠٨

بهذا تكونون مسلمين له ﷻ، فإن نازعتم في شيء من ذلك كله لم تكونوا إلا عبادًا لغيره من الأصنام والطواغيت، فيا أيها الدعاة؛ إن التوحيد الذي يحقق قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ حكم يدخل في كل الحياة، وفي كل أزمانها، وإن زمنكم اليوم قد نازع الزنادقة والمجرمون هذا الحكم، ودعوكم إلى الدخول في دينهم، فاستجاب منكم من استجاب تحت باب الالتقاء على كلمة غير كلمة التوحيد، وعلى منهج غير منهج عبادة الله وحده، فماذا جنيتم، هل اتخذوكم أخلاء يمدحونكم أنكم على دينهم، وهل اغتنيتم بالبسمات التي يلاقونكم بها، وهل زادكم هذا كله قربًا لله تعالى؟ نعم، لقد قدموكم أنكم غير متشددين وغير متعصبين، فهل أفرحكم هذا؟

إن العالم اليوم ككل أزمان التاريخ لا يصلحه إلا منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، فالمسلمون حالهم كحال بني إسرائيل في خضوعهم لفرعون، فهلا قمتم بعمل موسى وهارون عليهما السلام في إخراجهم من عبودية الطواغيت؟ وإن المسلمين مع حالهم في أكل الربا وتحليله كحال قوم لوط في إباحة إتيان الذكران من العالمين، فهلا قمتم بعمل لوط عليه السلام في إنذار أقوامكم؟

فيا أيها الدعاة: أخرجوا الناس من عبادة الطواغيت، واعلموا أنه لا تصحُّ دعوتكم حتى تخرجوا أنتم من ركابهم ومن اتخاذكم مطايا لهم تبررون لهم إجرامهم وتزورون على الناس دينهم. إنها ساحة الأنبياء التي ما زالت مفتوحة مع اتباع هذا النبي العظيم ليحققوا هذه الآية: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وإنها لآيةٌ تدعوكم بكل جلاء؛ إياكم بأن تجعلوا مع الله إلهًا آخر، وإياكم أن تجعلوا مع كتابه وسُنّة رسوله شريعةً أخرى، وإياكم أن تركنوا لغيره، بل قولوا مقالة إمام الحنفاء عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأعلموهم حكمهم في الآخرة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

اصبروا على دعوتكم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، فإن قالو لكم: نعم إسلام وغيره، فقولوا لهم قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[٦١]

---

[٦١] الأنبياء: ١٠٩

إنها المفاصلة، لا قبول عرض المشاركة، ولا قبول التنازل، فإمّا أن يعبد الله وحده وإمّا ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: "أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريءٌ منكم كما أنتم برآء مني." يقول ابن جرير رحمه الله: "أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعضكم لبعض حرب، لا صلح بينكم ولا سلم."

فهذا دين مُحَمَّد ﷺ، وهذا حكم القرآن في كل زمان، إمّا توحيد الله تعالى وإمّا ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.

إذاً هي المفاصلة القرآنية في الموقف، فلا يجوز الالتقاء على ما يسمونه منتصف الطريق أو بعضه، فهذه ليست حقوق شخصية، ولا هي آراء ذاتية، بل هي المفاصلة بين الحق والباطل، بين الهدى والضلالة، بين النور والظلمة، فالأمر أمر دين،هو كلمة الله وهو ما يحبه سبحانه وتعالى، وغير ذلك هي زبالات البشر وما يكرهه الله، فكيف يصح أن يجتمع هذان النقيضان؟

إنه شعار القرآن: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، يدعو نبينا مُحَمَّد ﷺ بأن يعلمه للناس منذ أول الدعوة، فهذه سورةٌ مكية، ففقه الاستضعاف يجيز لك التخفي والتستر، لكن لا يجيز لك أن تجعل الحق باطلًا، ولا الباطل حقًا، فالمبادئ ليست عرضةً للظروف، ولا مجال مساومة، وأيُّ مبادئ؟ أنها أعظم قضايا الوجود، وما خلقت السماوات والأرض إلا من أجلها: إنها كلمة التوحيد، ومنهج التوحيد.

يقولون: جازَ لك أن لا تعمل بالهدي الظاهر وقت الاستضعاف، وجازَ لك أن تترك ما يشق عليه سلوكه مخافة المحنة، كل ذلك تحتمله النصوص، وقال بعض أهل العلم، لكن من أين لهم القول: جازَ للمسلم في وقتٍ من الأوقات، وفي ظرفٍ من الظروف أن يقول بجواز عبادة غير الله تعالى، وأن يجعل ذلك مشروعًا، بل أن يمدح هذا التشريع ويُجعَل من هدي القرآن والسُنّة؟

إن القائلين بهذا التزوير قد كثروا في هذا الزمان، وجهلوا أعظم ما بعث به الرسل، وأجلى وأوضح مما نص عليه القرآن: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا هو المنهج القرآني، وهو الذي سلكه كل الأنبياء، وهو سُنّة النبي ﷺ في الدعوة إلى توحيد الله وتحكيم شرعه صافيا خالصا بلا شوائب،إنه ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.

فإمّا التوحيد أو الشرك، وفي هذه الثنائية لا اشتراك، ولا مناصفة، ولا نسبيته، وحين يكون الأمر كذلك تكون المواقف العملية كذلك، وأمّا في غير هذا فخوضوا كما تحبون، وقدّروا للصالح قدرها كما تشتهون، وتخففوا من الأحمال على ما ترون من الوسع والطاقة، فالمبدأ الذي لا محيد عنه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَحدَهُ﴾ فلا احتكام إلا إلى شرعه، ولا حق إلا ما في الكتاب والسُنّة، ولا دين صحيح في الوجود إلا الإسلام، وكل ما سوى ذلك باطل في نفسه، مورد لأهله الهلكة في الدنيا والآخرة.

وحين يقف الدعاة هذا الموقف، ويحاربون في زمن ضعفهم بالإيذاء والتحريق والسجن والتقتيل، فإنهم يحققون سُنّة السابقين، فإن هذا الموقف سيغضب عليهم من أقطارها، ولن يكون هناك مجالٌ للتفريق بين متشددٍ ومعتدل، ولا بين إرهابيٍّ ومسالم، لأن هذا الموقف الإيماني مع الاستضعاف بلا قوةٍ وسلاح هو موقف جهادٍ وبراء، والشيطان يدرك بخبثه أن هذا لا يصلح معه إلا الحرب بلا هوادة، والملاحقة حتى التحطيم، ومن هذا المبتدأ تسير رحلة الإيمان لتحقق في خاتمة المطاف الوعد القرآني: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْد﴾، فإن هذا الوعد العظيم له سبيله الوحيد، وهو منهج القرآن ومنهج الأنبياء: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، فالبداية الصالحة توصل إلى الأهداف العظيمة، وما بينهما هي رحلة الصبر واليقين، والتحمّل والثبات، والابتلاء والآلام، لكنها طريق الحق الذي يحبه الله ويحقق لأهله مرادهم.

ومع هذه البداية التي يعلن فيها أهل القرآن وأولياء الرحمن أنهم سينتصرون، وأن خصومهم سيهزمون، وهي بدايات لن تجابه قبل هؤلاء الخصوم، إلا بالاستهزاء، والتساؤل التاريخي لهم: متى هو، وسيكون الجواب القرآني حاضرًا: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ﴾، فهذا من اختصاص العلم الإلهي، وأمّا أنا فليس لي من الأمر شيء، فالداعي عبدٌ متبع، وحركة التاريخ تصنع من خلال المكر الإلهي بهؤلاء الطواغيت، وبالرعاية الإلهية لهؤلاء المستضعفين، وبعد حين، وهو لا بُدَّ آتٍ إن وجدت هذه المعادلة سيتحقق قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

إن مشروع الجهاد الذي وصل إلى حدّه النهائي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ إنما بدأت بهذا الإعلان القرآني: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ وقد فهم الوجود كله أمر هذه النبتة الطيبة من أول يوم، فلم يفاجؤوا بتغيير المسار كما يريد بعضهم اليوم، إذ يقولون: قولوا قولًا زمن الاستضعاف ثم غيّره في زمن الغلبة تحت أسماء الحكمة المزعومة.

إن هذا لا يصلح لدين الله، ولا يصلح مع أهل الحق الذين جاؤوا للوجود لتحقيق الرحمة كما هو شأن رسولهم ﷺ، وهم سيدفعون ثمن كلمة الحق في الإبتداء حين الضعف، لكنهم سيأخذون النصر ولن يلاموا يوم هذا الاستحقاق، فهكذا بدؤوا، وهكذا سمع الناس منهم ذلك في بداية الطريق: إمّا الإسلام وإمّا: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.

نعم، منذ الابتداء قالوا: مع التوحيد وتحكيم شرع الله، والحكم على الآخر من غير المسلم بالكفر لا مشاركة ولا مناصفة، فقالت الجموع عنهم: متعصبون، منغلقون، مجانين، وجاءت كل الجموع الشيطانية بحكاياتها في القرآن عليهم:

- ﴿أَخرِجُوا آل لُوط مِنْ قَرْيَتكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاس يَتَطَهَّرُونَ﴾.
- ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.
- ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.
- ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾.
- وأرتالٌ من الباطل الذي لا يعجز عن الكذب والدجل.

وقوله تعالى: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ هي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ فإن النبي ﷺ لَمّا قال هذه الكلمة: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ لم يكن يستطيع الدفع عن نفسه ولا عن أتباعه من المؤمنين، فلم تكن هذه إلا كلمة قرآنية، أوحى الله لرسوله ﷺ أن يقولها، فهذا هو الإنذار بالوحي؛ أي أن يخاطبهم بوعيد القرآن، ومن وعيد القرآن غير الآخرة ما سيتحقق من النصر للمؤمنين الصابرين، حين تصبح كلمات القرآن وجودًا إيمانيًا غالبًا بهم، وتتحول الكلمات إلىجنود ورجال، فهم يحققون الوعد الإلهي كما يحققون الوعيد الإلهي على قاعدة ذي القرنين لَمّا قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

فهذا هو النذارة بالوحي، حين يحقق رجال هذه الأُمَّة كلمات القرآن واقعًا في الوجود، فيحبون ويحمدون من يحبه الله، ويعادون ويعذبون من يبغضه الله ﷻ.

هذا وعد الله بالنصر، طال انتظاره أَم قصر، فالأمر كله لله تعالى، يجري فيها أقداره بحكمته، وخلال هذا الزمن يقع الابتلاء لهؤلاء المؤمنين، حين تعرض عليهم عروض الجاهلية، فيستجيب البعض لطول الطريق ومشقة التبعات، ويعتذرون بأن الزمان قد تغيّر، وبأن الجاهلية اليوم ليست هي الجاهلية الأولى، وبأن الزمن اليوم هو زمن تحقيق مصالح الناس لا تحقيق العبودية لرب العالمين، فيسقط الكثير، جهلًا حينًا، وتأويلًا حينًا، وادعاءً للحكمة حينًا، ثم لن يبقى إلا القليل ممن فقهوا القرآن، ورغبوا بالدار الآخرة، وتيقنوا أن طول الطريق لن يلقي الوعد بل سيقربه، وأن كثرة المخالفين لا تضرهم، وأن قلة السالكين معهم لن تخذلهم.

فيا عباد الله؛ فاثبتوا على ما ثبت عليه الأولون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾[٦٢]

نعم والله، إنها رحلةٌ شاقة، وستعرض على النفوس كل يوم عشرات الواردات، فالسالكون قلة، والمخالفون كثرة، وكل يوم يعاني هؤلاء السالكون حصارا وتغييبا، وإبعادا وإيلاما، وكأن الوجود لا يهتم بوجودهم، إذ الأضواء على هؤلاء: «المعتدلين» الذين قبلوا عروض الجاهلية، فألصقت بهم كل صفات الحسن والجمال، وقدموا بأوصاف الإنسانية المحببة، وأمّا هؤلاء الذين يمشون على قاعدة القرآن وطريق الرسل فلهم السجن والتغييب والعذاب، كما لهم الاستهزاء والتقريع واللوم.

فهل تسكت النفوس عن هديرها، وما الذي سيقمع هذا الإنسان الضعيف الساكن في الجنبات؟

إنها هذه الكلمات الربانية: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾؛ فهذا التدبير تدبيره، وكل شيء تحت إرادته، فهو العليم بكل شيء، ما أظهره الناس وما أخفوه، فالمؤمن يقلب نظره في السماء باكيًا شاكيًا متألماً: متى هو؟

---

[٦٢] الأنبياء: ١١٠.

ويضعف حينًا فتنتشله آيات القرآن: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، وتركض النفس هائجةً هناك لتركض للمعروض فتردها: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾.

وتنادي الكلمات في جوف الليالي ربها: ﴿انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فهي تعلن وتسر، والله: ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

وهناك حيث الشر والطاغوت يعلنون ويسرون، ويمكرون سرًا وجهرًا، والله: ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

ومن هذين الموقفين تتحقق حكمة الله في الوجود، حيث يكون التدافع ويتحقق الوعد على هؤلاء البشر الضعفاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٦٣]

ما بين النذارة في كلماتها الأولى، إلى تحقق الوعد تمضي جموع المعرضين على الوجه الذي تكشفه هذه الآية، فكل ما سيجري لهم إن لم تكن الهداية هي فتنة، فينعمون فيها قليلًا بسبب غفلتهم لكنها إلى حين، ثم إمّا العذاب وإمّا الساعة.

وهذا كله لحكمة الله وعلمه، وأما أنا فلا أدري كل شيء، ولا أستطيع أن أُفَسّر كل حدث، فما شأني فيكم إلا امتثال أمر الله كما قال تعالى عنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وخلال هذه المتعة يزيد الاستهزاء، ويزيد التساؤل المنكر: أين ما وعدتنا به؟

والداعي لا يملك إلا أن يجيب: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾.

[٦٣] الأنبياء: ١١١

أمّا تفسير لماذا تمتعون وأنتم معرضون، فهذا أمر الله تعالى، فإن قوما منع عنهم العذاب لتحقق إيمانهم بعد ذلك كما قال الله عن حوازن بعد حنين: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أم أنه زيادة ابتلاء على المؤمنين لخير لهم في كشف الضعفاء وعزلهم، ولرفع الدرجات لحصول الاستحقاق بالنصر، أم لتنهك المتع جنباتكم فيسهل القضاء عليكم رحمة بالمؤمنين، كل ذلك في علم الله تعالى.

لكن وعد الله تعالى سيأتي، ولا تكونوا كالذي قال الله عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وفي هذه الآية إرشاد رباني للمؤمنين أن لا يتألوا على الله بتغيير مراده في الأمر، فإنهم يستطيعون إدراك فعل البشر ومقاصدهم بالنظر إلى القرائن، لكن التألّي على الله كذب عليه، والقرآن الكريم بين مقاصد متعددة في صرف الأمور التي يرغب بها المؤمنون، ولا يكون مراد المؤمنين موافقا لحكمة الله في الفعل ومن ذلك حادثة غزوة الحديبية كما تذكرها سورة الفتح وفيها قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وكذلك حادثة حروب عير أبي سفيان التي كانت سببًا لبدر كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾

ومثلها أمره ﷺ لحذيفة بن اليمان وقد أرسله ليستطلع خبر الأحزاب ونهيه أن يحدث حدثًا، وقد كاد أن يقتل أبا سفيان فتذكر نهي النبي ﷺ فلم يفعل، وقد كان أن أسلم أبا سفيان رضي الله عنه بعد ذلك.

وكذلك حادثة عفوه عن سهيل بن عمرو وقد أسر عندما طلب الفاروق رضي الله عنه أن ينزع مقدمة أسنانه (اثنتيه) فنهاه وأخبره بما يرجو من الخير له، وقد كان، فقد قام خطيبًا في أهل مكة بعد وفاة النبي ﷺ وحرضهم على التزام الحق والثبات على الدين.

وحوادث كثيرة يكون مراد الله تعالى فيها أعظم من مراد المؤمن، فإن المؤمن إنسانٌ ضعيف، له بصر قاصر، والله هو العليم الحكيم، ولذلك كم من الحوادث ظنها الناس خيرا فلما انقضى زمانها تبين لهم أنها شرٌّ عليهم، وكذلك العكس، فكم من واقعة كرهها الناس وتألموا لها وعابوها ثم كان فيها الخير الكثير وكما قال الله تعالى عن المرأة المؤمنة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وأمور الدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله تعالى هي أعظم الأمور خفاءً في مآلاتها، والمتكلمون اليوم فيهما كثير، وأغلب هؤلاء إنما يقسون ويحكمون بما يفاجئون فيه من الألم والابتلاء، فيطعنون فيهما، ويقبحون القائمين عليهما، إيثارًا للسلامة، وحكما على عاجلة الحدث، ثم يتبيّن بعد سنين أن الخير العظيم كان كامنًا في هذا الأمر، ولذلك فالسبيل هو التسليم لحكم الله، والقيام بأمره دون اعتراض، وقد يفوتك رؤية العاقبة، لكن شرع الله لا يأتي إلا بالخير، ولو تفكّرت في حال النبي ﷺ وهو يدعو إلى الله تعالى ثلاثة عشر سنة في مكّة، ولم يؤمن معه إلا القليل، ولو حضر بعض المتكلمين اليوم تلك الأيام لقالوا الكثير، ولطلبوا التغيير، ولاجتهدوا في وضع الحلول الشخصية منذ السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة، ولجعلوا الدعوة إلى الله نهبًا لأفكارهم زعمًا أن هذا الطريق لم يوصل لشيء كثير، ولكن كانت رحمة الله بالهجرة، وحصل الدفق والعطاء الإلهيين في مدة هي أقل من مدة الصبر، فإن فترة مكّة على حالٍ واحد كان أطول زمنًا من كل أحداث المدينة على تنوعها وغناها، لكن هذا التنوع والغنى لم يكن ليكون لولا هذه الفترة المباركة المكية، والتي أرست قواعد البناء، فإن القواعد أشقُّ وأصعب في البناء من التوابع.

ونحن نرى في زماننا أقوامًا صبروا وصبروا ثم آلَ بهم الأمر إلى اليأس، فغيّروا وبدّلوا وزعموا أن دينًا جديدًا قد ظهر لهم غير ما كانو عليه، فما هي إلا أيام حتى فتح الله الخير، وأظهر الوعد، وكشف ما كانوا يحبون، فبعضهم ندم وآب إلى ما كان عليه، وبعضهم أخذته العزة بالإثم فأصرَّ على ضلاله وسار بعيدًا عن طريق الهدى والحق.

لقد كان الوعد كامناً منذ أول يوم، ومنصوباً منذ اللحظة الأولى والكلمة الأولى، يخبرهم به رسول الله ﷺ كما في حديث خباب رضي الله عنه وهم يقرؤون في كتاب الله كما في هذه السورة، ولم يقع هذا الوعد بعد يوم ولا يومين، بل بعد ثلاثة عشر سنة، عاشوا خلالها القتل كما وقع لسمية وياسر رضي الله عنهما، والهجرة تلو الهجرة كما وقع لأهل الحبشة، والذهاب إلى الطائف، والحصار والتجويع، والتحريق، واليوم يريد الجاهل أن يقرأ الوعد اليوم ليراه غدًا،

ويرى الرؤيا الصالحة فيصحو من نومه ليجدها أمام عينيه، فيا لله كم جهل الناس حكمة القرآن، وسُنّة الوعد، ولولا رحمة الله تعالى بهذا الدين لما رأيت إلا ظهورًا معرضة، وركائب منهزمة قد زعمت أن ما كانت عليه لم يكن هو الدين الذي تعرفه اليوم، فإن دين الأمس كان فيه الشهادة والدماء، والسجن والهجرة، والآلام والخوف، أمّا الذي اكتشفوه اليوم فهو دين المشاركة ومصالحة الجاهلية ومداهنة الطاغوت، والاعتذار عن التوحيد، والنكوص عن رشد إبراهيم عليه السلام.

ليتمتع الكفرة زمن، وليعيش أيامه، فما هي إلا سُنّة التداول، وأهل الغربة الثانية يعيشون الوعد بين جنباتهم وأنه قادم، لأنه كلمة الله، وليسمها الجاهلون كل أسماء الطيش والاستهزاء، وليذهب عن هذا السبيل من لا يأتي القرآن إلا هجراً، ولا يفقه منه إلا كما قال تعالى عن بني إسرائيل في فهم كتابهم: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وليفرح الجاهل بالجموع الصارخة، وبكلمات الرضا من أهل الشرك والردّة، وليتحالفوا معهم ضد عصبة الإيمان، وليسوقوا لهم كلماتهم الضالة، فما هي إلا لحظات متعة، وأيام خداع يعيشونها، وسيأتي الوعد الحق جارفًا كل زبالات الجاهلية، وكل سلطانها، وستفتح أبواب الشهادة في كل الصعد، وخصوصًا صعيد الأرض المباركة وأكناف بيت المقدس، وستسيل كتائب الإيمان من كل حدبٍ ليقاتل آخرها المسيح الدجال مع إمامهم قبل نزول عيسى عليه السلام، لأن عيسى عليه السلام هو مِسك ختام هذه العصبة الصابرة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٦٤]

هذه عدة هذه العصبة، وهي كلماتها خلال فترة الابتلاء لهم والمتعة لخصومهم، فالله سيحكم بيننا وبينكم، وحكمه الحق، وهو الحكم الذي سيحقق نصره لهؤلاء المساكين، وقد قال قَتادة: أن النبي ﷺ كان إذا شهد قتالًا قال: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾، فهي كلمات أهل الإيمان دعاءً لربهم زمن البلاء، وزمن المحن، وعند اللقاء، دعاءً يرجون به ربهم أن يحق الحق الذي أحقه يوم بدر: ﴿لِيُحِقّ الْحَقّ وَيُبْطِلِ الْبَاطِلِ﴾.

والله عز وجل كل حكمه حق، فعند الاستضعاف له حكمة جلَّ في علاه، وعند الغلبة والنصر له حكمة، ولا يقع جلَّ في علاه إلا الحق، ولكن العبرة بوجود أهل الحق ليقع لهم إحقاق الحق الذي يتم فيه نصرهم وهزيمة أعدائهم.

[٦٤] الأنبياء: ١١٢

قد تطول أيام دعائهم: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ وقد تقصر، لكن لن ييأسوا من ترديدها، بل كلما طال الزمن يعني اقتراب الوعد لا بعده، وهم اليوم يقولونها رجاءً، وسيرونها واقعًا حين يحلُّ العذابُ على أعداء الله وأعداء دينه ورسله، فالحق في هذا الباب ليس هو الشرع ولكنه القَدَر الذي يكون فيه انتصار أوليائه وهزيمة أعدائه، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوله بِالْهُدَى وَدِين الْحَقّ لِيُظْهِرهُ عَلَى الدِّين كُلّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فإن الحق في معناه لا يكون كذلك إلا ووقوع قدره بالنصر في الخاتمة، ذلك بأن الحق ليس معنى نفسي قيمي فقط، لكنه معنى وجودي يتمثل برجال وطائفة وقوة وعدو، ولا تكون العاقبة إلا له على وجه يعلم الوجود كله أن هذا الأمر مرعي بالغيب، وحين يتحقق لأهله النصر فإنهم يعلمون علم اليقين أن الله فاعله، فلا يقولون إلا ما قال إمامهم يوم فتح مكة: نَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزابَ وَحْدَهُ. يقول ابن عباس: "لا يحكم بالحق إلا الله، ولكن إنما استعجل بذلك في الدنيا، يسأل ربه على قومه"، ذلك بأن النصر في الدنيا هو كرامة زائدة كما قال تعال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْر مِنْ اللَّه وَفَتْح قَرِيب﴾. أمّا تكذيبكم للوعد، واستهزاؤكم به وبأهله ووصفهم أوصاف الباطل من الجنون والغرور وغير ذلك فلا يرد عليه إلا بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

فهذه أيام الصبر، ولا نستعين على ما نراه منكم إلا بالله وحده، فإن الألم شديد، والبلاء عظيم، والمهمة ثقيلة، والأنصار قلة، والمعرضون كثير، واليائسون المتساقطون ألماً فوق ألم ولكن: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

فالله هو المستعان لا غيره، وإن لم ينجينا منكم فلا منجي لنا منكم سواه، وإن لم يتحقق لنا النصر منه وحده فلن نطلبه بالنكوص ولا بالتخاذل ولا بالنوم على ما اخترناه من هدي القرآن، فما نحن إلا عبيده، والسيد العزيز الحكيم لن يخذل عبده، ولن يضيعه، ولن ينصر عليه غيره، لكنها حكمة الوجود أن يختبئ الوعد في ثنايا الابتلاء والخوف والألم لأن الجنة غالية، والإيمان لا يتحقق إلا بالصبر على ترك الشهوات وخوض الغمرات والمكاره.

أمّا أوصافكم الكاذبة فإنا نعلمها، فقد قالها أسلافكم لأئمتنا من قبل، فتألموا منها، ثم صارت بعد الصبر ومجيء الوعد ذكرى يستهزأ بها المهتدون، ويركنون لحظات استرجاع أن هكذا كان يقول عنا أبو جهل وأبو لهب، ولكن: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

والحمد لله رب العالمين.